العودة إلى ما وراء النهر

رحلة في آسيا الوسطى وحديث عن شؤون المسلمين

ⓒ محمد بن ناصر العبودي ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر

العودة الى ما وراء النهر .- الرياض

... ص ، .. سم

ردمك :٢-٣٤٢-٣٦-٩٩٦٠

١ -المسلمون في آسيا الوسطى ٢ -آسيا الوسطى - وصف ورحلات أ -العنوان

ديوي ٩٥٨ ٢٣٩٢ / ٢٠

رقم الايداع :٢٣٩٢ / ٢٠

ردمك :٢-٣٤٢-٣٦-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله الذي أنالنا ما تمنيناه، من الإطلاع على بلاد الأخوة المسلمين وفق الخط الذي رسمناه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم لقياه.

أما بعد؛ فإنني عندما زرت (بلاد ما وراء النهر) في الإتحاد السوفييتي آنذاك كنت في غاية السرور لتيسر تلك الزيارة التي تمت في عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م. وكان ذلك في أعقاب العهد البريجنيفي في الإتحاد السوفييتي وهو عهد متشدد متزمت وكان مجرد الوصول إلى أي بلد من بلاد ما وراء النهر يعتبر حدثاً عظيماً إلا بلداناً مخصوصة اعتبروها مفتوحة مثل طشقند وسمرقند وإلا فإن الحاكمين السوفييت الذين يقودهم الروس يرون أنها بلاد مغلقة.

وعندما قبلنا الدعوة التي وجهتها الإدارات الدينية الأربع للمسلمين في الإتحاد السوفييتي التي كانت موجودة آنذاك إلى رابطة العالم الإسلامي بإرسال وفد من الرابطة يرأسه الأمين العام أو الأمين العام المساعد ـ كاتب هذه السطور ـ كان أقصى ما أملته وقد تقرر أن أرأس الوفد هو أن تشمل زيارتي بخارى مدينة الإمام البخاري ولكن السفارة السوفييتية في عمان التي حصلنا منها على سمات الدخول إلى

الإتحاد السوفييتي حذفتها من المدن التي أردنا زيارتها فصارت الزيارة محددة في طشقند وسمرقند وخرتنك وعدة قرى تابعة لطشقند.

فكتبت كتابي الأول عن المسلمين في الإتحاد السوفييتي بعنوان (في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر) لأن تلك البلاد كانت معروفة في كتب أسلافنا المؤرخين من العرب والمسلمين باسم (بخارى وما وراء النهر) إلا أنني كنت أشعر بأن زيارة مدينة الإمام البخاري لا بد منها لشفاء ما في نفسي من الإطلاع عليها وليكون عنوان الكتاب أكثر مطابقة لمضمونه.

وقد شاء الله تعالى أن تعصف العواصف من العواطف في ذلك الإتحاد القسري المسمى بالسوفييتي بمعنى الشوري وهو في الحقيقة ليس فيه من الشورى شيء فيعلن رئيسه (ميخائيل قورباتشوف) سياسة (البيروسترويكا) بمعنى إعادة البناء، و(الجلاسنوست) بمعنى المكاشفة أو المصارحة، ثم تتطور الأحداث عندما انفتح للحرية فيه أول ثقب ما لبث أن اتسع وسار القطار به إلى غير ما كان يريد قادته من الشيوعيين أن يسير.

وكانت لنا رحلة إلى تلك البلاد (بلاد بخارى وما وراء النهر) في ظل تلك السياسة التي تراخت فيها القبضة الشيوعية، وجعل أهل البلاد المبتلون بها بل حتى الذين كانوا من مسيري الأمور فيها يتبارون في كشف مساوىء الشيوعية. وضرورة الخلاص من ربقتها.

وكانت تلك الزيارة في عام ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، وشملت فيما شملت منطقتين مهمتين من الإتحاد السوفييتي أولاهما: المنطقة الروسية والمنطقة التتارية وكلاهما يشمله اسم (جمهورية روسيا الإتحادية) وقد كتبت عن ذلك كتاباً بعنوان (الرحلة الروسية).

والثانية إلى (بلاد ما وراء النهر) وقد شملت ثلاث جمهوريات فيها هي أوزبكستان وتاجيكستان وتركمانستان وشملت أيضاً زيارة مدينة الإمام البخاري فكتبت عن زيارتي تلك المدينة شيئاً ألحقته بكتاب: «في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر»، حيث صار عنوان الكتاب مطابقاً لمضمونه، وقد طبع ذلك الكتاب ولاقى قبولاً حسناً من القراء الكرام، ولله الحمد. كما ألفت كتاباً عن ذلك الجزء من الرحلة أسميته (يوميات آسيا الوسطى).

وبعد تلك الزيارة تفكك الإتحاد السوفييتي وانفرط عقد جمهورياته، بل هجره الشيوعيون هجراً غيرَ جميل.

وتيسرت لي زيارة ثالثة عام ١٤١٢هـ إلى هذه البلاد المسلمة العريقة في الإسلام التي شهدت حرباً ضروساً والحادية عبوساً بهدف انتزاع الإسلام من قلوب أهلها فشملت هذه الزيارة جمهوريات أوزبكستان وقرغيزيا وتركمانيا وكتبت عنها هذا الكتاب وعنوانه: (العودة إلى «ما وراء النهر»).

وكان رفيقا الرحلة هذه المرة الأستاذ محمد محمود حافظ الوكيل المساعد في رابطة العالم الإسلامي للثقافة والإعلام، والأستاذ رحمة الله بن عناية الله مدير إدارة الدراسات والبحوث في الرابطة.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي



بلاد ما وراء النهر

عند أسلافنا العرب:

(بلاد ما وراء النهر) غنية عن التعريف عند أسلافنا العرب وعند الملمين بكتب الثقافة العربية القديمة، ومع ذلك أوردت نصين عنها من كتبنا القديمة أحدهما مضت على تأليفه ألف سنة أو نحوها والثاني كتب منذ ثمانمائة سنة. وأردت بذلك إطلاع ناشئينا على مكانة هذه البلاد عند أسلافهم الأقدمين الذين كانوا يرحلون في طلب العلم إليها على بعدها، ومشقة السفر إليها في الأزمان القديمة.

قال ابن حوقل في كتابه: «صورة الأرض»: . .

و(ما وراء النهر) إقليم من أخصب أقاليم الأرض منزلة وأنزهها وأكثرها خيراً وأهله يرجعون إلى رغبة في الخير واستجابة لمن دعاهم إليه مع قِبْلة غاية عالية وسلامة ناجية وسماحة بما ملكت أيديهم مع شدة شوكة ومنعة وبأس ونجدة وعِدّة وعُدّة وآلة وكراع وبسالة وسلاح وعلم وصلاح، فأما الخصب بها فليس من إقليم ذُكر في هذا الكتاب إلا يقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النهر مرة واحدة ثم إن أصيبوا ببرد أو بحرّ أو آفة تأتي على زرعهم وغلاّتهم ففي فضل ما يسلم في عروض بلادهم ما يقوم بأودهم حتى يستغنوا به عن شيء يُنقل إليهم من غير بلدهم، وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن أو قرى تُسقى أو مراعٍ لسوائمهم، وليس شيء لا بد للناس منه إلا وعندهم منه ما يقوم بأوَدهم ويفضل عنهم لغيرهم، فأما أطعمتهم في السعة والكثرة فعلى ما ذكرناه، وأما مياههم فإنها أعذب المياه وأبردها وأخفّها قد عمّت جبالها وضواحيها ومدنها هذا إلى التمكن من الجمد في جميع أقطارها والثلوج من جميع نواحيها، وأما الدواب ففيها من النتاج ما فيه كفايتهم على كثرة إرتباطهم لها وكذلك البغال والإبل والحمير والأغنام ولهم من نتاج الغنم الكثير والسائمة المفرطة، وكذلك الملبوس أيضاً فإن لهم من الصوف والقزّ وطرائف الكرابيس والبزّ ما يفضل عنهم.

وببلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم وينيف على

تجارتهم وبها معادن الذهب والفضة والزيبق الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن ما بسائر بلدان الإسلام. ولهم الكاغد الذي لا نظير له في الجودة والكثرة، وأما فواكههم فإنك إذا تبطّنتَ السُغد وإشروسنه وفرغانة والشاش رأيتَ من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق. حتى ترعاها لكثرتها دوابهم.

؛وأما سماحتهم فإن الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه رجل دخل في داره لا يجد المُضيف من طارق يطرقه كراهية بل يستفرغ جهده في إقامة أوده من غير معرفة تقدمت ولا توقع لمكافأة بل اعتقاداً للسماحة في أموالهم وهمّ كل امرىء على قدره فيما ملكت يده التنوّق والقيام على نفسه ومن يطرقه، وبحسبك أنك لا ترى صاحب ضيعة يستقلّ بمؤنته إلا كانت همّته اقتناء قصر فسيح ومنزل للأضياف رحيب فتراه عامة نهاره متنوّقاً في إعداد ما يصلح لمن يطرقه وهو متشوّق إلى وارد عليه ليكرمه فإذا حلّ بأهل ناحية طارق تنافسوا فيه وتنازعوه.

وليس من أحد يتصرف بما وراء النهر في مكان به ناس من ضيعة أو غيرها بليل أو نهار عن مثل هذه الحال، وهم فيما بينهم يتبارون في مثل هذا الشأن حتى يجحف في أموالهم وأملاكهم كما يتبارى سائر الناس في الجمع ويتباهون بالملك والمكاثرة بأموالهم.

ولقد شهدتُ آثار منزل بالسُغْد معروف بأن قد ضُربت الأوتاد على باب داره وصحّ عندي أن بابها مَكث لم يُغْلق زيادة على مائة سنة لا يمتنع من نزولها طارق وربما نزل به ليلاً عن بغتة من غير استعداد المائة والمائتان والأكثر من الناس بدوابّهم وحشمهم فيجدون من علف دوابهم وطعامهم ودثارهم ما يُغنيهم عن استعمال رحالهم من غير أن يتكلّف صاحب المنزل أمراً بذلك أو يتجشّم عَناء لدوام ذلك منهم ومنه، قد أقيم على كل عمل من يستقلّ به وأعد ما يحتاج إليه على دوام الأوقات مما لا يحتاج معه إلى تجديد أمر عند طروقهم إياه وصاحب المنزل من البشاشة

والإقبال والمساواة لأضيافه بحيث يعلم كل من شهد سروره بذلك وإيثاره للسماحة فيما أتاه وتوخّاه.

وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سُبُل الجهاد ووجوه الخير وعقد القناطر إلا القليل من ذوي البطالة، وليس من بلد ولا منهل مطروق ولا قرية آهلة إلا وفيها من الرباطات ما يفضل عمّن ينزل به ممن يطرقه، وبلغني أن بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط وفي كثير منها إذا نزل النازل أقيم علف دابّته وطعامه إن احتاج إلى ذلك، وقلما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلّة أو مجمع ناس إلى حائط بسمرقند يخلو من ماء مُسَبَّل بجَمَد.

وذكر لي من يرجع إلى خبرة أن بسمرقند في المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفي مكان يسقى فيها ماء الجمد مُسَبَّل عليه الوقوف من بين سقاية مبنية وحباب نحاس منصوبة وقلال خزف مثبتة في الحيطان مبنية.

وهم على بُعد دارهم أول سابق إلى الحج بكثرة الأموال وسعة الإحتفال وجودة الجمال ولا يدخل البادية مثلهم كثرة وهم مع ذلك أحسن الناس طاعة لكبرائهم، وألطفهم خدمة لعظمائهم، وفيما بينهم حتى دعا ذلك الخلفاء من بني العباس إلى أن استدعى من أهل ما وراء النهر رجالاً وكان الأتراك رجالهم لفضلهم على سائر الجيوش ودهاقينهم أمراء فيهم، وجيوشهم من بين سائر الأجناس في البأس والجُرأة والشجاعة والإقدام متقدمون على من سواهم ودهاقين ما وراء النهر قوّادهم وحاشيتهم وخواص خدمهم للطفهم في الخدمة، وحسن الطاعة والهيئة في الملبس والزيّ السلطاني حتى لصاروا حاشية الخلافة قديماً ورجالها سالفاً ورؤساء عساكرهم كالفراغنة والأتراك الذين كانوا شحنة دار الخلافة وغلبوا عليها.

والملوك على هذا الإقليم وعلى سائر خراسان آل سامان[1] وهم من أولاد بهرام جوبين الذي سار ذكره في العجم بالبأس والنجدة وليس بأرض المشرق مَلك أمنع جانباً ولا أوفر عِدّة، ولا أكمل عُدّة ولا أنظم أسباباً ولا أكثر أعطية ولا أدرّ أطماعاً ولا أدوم عشرينيات منهم مع قلة جبايتهم ونزور أخرجتهم وتفه الأموال في خزائنهم، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبي صالح منصور بن نوح في الوقت الذي كنت بنواحيهم محلولاً ومعقوداً تُحمل في السنة دفعتين في كل ستة أشهر دفعة عشرون ألف ألف درهم وإذا اقتُضِيا خراجان كانا أربعين ألف ألف درهم لأمور أوجبت قبضَ ذلك كذلك.

وليس في الإسلام جيش إلا وهم شُذّاذ القبائل ومُلَفّقة النواحي والبلدان والأطراف إذا تفرقوا بهزيمة أو تمزقوا بحادثة لم يلتق منهم جمع بعد ذلك إلا بالحيلة الصعبة والمبالغة في الرغبة والرهبة غير جيش هؤلاء الملوك فإن جيوشهم الأتراك المملوكون رقًا بمالهم وشروى مناطقهم، ومن الأحرار والدهاقين من يُعرف داره ومكانه وآله وجيرانه فإن قُتل منهم قوم أو ماتوا ففي وفور عددهم ما يفاد من بين ظهرانيهم مثله وإن تفرّقوا في حادثة تراجعوا كلهم إلى مكان واحد لا يقدح فيهم ما يقدح في سائر عساكر الإسلام، ولا سبيل لهم إلى التفرّق في العساكر والتنقّل في الممالك كما يكون عليه رسم صعاليك العساكر وشحنة البلدان وذلك أنهم غُذُوا من حُسن السياسة بمحض الرياسة من التفقّد لأحوالهم عند الغيبة عنهم والنظر للبعيد كالقريب منهم إن أحسن لم يسقط إحسانه وإن أبلى لم تؤخر مكافأته وإن اجترم طولب لذنبه وجرمه وإن أخطأ أخذ بحوبه وإثمه وإن كان نسيباً أو قريباً وجب عليه قصاص أو قَوَد أحيل على حكم الله تعالى أو بعيداً لزمه حكم أو طلب لم يُعْدَل به عن حدود الله تعالى.

وقال ياقوت الحموي في كتابه الضخم: (معجم البلدان):

---

(١) كان هذا في وقت مؤلف الكتاب ابن حوقل وقد زال ملكهم.

ما وراء النهر ؛ يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة وفي الإسلام سموه ما وراء النهر، وما كان في غربيّه فهو خراسان وولاية خوارزم، وخوارزم ليست من خراسان إنما هي إقليم برأسه.

وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيراً وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير والسخاء واستجابة لمن دعاهم إليه مع قلة غائلة وسماحة بما ملكت أيديهم مع شدة شوكة ومنعة وبأس وعدة وآلة وكُراع وسلاح، فأما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ويتعاظم عن أن يكون في جميع بلاد الإسلام وغيرها مثله، وليس في الدنيا إقليم أو ناحية إلا ويقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النهر، ثم إن أصيبوا في حر أو برد أو آفة تأتي على زروعهم ففي فضل ما يسلم في عرض بلادهم ما يقوم بأودهم حتى يستغنوا عن نقل شيء إليهم من بلاد أُخَر.

وليس بما وراء النهر موضع يخلو من العمارة من مدينة أو قرى أو مياه أو زروع أو مراع لسوائمهم، وليس شيء لا بد للناس منه إلا وعندهم منه ما يقوم بأودهم ويفضل عنهم لغيرهم، وأما مياههم فإنها أعذب المياه وأخفها فقد عمّت المياه العذبة جبالها ونواحيها ومدنها، وأما الدواب ففيها من المباح ما فيه كفاية على كثرة إرتباطهم لها، وكذلك الحمير والبغال والإبل، وأما لحومهم فإن بها من الغنم ما يجلب من نواحي التركمان الغربية وغيرها ما يفضل عنهم.

وأما الملبوس ففيها من الثياب القطن ما يفضل عنهم فينقل إلى الآفاق، ولهم القَزّ والصوف والوبر الكثير والإبريسم الخُجَندي ولا يُفضّل عليه إبريسم البتة، وفي بلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم في الأسلحة والأدوات، وبها معدن الذهب والفضة والزيبق الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن في سائر البلدان إلا بَنْجَهير في الفضة، وأما الزيبق والذهب والنحاس وسائر ما يكون في المعادن فأغزرها ما يرتفع من ما وراء النهر.

وأما فواكههم فإنك إذا تبطنت الصُّغد وأشروسنة وفرغانة والشاش

رأيت من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق، وأما الرقيق فإنه يقع إليهم من الأتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم وينقل إلى الآفاق وهو خير رقيق بالمشرق كله.

وبها من المسك الذي يجلب إليهم من التُّبَّت وخرخيز ما ينقل إلى سائر الأمصار الإسلامية منها، ويرتفع من الصغانيان وإلى واشجرد من الزعفران ما ينقل إلى سائر البلدان، وكذلك الأوبار من السَّمُّور والسُّنْجاب والثعالب وغيرها ما يُحمل إلى الآفاق مع طرائف من الحديد والحتر والبزاة وغير ذلك مما يحتاج إليه الملوك.

وأما سماحتهم فإن الناس في أكثر ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه رجل دخل دار صديقه لا يجد المضيف من طارق في نفسه كراهة بل يستفرغ مجهوده في غاية من إقامة أوده من غير معرفة تقدمت ولا توقُّع مكافأة بل اعتقاداً للجود والسماحة في أموالهم وهمة كل امرىء منهم على قدره فيما ملكت يده والقيام على نفسه ومن يطرقه.

قال الإصطخري: ولقد شهدت منزلاً بالصغْد قد ضُربت الأوتاد على بابه فبلغني أن ذلك الباب لم يُغلق منذ زيادة على مائة سنة لا يمنع من نزوله طارق، وربما ينزل بالليل بيتاً من غير استعداد المائة والمائتان والأكثر بدوابهم فيجدون من عَلَف دوابهم وطعامهم ودثارهم ما يعمُّهم من غير أن يتكلف صاحب المنزل بشيء من ذلك لدوام ذلك منهم، والغالب على أهل ما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووُجوه الخيرات إلا القليل منهم، وليس من بلد ولا من منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلا وبها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طَرَقه.

قال: وبلغني أن بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط في كثير منها إذا نزل الناس أقيم لهم علف دوابهم وطعام أنفسهم إلى أن يرحلوا، وأما بأسهم وشوكتهم فليس في الإسلام ناحية أكبر حظاً في الجهاد منهم، وذلك أن جميع حدود ما وراء النهر دار حرب.

ومستفيض أنه ليس للإسلام دار حرب هم أشد شوكة من الترك يمنعونهم من دار الإسلام، وجميع ما وراء النهر ثغرٌ يبلغهم نفير العدو، ولقد أخبرني من كان مع نصر بن أحمد في غزاة أشروسنة أنهم كانوا يحزرون ثلثمائة ألف رجل انقطعوا عن عسكره فضلُّوا أياماً قبل أن يبلغهم نفير العدو ويتهيأ لهم الرجوع، وما كان فيهم من غير أهل ما وراء النهر كبير أحد يعرفون بأعيانهم.

وبلغني أن المعتصم كتب إلى عبد الله بن طاهر كتاباً يتهدده فيه فأنفذ الكتاب إلى نوح بن أسد فكتب إليه أن بما وراء النهر ثلاثمائة ألف قرية ليس من قرية إلا ويخرج منها كذا وكذا فارس وراجل لا يتبين على أهلها فقدهم.

وبلغني أن بالشاش وفرغانة من الإستعداد ما لا يُوصف مثله عن ثغر من الثغور حتى إن الرجل الواحد من الرعية عنده ما بين مائة ومائتي دابة وليس بسلطان، قال: وأما نزهة ما وراء النهر فليس في الدنيا بأسرها أحسن من بخارى، ولم تزل ما وراء النهر على هذه الصفة وأكثر إلى أن ملكَها خوارزم شاه محمد بن تَكَش بن ألب أرسلان بن أتْسُز في حدود سنة ٦٠٠ فطرد عنها الخطا وقتل ملوك ما وراء النهر المعروفين بالخانية، وكان في كل قطر ملك يحفظ جانبه، فلما استولى على جميع النواحي ولم يبق لها ملك غيره عجز عنها وعن ضبطها فسلط عليها عساكره فنهبوها وأجْلوا الناس عنها فبقيت تلك الديار التي وصفت كأنها الجنان بصفاتها خاوية على عروشها وبساتينها ومياهها متدفقة خالية لا أنيس بها، ثم أعقب ذلك وُرُود التتر، لعنهم الله، في سنة ٦١٧ فخرّبوا الباقي وبقيت مثل ما قال بعضهم:

كأن لم يكن بين الحُجُون إلى الصّفا
أنيسٌ، ولم يسمرْ بمكة سامرُ

السفر إلى (ما وراء النهر)



يوم الإثنين ٢٤ شوال ١٤١٢هـ/ ٢٧ أبريل ١٩٩٢م

من جدة إلى طشقند:

لم يكن أحد قبل ثلاث سنوات يتخيل حتى في الأحلام أنه سيمكنه السفر من جدة إلى طشقند على طائرة من طائرات بلد شيوعي هو الإتحاد السوفييتي، ولم يكن أحد يتخيل أن تلك الطائرة الروسية الشيوعية ـ إن صح أن للطائرات مذاهب ـ سوف تسمى بخطوط أزبكستان المستقلة. فكنا إذا أردنا السفر إلى طشقند لا بد لنا من زيارة موسكو، وكان السفر المباشر من جدة إلى موسكو مستحيلاً فكان لا بد من المرور بأوروبا أو أحد البلدان العربية التي تنزل فيها الطائرات الروسية. أما اليوم فإن حكومة جمهورية أوزبكستان الحديثة العهد بالإستقلال عن الإتحاد السوفييتي قد افتتحت خطاً جوياً يربط بين جدة وطشقند ربطاً مباشراً لا تتوقف فيه الطائرة إلا وقفة واحدة في مطار الشارقة على الخليج العربي.

وقد بدأت رحلات هذا الخط قبل أسبوعين فقط، وهذه الرحلة التي نقوم معها الآن هي الثالثة من رحلات هذا الخط، لأنها رحلة واحدة في الأسبوع.

وجدت عند الطائرة الأستاذ (لطف الله إسماعيل خوجة) قنصل الإتحاد السوفييتي سابقاً في جدة وقد استمر عمله بعد انفراط عقد الإتحاد السوفييتي وتسميته برابطة الدول المستقلة. فصار عمله إلى جانب ما ذكر

(ممثل جمهورية أوزبكستان) في المملكة، وقد حضر إلى المطار مشكوراً ليودعني لأنه كان قد أخبر حكومة أوزبكستان بموعد سفري.

أما نحن فقد أخبرنا صديقنا الشيخ (محمد صادق محمد يوسف) رئيس الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر التي كانت تسمى قبل الإستقلال: «الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان». لأنه هو الذي سيكون عملنا معه كما اعتدنا على ذلك.

ومن الغريب أن اسم خطوط أوزبكستان الجوية هو (أوزبك هوا يلري ملى) أي (طرق أوزبك الجوية الوطنية) ومع ذلك لم يكتب ذلك على الطائرات ولست أرى حرفاً يدل على أنها تنتمي إلى (أوزبكستان)، بل إنها هي طائرة (ايروفلوت) التي رسموا عليها علم الإتحاد السوفييتي الأحمر ذا الشعار الشيوعي المشهور الذي عليه المنجل والمطرقة.

لم يكن عدد الركاب كثيراً بل كان في حدود ٣٥ راكباً، وليس هذا بمستغرب لكونه جديداً، وإنما المستغرب اللافت للنظر أنهم كلهم من الإخوة الذين كنا نسميهم في بلادنا بالبخاريين الذين هم من أهل تركستان بشطريها الشرقي الذي تسيطر عليه الصين، والغربي الذي كان يسيطر عليه الإتحاد السوفييتي إلى ما قبل عهد قريب. ولم أر بينهم أحداً من العرب لا من السائحين ولا من التجار رغم كون أوائلهم هم الذين فتحوا تلك البلاد، وفتح الله بهم قلوب أهلها للإسلام فصاروا أهل الإسلام بعد أن كانوا حرباً عليه بل صارت بلادهم بلاد العلم والحضارة الإسلامية.

وأصلها حضارة عربية إسلامية منذ أن شرف الله العرب من أهل هذه البلاد المقدسة في الحرمين الشريفين بحمل رسالة الإسلام إلى الخافقين.

إن الأولى بالعرب أن يبادروا إلى زيارة مسارح الثقافة الإسلامية ومرابع علمائها الأعلام في تلك المنطقة الآسيوية المهمة ويشهدوا عودة إخوتهم المسلمين إلى دينهم، ورجوعهم إلى منابع ثقافتهم التاريخية الإسلامية الزاهرة. وليبذلوا ما يستطيعون عمله فيما يحقق لهم ذلك.

الطائرة من طراز ليوشن ٦٢ الروسي الصنع وهي كبيرة مقسمة إلى ثلاثة أقسام الأمامي منها يكاد يعتبر الدرجة الأولى مع أنه ليست فيها درجة أولى، بل كلها درجة سياحية.

عندما دخلنا الطائرة كانت الموسيقى تعزف أزبكية بلسان تركي واضح هو المسمى بالأوزبكي وهو فرع من التركية القديمة التي تفرعت منها التركية العثمانية التي يتكلم بها الآن الأتراك الذين يعيشون في الجمهورية التركية.

لذلك لا يصح القول بأنها متفرعة من اللغة التركية هذه.

وهي أكثر قرباً من اللغة التركية العثمانية المحكية الآن في تركيا إلى اللغة العربية، وأكثر في المفردات العربية.

وحتى الموسيقى يشعر من يسمعها وإن لم يكن يعرف لغتها أنها تركية لكنه يعرف بوضوح أنها ليست الموسيقى التركية التي يسمعها من الجمهورية التركية في الوقت الحاضر.

أقلعت الطائرة في الساحة الخامسة والثلث أي بتأخير ثلث ساعة عن الموعد المحدد في الأصل لقيامها وهو الخامسة بعد العصر.

فأعلنوا باللغة الأوزبكية وبعدها بالروسية مع أنه ليس في ركاب الطائرة من يعرفها غير الملاحين وبعدها بالإنكليزية أن السفر من جدة إلى الشارقة سيستغرق ساعتين وخمس دقائق.

والمضيفون مختلطون من الأوزبك والروس، والروس أكثر. وربما كانوا من الروس الذين يعيشون في أوزبكستان، واعتبروا من رعاياها بعد الإستقلال.

وأما الضيافة فإنها كانت أولاً شراباً عماده الماء المعدني المعتاد عندهم وهو الذي يكون مشبعاً بالغاز. ثم جاؤوا بشطائر جيدة بعضها فيه الجبن وفي الآخر لحم السمك ومع ذلك الكعك اللين المسمى بالكيك ثم الشاي.

في مطار الشارقة:

هبطت الطائرة في مطار الشارقة بعد أن أمضت ساعتين وخمس دقائق من الطيران وذلك في الثامنة والنصف إلا خمس دقائق بتوقيت الشارقة الذي يتقدم ساعة واحدة عن توقيت المملكة. وقد ألقموها دهليزاً متحركاً أفضى إلى أبنية جميلة رشيقة وتتفرع من المطار بوابات عديدة وكأنه مطار دولة كبيرة، بل هو أجمل من كثير من مطارات العواصم. وهو أيضاً كبير بالنسبة إلى مطار عاصمة من العواصم المتوسطة.

وجدنا في إحدى قاعات العابرين مصلى نظيفاً مفروشاً بالسجاد محاطاً بسياج قصير فأدينا فيه صلاتي المغرب والعشاء جمعاً.

ثم تجولت في مكان المطار ومتاجره، ولا ينقص من بهجة ذلك إلا الإحساس بأن أكثر ما فيه هو اصطناعي فمثلاً هناك عدد من العاملات في المطار كلهن من الأجنبيات ما بين هنديات وآسيويات جنوبيات، أو لنقل جنوب شرق آسيا يظهر ذلك واضحاً من ضيق في عيونهن وفطس في أنوفهن، وإن كن يحاولن أن يرفعن من ذلك الفطس، أو إن شئت قلت: يرقعن ذلك الفطس برفع أنوفهن رفعاً مصطنعاً مرجعه إلى شعورهن بأهمية وجودهن، وأننا نحن العرب الذين علمنا الناس صناعة الفخر، بعد أن أتقناها لأنفسنا نحتاج إليهن وأمثالهن.

ولم أر بين العاملين فيه أحداً من العرب إلا جندياً كان يحرس البوابة، وحتى الركاب كان أكثرهم من الأجانب، ورأيت من العرب عرباً من الإمارات يريدون السفر إلى الدوحة.

وقد طال مكثنا في المطار، ورأينا المسؤولين غيروا من فريق الخدمة في الطائرة فأحضروا فريقاً جديداً.

مغادرة مطار الشارقة:

عندما رأينا الفريق الجديد للخدمة في الطائرة ما بين الشارقة

وطشقند وجدناهم كالفريق السابق أكثرهم من الروس وفيهم قلة من الأوزبكيين ومنهم مضيف تولى إذاعة البيانات من مكبر الطائرة باللغة الأوزبكية التي افتتح الكلام بها بقوله: السلام عليكم. واختتمه بقوله: رَحْمَتْ. وهي تعني (شكراً) بهذه اللغة الأوزبكية، وكنت سمعت أهل تركستان الشرقية التي تحتلها الصين يستعملون هذه الكلمة في لغتهم التي يسمونها (الإيغورية) نسبة إلى (الإيغور) الذين هم فريق من الترك سكان تلك المنطقة.

وقد أعلن مكبر الطائرة ما أعلنه بلغات ثلاث هي الأوزبكية، والروسية والإنكليزية أن الطيران إلى طشقند سيستغرق ثلاث ساعات. ولم أصدق ذلك، وإنما ظننته وهما في فهمنا لما قالوه. وانتظرت وصول الطائرة لأعرف المدة بالضبط.

كما أن المفاجأة الأخرى أنهم أعلنوا أن المسافة من الشارقة إلى طشقند هي ٢٥٧٣ كيلومتراً، وكنت أظنها أكثر من ذلك.

قامت الطائرة في العاشرة والنصف بتوقيت الشارقة، بعد أن لبثت ساعتين وخمس دقائق فيها، ولم يصعد إلى الطائرة من الشارقة إلا ستة ركاب. ولذلك استمرت المقاعد التي أمامنا خالية كما كانت، وكانوا قد أناموا ظهورها لئلا يركب عليها أحد فيضايقنا إكراماً لنا.

وجاؤوا بالعشاء جيداً منوعاً وقال أحد الإخوة الركاب: إنهم أخذوه من جدة.

وعلى ذكر الركاب أقول إنهم - كما أسلفت - من التركستانيين الذين نسميهم في بلادنا بالبخاريين، وكلهم يعرف العربية، لأنهم من الذين عاشوا مهاجرين في بلادنا، وهم الذين يستطيعون أن يدفعوا قيمة التذاكر بالعملة القابلة للتحويل ومنها الريال السعودي.

أما إخواننا من مسلمي تركستان المقيمين هناك فإنهم لا يستطيعون ذلك بسبب صعوبة حصولهم على العملة الصعبة.

ولم يكن في الطيران متعة، لكوننا لا نشاهد شيئاً، ولم نعرف أي بلد من التي كنا نمر بها، ولم يعلنوا عن ذلك إلا أننا أحسسنا عندما حاذينا جبال الهملايا أننا فوق تلك الجبال وذلك من أجل اضطراب حدث للطائرة، ولكونهم زادوا تدفئة الطائرة حتى صار ينبعث من جوانبها هواء حار.

الشارقة أقرب من موسكو:

بعد مضي ساعتين ونصف من بدء الطيران من الشارقة أضاؤوا إشارة ربط الحزام إستعداداً للنزول وأعلنوا أن درجة الحرارة في طشقند هي الآن ١٨ مئوية.

واتضحت من ذلك حقيقة قد تكون بديهية لأهل الإختصاص وهي أن الشارقة أقرب إلى أهل طشقند من موسكو بكثير، فقد استغرق الطيران إلى طشقند من الشارقة ثلاث ساعات فقط على حين أن مدته من موسكو إلى طشقند هي أربع ساعات إلا ربعاً.

وهذا يوضح أن الرياض أيضاً أقرب إلى طشقند من موسكو إذا كان الطيران إليها مباشراً.

ومن هنا يتصور المرء المشاعر العميقة التي كانت تسيطر على الإخوة المسلمين في هذه البلاد الآسيوية المسلمة عندما يرون أنهم قد ربطوا بمدينة تبعد عنهم في المسافة هذا البعد السحيق، ولا تربطهم بأهلها أية رابطة من الروابط التاريخية أو الدينية أو اللغوية، بل إن العكس هو الصحيح، فقد أهانهم الروس وأسقطوا دولتهم، ولوثوا تاريخهم.

وبالجملة فإنه ليس بينهم وبينهم أية مشاركة في الآلام والآمال التي هي أساس المشاركات الروحية والعاطفية.

في مطار طشقند:

مرت الطائرة فوق جزء من مدينة طشقند وكنا رأينا أنوار المدينة على

البعد فبدت من خلال الرؤية في الطائرة أقل سطوعاً من أنوار إمارة الشارقة الصغيرة، القليلة السكان، وحتى نوع الأنوار هو أقل سطوعاً من أنوار الشارقة. وأما أنوار الشوارع فإنها أقل من ذلك بكثير، لأن الأنوار الصفراء التي تكون في الشوارع الرئيسية من المدن هي كثيرة ومستقيمة في الشارقة وهي في طشقند قليلة ومتعرجة.

ولا شك في أن مرجع ذلك إلى كون الشارقة حديثة الإنشاء وقد أنشئت في صحراء خالية، على حين أن طشقند مدينة عريقة كانت مأهولة قبل اختراع إنارة الشوارع بأنوار الكهرباء. وحتى المطار كان كما عهدناه منذ سنتين لم يتغير منه شيء إلا إلى الأردأ، بسبب الظروف الإقتصادية التي صاحبت التحولات السياسية التي وقعت للمنطقة. فقد أوقفوا الطائرة في ساحة المطار، وليس فيه دهاليز متحركة كالتي تكون في المطارات الحديثة ومنها مطار الشارقة.

وحضرت عند المطار حافلة قديمة أقلتنا إلى مباني الوصول التي رأيتها قديمة غير معتنى بها، وهذه أول مرة أراها فيها على هذه الصفة، رغم نزولي في مطار طشقند وصعودي منه عشرات المرات لأنه كان مركز الإنطلاق والوصول من مدن المنطقة وجمهورياتها خلال زيارتيّ الإثنتين لها.

ولكن كنت أجد في كل مرة مستقبلين عند باب الطائرة كانوا يذهبون بي وبمرافقي إلى قاعة كبار الزوار التي تسمى (صالون الشرف) إذا كانت الرحلة من خارج أوزبكستان أو يذهبون بي رأساً إلى الفندق إذا كان الوصول من الداخل، ويكون هناك من يعتني بأمتعتنا وجوازاتنا. أما هذه المرة فلم يكن عند سلم الطائرة من يستقبلنا فذهبنا مع بقية المسافرين، ولم يفهم الموظف في المطار معنى الجواز (الدبلوماسي) وإن كانوا جاملونا فطلب أن نعلن ما نحمله من نقود.

وفي هذه الأثناء حضر الشيخ (زاهد جان) نائب رئيس الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر ورئيس الإدارة هو صديقنا المفتي الشيخ محمد

صادق بن محمد يوسف ومعه شخصان آخران وسيارتان فكفانا مؤنة التفاهم مع موظف الجمرك، وتركوا كل أمتعتنا تمر.

لم يكن في المطار مسافرون أو قادمون غيرنا وربما كان ذلك بسبب الوقت الذي هو قبل الفجر غير أن المطارات العالمية ومنها مطار جدة لا تنقطع عنها حركة الطائرات في ليل أو نهار.

وإنما رأينا طائرة تركية جاثمة في المطار هي إحدى الطائرتين اللتين قدم عليهما رئيس وزراء تركيا سليمان دميريل وصحبه الذين بلغ عددهم مائتين وخمسين شخصاً من الموظفين الرسميين ومن رجال المال والأعمال التجارية كلهم جاء من أجل توثيق العلاقات الثقافية والتجارية مع هذه البلاد الأوزبكية وجيرانها من الآسيويين الأوسطيين.

ويتخوف الإخوة المسلمون الملتزمون في هذه البلاد من التقارب مع حكومة تركيا التي هي علمانية تنحو المنحى الغربي ويرون أن أول مساوىء التقارب معها وتقوية العلاقات الثقافية بها هو إحلال الحرف اللاتيني محل الحرف الروسي في كتابة الأبجدية الأوزبكية بديلاً من الحرف العربي الذي يطمحون إلى عودته إلى كتاباتهم لأنه رمز ثقافتهم الإسلامية العريقة، وهو مستودع تاريخهم، بل مستودع أمجادهم على مر القرون.

وندع الكلام في هذا الموضوع الذي ربما ناسبه مقام غير هذا المقام.

جمهورية أوزبكستان

يحسن بنا وقد وصلنا إلى طشقند التي هي عاصمة جمهورية أوزبكستان كبرى جمهوريات (ما وراء النهر) من حيث عدد السكان وربما من حيث الأهمية السياسية والثقافية، وإن لم تكن كبراها من حيث المساحة، ولا من حيث الموارد الإقتصادية الطبيعية، أن نتحدث عنها جرياً على عادة لنا قديمة في الحديث حديثاً مجملاً أو مفصلاً بإختصار عن البلاد التي نزورها بغية تكوين فكرة مجملة في ذهن القارىء الكريم عنها.

تقع أوزبكستان في آسيا الوسطى ما بين نهري سيحون وجيحون وتضم معظم المناطق الهامة التي تقع شرق نهر جيحون بعد خروجه من طخارستان في أفغانستان، ويشكل نهر جيحون في مجراه الأعلى قرب منبعه الحدود بين أفغانستان وكل من تاجيكستان وأوزبكستان. وأراضيها عبارة عن منطقة جبلية في الجنوب الشرقي حيث الإمتداد الغربي لجبال تيان شان ثم تميل تدريجياً نحو الغرب حتى صحراء قره قوم.

تبلغ مساحة أوزبكستان ٤٤٧٤٠٠ كم^{٢} وتتكون من ١٢٠ مدينة و٨٧ مستوطنة تتوزع في اثنتي عشرة ولاية هي:

١ ـ ولاية أنديجان	عاصمتها أنديجان	سكانها ١,٧٢٧,٠٠٠
٢ ـ ولاية بخارى	عاصمتها بخارى	سكانها ١,٦٢٩,٠٠٠
٣ ـ ولاية جيزاق	عاصمتها جيزاق	سكانها ٧٣٨,٠٠٠
٤ ـ ولاية قاشقاداريا		سكانها ١,٥٩٩,٠٠٠

٥ ـ ولاية نمنقان	عاصمتها نمنقان	سكانها ١,٤٧٧,٠٠٠
٦ ـ ولاية سمرقند	عاصمتها سمرقند	سكانها ٢,٢٩١,٠٠٠
٧ ـ ولاية سرخون داريا		سكانها ١,٢٥٤,٠٠٠
٨ ـ ولاية سرداريا		سكانها ٥٦٩,٠٠٠
٩ ـ ولاية طاشقند	عاصمتها طاشقند	سكانها ٢,١٥٨,٠٠٠
١٠ ـ ولاية فرغانة	عاصمتها فرغانة	سكانها ٢,١٥٤,٠٠٠
١١ ـ ولاية خوارزم	عاصمتها أوركنج	سكانها ١,٠١٥,٠٠٠
١٢ ـ ولاية نوائي	عاصمتها كواي	سكانها ١,١٢٠,٠٠٠

كما تضم أوزبكستان إدارياً جمهورية قره قلباقستان وعاصمتها نوقوس ومساحتها ١٦٤٩٠٠كم^{٢} وعدد سكانها ١٢١٤٠٠٠ نسمة بموجب إحصاء عام ١٩٨٩.

وقدِّر سكان أوزبكستان بحوالى ٢١,٥ مليون نسمة في عام ١٩٩٢ وأما الإحصائية الرسمية التي أُجريت في عام ١٩٨٩ فقد أظهرت أن عدد سكانها ١٩٨١٠٠٧٧ نسمة منهم ٦٨,٧٪ من الأوزبك و١٠,٨٪ من الروس وأما نسبة المسلمين فتقدر بحوالى ٨٥٪ من إجمالي السكان.

وإذا كان عدد الأوزبك ١٤١٤٢٤٧٥ نسمة في جمهوريتهم أوزبكستان فإن عددهم الإجمالي في بلاد الإتحاد السوفييتي السابق بلغ ١٦٦٨٦٢٤٠ في إحصاء عام ١٩٨٩ ويتضح أن عدد الأوزبك الذين يعيشون خارج جمهوريتهم في رابطة الدول المستقلة هو ٢,٥٤٣,٧٦٥ نسمة ويتمركزون في الجمهوريات التالية:

قازاقستان	١,٨٪	من سكانها أوزبك
قيرغزستان	١٢,١٪	من سكانها أوزبك
تاجيكستان	٢٢,٩٪	من سكانها أوزبك
تركمانستان	٨,٥٪	من سكانها أوزبك

تأسست جمهورية أوزبكستان في ٢٧ اكتوبر ١٩٢٤ على أثر قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي بتاريخ ١٨/ ١٠/ ١٩٢٤ القاضي بإلغاء جمهورية تركستان السوفييتية وإنشاء جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية ضمن الإتحاد الفيدرالي للجمهوريات السوفييتية الإشتراكية. ثم أعلنت مؤخراً إستقلالها في ٣١ أغسطس ١٩٩١ وأصبحت جمهورية أوزبكستان عضواً في منظمة الأمم المتحدة.

يقوم إقتصاد أوزبكستان على زراعة القطن إذ تنتج منه ٦٨٪ من إجمالي إنتاج القطن في الإتحاد السوفييتي سابقاً وقد بلغ حجم إنتاجها من القطن ٤٧٠ ألف طن في العام الماضي. كما أنها تتمتع بالمركز الأول في إنتاج دودة القز التي تنتج الحرير الطبيعي. ويزرع القمح والأرز والذرة ولكنها لا تفي بحاجة البلاد، بينما تصدر الخضروات والفواكه وخاصة العنب والطماطم. وكذلك يشتغل جزء من السكان بالرعي حيث الأبقار والأغنام كثيرة.

أما المعادن فيستخرج منها الفحم والغاز الطبيعي والنحاس والتونقستين واليورانيوم والذهب عالي الجودة وكان إنتاجه يمثل ربع الذهب السوفييتي. وقد تم اكتشاف النفط مؤخراً في منغ بولاق وعقد اتفاق مع الأمريكيين لاستخراجه وتسويقه.

ورغم الضجة الإعلامية السابقة عن الصناعات المتطورة في أوزبكستان، فإن الإنتاج الصناعي محدود حيث ينحصر في صناعة الكيماويات وتجميع وتركيب طائرات مدنية والتراكتورات والجرافات الزراعية وصناعة النسيج القطني والحريري وصناعة السجاد في مدينة خيوه.

الوضع الإقتصادي:

تعاني أوزبكستان انهياراً إقتصادياً بسبب اضطراب العلاقات بين جمهوريات رابطة الدول المستقلة بعد انهيار الإتحاد السوفييتي، إذ كان الحكم السوفييتي قد فرض نظاماً إقتصادياً يربط جمهوريات وأقاليم الإتحاد

السوفييتي ببعضها ويجعلها تعتمد على بعضها. فالإنتاج الصناعي قد تقلص بسبب تقلص إستيراد المواد الخام والأجزاء التكميلية ويذكر أن ثلث إنتاج أوزبكستان ونسبة ٧٠٪ من مجموع الأرصدة الأساسية تقدمها المؤسسات التابعة للإتحاد السوفييتي. وحالياً يتم تقنين إستهلاك السكر والدقيق والرز ومسحوق الغسيل والبنزين ويبلغ معدل ما يحصل عليه الفرد من الدقيق في الشهر ٤كجم في المدن و٧كجم في الأرياف.

وتستورد أوزبكستان نصف حاجتها من السلع الإستهلاكية الأساسية ومنها الدقيق والحبوب والسكر والرز والزيت الحيواني كما تعتمد أوزبكستان كلياً على إستيراد الوقود وموارد الطاقة من روسيا.

تبلغ نسبة صادرات أوزبكستان ١٨,٢٪ من إنتاجها ونسبة الإستيراد للأغراض الإستهلاكية ٢٣,٦٪ والواقع أن نسبة الصادرات في انخفاض في مقابل تزايد الإحتياج إلى الإستيراد وأدى انخفاض قيمة الروبل وعدم الثقة في إدخاره إلى تدهور الوضع الإقتصادي وانتعاش أسلوب المقايضة في العلاقات التجارية فمثلاً يبلغ سعر السيارة الجديدة من طراز لادا ما يعادل ٢٢ طناً من اللحم.

ويقدر الناتج الوطني في أوزبكستان بحوالى ٥٤,٧ بليون روبل والدخل الفردي بحوالى ٢٧٥٠ روبل عام ١٩٨٩. أما متوسط الراتب فهو ٣٠٠٠ روبل في الشهر وقيمة الدولار ١٥٠ روبل في السوق الحر و١٢٠ روبل في البنك الحكومي.

الوضع السياسي:

رغم انهيار الإتحاد السوفييتي وزوال النظام الشيوعي واستقلال أوزبكستان عن الحكم الروسي فإن الشعب الأوزبكي لا يزال غير راض عن حكامه، لأنهم الحكام الذين أوصلتهم السلطات الشيوعية إلى مقاليد الحكم ولا يشعرون فيهم تخلصاً من النظام الشيوعي والتبعية الروسية تماماً، وإن كان في إعلانهم الظاهري تخليهم عن الشيوعية.

وفي الواقع لا تزال التبعية ظاهرة فاللغة الروسية لا زالت هي الأولى في المطارات ولا يزال الفرد ينتقل من جمهورية إلى أخرى في رابطة الدول المستقلة كما لو كان الفرد ينتقل من مدينة إلى أخرى في دولة واحدة ولا يزال الذبح غير إسلامي مع أن أكثر سكانها مسلمون.

وإن كانت التبعية الروسية والأثر الشيوعي تربط الحكام والمسؤولين بروابط السياسة والإقتصاد والإدارة التي هيمنت على البلاد عقوداً طويلة فإن فئات الشعب على اختلافها بدأت تستهجن تصرفات حكامها وتطالب بالإصلاح وتحقيق الإستقلال الكامل إقتصادياً وسياسياً وفكرياً.

وقد ظهرت عدة أحزاب سياسية منها حزب بيرليك برئاسة السيد يولار عام ١٩٨٩ وحزب أيريك برئاسة السيد محمد صالح عام ١٩٩٠ وحزب النهضة الإسلامية برئاسة السيد أحمد قاضي اختايف عام ١٩٩٠.

وفي خضم هذا الإضطراب السياسي بدأت مختلف التيارات الفكرية والسياسية تتسلل إليها لفرض سيطرتها وبث نفوذها ومليء الفراغ الذي نتج عن فشل الفكر الشيوعي فالقوى الأوروبية تمارس ضغوطاً شتى لفرض توجهاتها ورغباتها، ومن خلالها تعمل الصهيونية على بث أفكارها، كما أن الحركات العلمانية الدولية تبذل طاقاتها وجهودها في بسط نفوذها وتحكمها للإستئثار بمراكز الحكم والإدارة حتى تطمئن إلى عدم وصول الفكر الإسلامي المشرع إلى مراكز القوة وصنع القرار السياسي والإداري.

والإتجاه الدولي الموسوم بالحر هو أن يتمتع المسلمون بحريتهم الدينية في ممارستهم لشعائر الإسلام وتستأثر القوى العلمانية بمراكز السلطة مما يؤكد تعاون الشيوعيين والديمقراطيين والعلمانيين والمستغربين في خوفهم من انبعاث نهضة إسلامية في تلك المنطقة.

ومع أن زيارة الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف إلى الأراضي المقدسة وما لقيه من حفاوة وتكريم من خادم الحرمين الشريفين كان له أثر بالغ في نفوس المسلمين الأوزبك إلا أن الفيلم الذي عرض في تلفزيون

أوزبكستان عن زيارته للأراضي المقدسة لم تظهر له فيه صورة واحدة وهو في داخل الحرمين الشريفين.

النشاط الإسلامي:

العمل الإسلامي يتنامى ويتزايد يوماً بعد يوم لاهتمام الشعب المسلم باستعادة الوعي الديني وقد انتشر بناء المساجد وحلقات تحفيظ القرآن الكريم والمعاهد والمدارس الأهلية لتعليم مبادىء الإسلام واللغة العربية. كما أن هناك عودة أفراد المثقفين والشباب إلى الإسلام.

كما أن انهيار الحكم الماركسي اللينيني وفشل الشيوعية المادية في تحقيق الرفاهية المزعومة أوجد فراغاً روحياً وفكرياً دفع المفكرين والمثقفين إلى إيجاد غذاء روحي يستلهمونه لبناء كيانهم وقد وجد بعضهم حقيقتهم في العودة إلى الإسلام، بينما انصرف بعض المفتونين بالغرب بالإعلام الأوروبي إلى نماذج غربية وأخذ رجال الحكم وهم الشيوعيون السابقون الذين تبوأوا مراكزهم بعد انغماس في الفكر الشيوعي الملحد يبتعدون بمواطنيهم المسلمين بدعم من مراكز القوى الداخلية والخارجية عن مناهل الإسلام وتطبيق أحكامه وتعاليمه ويعملون على تحقيق أهدافهم ببث الإختلاف بين دعاة الإسلام.

وتتولى الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر ومقرها طاشقند عاصمة أوزبكستان ويرأسها الشيخ محمد صادق محمد يوسف النشاط الإسلامي ومتابعته والإشراف عليه وتمثيله أمام الجهات الرسمية في الداخل والخارج. وقد غدا الشيخ محمد صادق محمد يوسف عضواً في عدة هيئات إسلامية عالمية وفي مقدمتها رابطة العالم الإسلامي مما أتاح له فرصة الإتصال والتعاون مع المؤسسات الإسلامية التي تهتم بالعمل الإسلامي ودعمه.

وهذه الإدارة الدينية تتولى العمل الإسلامي الرسمي وتشرف عليه في الوقت الحاضر في جمهوريات أوزبكستان وقازاقستان وتركمانستان

وقيرغيزستان وتاجيكستان وكان الحكم الشيوعي في سابق عهده هو الذي أحدثها وأوجدها للإشراف الرسمي على النشاط الإسلامي وتطويعه لأغراضه، وهذا ما يدفع ببعض الجماعات الإسلامية على الشك فيها وانتقاد رجالها. ولكن الأحداث تؤكد انفصال الإدارة الدينية عن الحكومة الحالية بعد انهيار النظام الشيوعي الذي ساعدها على الإنفصال والإستقلال المالي عنه.

تعرضت الإدارة الدينية إلى مشكلات جمة منها محاولات إستبدال رئيسها الشيخ محمد صادق محمد يوسف بآخر، وقد أدى ذلك إلى عقد مؤتمر إقليمي لعموم الأئمة ورجال الدين في آسيا الوسطى وقازاقستان في أواخر شعبان ١٤١٢ لمناقشة وضع الإدارة الدينية ورئيسها وانتهى المؤتمرون بتأييد رئاسة الشيخ محمد صادق محمد يوسف بصفة شبه إجماعية كما أن الإدارة الدينية تواجه مشكلة التمزق والإنقسام حيث انفصل عنها قاضي قازاقستان الشيخ راتب بك نيسان أوغلي وصار مفتياً لجمهورية قازاقستان.

أخذت مختلف المساعدات الخارجية ترد لدعم العمل الإسلامي من المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي ثم مصر وباكستان ولكن تركيا وإيران دخلت بنشاط ثقافي قوي. ولم تحرز إيران نجاحاً كبيراً بسبب موقف المسلمين السنيين من المذهب الشيعي إلا أن تركيا تتقدم بشتى المساعدات الثقافية من خلال برامج منح دراسية ضخمة وتبادل ثقافي وعلمي وإعلامي كثيف بهدف تقديم الأنموذج التركي إلى المسلمين للإقتداء به وقد أخذت الصحف التركية تطبع في طاشقند وألماأتا باللغتين التركية والمحلية وبالحرفين الروسي واللاتيني، وتمارس ضغوطاً إقتصادية وثقافية للإنتقال إلى استخدام الحرف اللاتيني المتداول في تركيا.

إلى جانب هذا تبذل مختلف المذاهب الباطنية والتيارات الضالة من قاديانية وبهائية وحركات صهيونية وبوذية وعمليات تنصير جهوداً مكثفة لملء الفراغ الروحي الذي تركه الفشل الشيوعي بهدف تحويل المسلمين عن دينهم الحق.

العود أحمد يا طشقند:

كنت أحمد الله تعالى وأقول في نفسي لطشقند: العود أحمد يا طشقند فقد زرتها مرتين قبل هذه المرة إحداهما في عام ١٤٠٦ـ ١٩٨٦م وكان ذلك في أول عهد الرئيس غورباتشوف آخر رئيس للإتحاد السوفييتي. فكانت البلاد تعيش فترة إمتداد لفترة التزمت والتشدد المسماة بالعهد البريجنيفي، نسبة إلى ليونيد بريجنيف الأمين العام للحزب الشيوعي الذي غزا الإتحاد السوفييتي في وقته أفغانستان، وصعّد من الضغط على المسلمين.



صورة رقم (١): شارع في طشقند

والزيارة الثانية كانت بعد الأولى بأربع سنين، وبعد أن تغير الإتحاد السوفييتي إلى الأحسن فحدث الإنفراج للشعب، وظهر النقد العلني للشيوعية، واهتز موقف الحزب الشيوعي نفسه. لذلك صار أعضاؤه من الحكام يتقربون إلى الشعب المسلم بإعادة المساجد التي كان الشيوعيون قد صادروها قبل ذلك، وبمنح أراضٍ من أراضي الحكومة لبناء مساجد جديدة، بل وللتقرب من المسلمين بأشياء كثيرة تتعلق بالحرية الدينية.

وقد ذكرت ذلك مفصلاً في الكتابين اللذين كتبتهما في تلك الرحلة وهما «الرحلة الروسية» و«يوميات آسيا الوسطى» وهما مطبوعان.

ولكن الإتحاد السوفييتي كان موجوداً، والبلاد المسلمة لم تزل باقية فيه، وإن كانوا أسموها جمهوريات شعبية.

أما الآن في هذه الزيارة الثالثة فقد تفكك الإتحاد، بل سقط الإتحاد السوفييتي المصطنع. وذاب الحزب الشيوعي الذي كان قد أذاق سكانه سوء العذاب كما يذوب الكابوس المزعج الذي لم يبق منه إلا آثار من الخوف والجزع والهلع المريع.

كانت هذه الأفكار تنتابني ونحن نتوجه بالسيارات من المطار إلى مدينة طشقند فأجدني أحمد الله وأشكره، وأسأله تعالى أن يلهم الأخوة المسلمين الصبر والعزيمة على مقاومة فلول الكفر والإلحاد والعودة بهذه البلاد المسلمة إلى الطريق الإسلامي النقي.

نزلنا في فندق (أوزبكستان) الذي اعتدنا النزول فيه، ولا بد من أن يكون قد حجز لك فيه حاجز صديق من أهل البلاد من فرد أو جماعة، وإلا صعب عليك أن تجد فيه مكاناً، لأنه أفخر فندق في طشقند وهو مخصص مع فندق آخر لنزول الأجانب فيه وهناك فنادق شعبية مخصصة لنزول المواطنين فيها لا يجوز لها أن تقبل نزلاء من الأجانب.

كانت الساعة عندما دخلنا غرفنا هي الخامسة إلا ربعاً فجراً، فصلينا الفجر ثم أخلدنا للراحة.

يوم الثلاثاء: ٢٥/ ١٠/ ١٤١٢هـ - ٢٧/ ٤/ ١٩٩٢م.

بلاد الشاش:

جددت عهداً قديماً بمدينة طشقند التي كان أسلافنا العرب يسمونها وما حولها بـ(الشاش) أو بلاد الشاش أخذاً من اسمها القديم الذي لا يزال مستعملاً وهو (تاش كند) ومعناه بلاد الحجر لأن (تاش) (حجر) في التركية القديمة ولا يزال معروفاً مستعملاً حتى الآن في لغات هذه المنطقة: منطقة وسط آسيا، التي كان أسلافنا العرب يسمونها (ما وراء النهر) حذفوا منها (كند) أو (كنت). كما ينطق بها الآن بمعنى البلد، وأبقوا (تاش) ولكن بلفظ شاش.

وقد تذكرت هنا غريبة حدثت لي وهي أنني بحثت في كتب البلدانيات العربية عن معنى بلاد الشاش فلم أهتد إلى ذلك إلا أنني وقعت عليه مصادفة في كتاب لأبي الريحان البيروني بعيد الموضوع عنه وهو (تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة)، وهو لا يبحث في موضوع البلدان، وإنما يتكلم على ثقافة الهند القديمة، ولكنه ذكر هذا الموضوع عرضاً، فأسرعت أنقله هنا وهو قول البيروني:

الأسماء سريعة التغير عند استيلاء قوم على الموضع غرباء مخالفي اللغة، فإن ألسنتهم ربما تتلجلج فيها، فيحيلونها إلى لغتهم كعادة اليونانيين. ويأخذون بالمعنى، فتتغاير الأسامي. ألا ترى أن (الشاش) هو مأخوذ من اسمه بالتركية وهو (تاش كند) أي قرية الحجارة، وهكذا اسمه في كتاب (جاو غرافيا): برج الحجارة فهكذا تختلف إذا عَبَّروا عنها بمعانيها، أو يقلبونها إلى ما يسهل عليهم من الحروف والألفاظ كفعل العرب. اهـ.

وحول بلاد الشاش قال ابن حوقل في كتاب «صفة الأرض»:

وأما الشاش وإيلاق فمقدار عرضهما مسيرة يومين في ثلاثة أيام وليس بخراسان وما وراء النهر إقليم على مقدارها في المساحة أكثر منابرَ وقرى عامرة وسعة وبسطة في العمارة إلى قوة شوكة منهم، وحدّ لها ينتهي إلى وادي الشاش الذي يقع في بحيرة خوارزم وحدّ لها باب الحديد ببرّيّة بينها وبين اسبيجاب يُعرف بالقلاص وهي مراعٍ وحدّ لها جبال منسوبة إلى عمل الشاش غير أن العمارة المتصلة إلى الجبلَ وباقيه مفترق العمارة وحدّ لها إلى وينكرد قرية للنصارى، والشاش في أرض سهلة وليس في هذه العمارة المتصلة جبل ولا أرض مرتفعة حَزْنة وهي أكبر ثغر في وجه العدو والترك، وأبنيتهم واسعة من طين وعامّة دورهم تجري فيها المياه وهي كلها مستترة بالخضرة ومن أنزه بلاد ما وراء النهر، ولها مدن كثيرة تتدانى وتتقارب مسافاتها.

كما تكلم ياقوت في معجم البلدان على الشاش، فقال:

شاش: بالشين المعجمة: بالري قرية يقال لها شاش، النسبة إليها قليلة، ولكن الشاش التي خرج منها العلماء ونسب إليها خلق من الرواة والفصحاء فهي بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك وأهلها شافعية المذهب، وإنما أشاع بها هذا المذهب مع غلبة مذهب أبي حنيفة في تلك البلاد أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفّال الشاشي فإنه فارقها وتفقّه ثم عاد إليها فصار أهل تلك البلاد على مذهبه، ومات سنة ٣٦٦، وكان أوحد أهل الدنيا في الفقه والتفسير واللغة، ومولده سنة ٢٩١، رحل في طلب العلم وسمع بدمشق والعراق وغيرها، وسمع أبا عروبة وأبا بكر بن خزيمة ومحمد بن جرير الطبري وأبا بكر الباغندي وأبا بكر بن دُرَيْد، وروى عنه الحاكم أبو عبد الله وأبو عبد الرحمن السلمي.

وينسب إليها أيضاً أبو الحسن علي بنِ الحاجب بن جُنَيْد الشاشي أحد الرّحّالين في طلب العلم إلى خراسان والعراق والحجاز والجزيرة

والشام، روى عن يونس بن عبد الأعلى وعلي بن خَشْرَم، روى عنه أبو بكر بن الجعاني ومحمد بن المظفَّر وغيرهما، وتوفي بالشاش سنة ٣١٤.

وقال أبو ربيع البلخي يذكر الشاش:

الشاش بالصيف جَنَّهْ
ومن أَذَى الحرّ جُنَّهْ
لكنَّني يغْترِيني
بها لدى البَرْد جِنَّهْ

قال الإصطخري: فأما الشاش وإيلاق فمتَّصلتا العمل لا فرق بينهما، ومقدار عرضة الشاش مسيرة يومين في ثلاثة، وليس بخراسان وما وراء النهر إقليم على مقداره من المساحة أكثر منابر منها ولا أوفر قرّى وعمارة، فحدٌّ منها ينتهي إلى وادي الشاش الذي يقع في بحيرة خوارزم، وحدٌّ إلى باب الحديد ببرِّيّة بينها وبين إسفيجاب تعرف بقلاص، وهي مَرَاع، وحدٌّ آخر إلى تنكرة تعرف بقرية النصارى، وحدٌّ إلى جبال منسوبة إلى عمل الشاش إلا أن العمارة المتصلة إلى الجبل وما فيه مفترش العمارة، والشاش في أرض سهلة، ليس في هذه العمارة المتصلة جبل ولا أرض مرتفعة، وهي أكبر ثغر في وجه الترك، وأبنيتهم واسعة من طين، وعامة دورهم يجري فيها الماء، وهي كلها مستترة بالخضرة من أنزه بلاد ما وراء النهر، وقصبتها بُنْكَث، ولها مدُن كثيرة، وقد خربت جميعها في زماننا، خرَّبها خوارزم شاه محمد بن تكش لعجزه عن ضبطها وقتل ملوكها وجلا عنها أهلها وبقيت تلك الديار والأشجار والأنهار والأزهار خاوية على عروشها، وانثَلَم من الإسلام ثَلْمة لا تنجبر أبداً، فكان خوارزم شاه ينشد بلسان حاله:

قتلتُ صناديدَ الرجال ولم أَذَرْ ... عَدُوًّا ولم أَترِكْ على جسد خلقا
وأَخليتُ دار الملك من كل نازع ... وشَرّدتهم غرباً وبدّدْتهم شرقا
فلما لمستُ النجم عزًّا ورفعة ... وصارت رقابُ الناس أجمع لي رقًّا

رَماني الرَّدى رمياً فأَخمد جمرتي ... فها أنا ذا في حُفرتي مفرداً مُلْقى
ولم يغن عني ما صنعتُ، ولم أَجِد ... لدى قابض الأرواح من أَحد رِفْقا
وأفسدت دنيائي وديني جهالة ... فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقى؟

وقال الحميري في الروض المعطار:

الشاش: مدينة جليلة من عمل سمرقند وقصبتها بنكث، وله مدن كثيرة، ويتصل ببلاد الشاش بلد إيلاق، وهما جميعاً لا فصل بينهما، عمارتهما متصلة متكاثفة لا تنقطع، فمقدار عرضهما مسيرة يومين في ثلاثة أيام، وليس بخراسان وما وراء النهر كورة ولا إقليم على مقدارها في المساحة أكثر منابر وقرى عامرة من هذه الناحية، وآخر حدودها انتهى إلى وادي الشاش الذي يقع في بحيرة خوارزم(١).

والشاش في أرض مستوية لا جبل فيها ولا أرض مرتفعة، وبساتينها ومتنزهاتها كثيرة، وهي من الثغور التي في ناحية الترك، ولأهلها سطوة ومنعة.

ومن الشاش أبو بكر محمد بن علي الشاشي القفال، كان إماماً، وله مصنفات، وعنه انتشر فقه الشافعي فيما وراء النهر.

وكان محمد بن أحمد الشاشي ورعاً.

أقول: يلاحظ قوله: إن الشاش هي من الثغور التي في ناحية الترك. فإن الثغور يراد بها ما يلي بلاد الكفار من بلاد المسلمين في مراكز الدفاع عن البلاد الإسلامية وهذا يدل على أنها كانت في ذلك الوقت آخر بلاد الإسلام من هذه الجهة. وقد تغير الوقت فأصبحت في وسط بلاد الإسلام الواقعة فيما وراء النهر، إذ تجاوزها الإسلام جهة الشمال فشمال قازاقستان كما تسمى الآن ووصل إلى سيبيريا التي كانت قد قامت فيها دولة إسلامية

---

(١) يريد بذلك نهر سيحون.

أسقطها الروس في القرن السادس عشر الميلادي، وأسموا كل الأصقاع بسيبيريا على اسمها.

معهد الإمام البخاري:

معهد الإمام البخاري في طشقند أحد المعالم المشهورة القديمة فيها، حتى إن الشيوعيين كانوا قد سكتوا عنه في زمن طغيانهم، وإن كانوا حددوا عدد الدارسين فيه، وحددوا مناهجه، ورسموا السياسة التي يجب أن يسير عليها أهله.

وهذه سياسة معروفة عنهم وهي التدخل في كل شيء، بل جعل كل شيء يسير على هواهم وهو كان المعهد الإسلامي الوحيد الذي بقي يخرج الأئمة والخطباء طيلة عقود من السنين لمسلمي تلك البلاد الشاسعة الواسعة التي كانت تسمى بالإتحاد السوفييتي، وطبيعي أنه غير كاف لأن طلابه كانوا ٥٢ طالباً يتخرج منه في المتوسط ثمانية طلاب في العام فكيف يكفي هذا العدد الخمسين مليوناً من المسلمين؟

إن الشيوعيين يقولون: إن عدد المساجد في عهدهم كان محدوداً، ولذلك كانت الحاجة إلى الأئمة محدودة.

وهذا أوله صحيح، أما آخره فلا، لأنه لا يكفي هذا العدد الضحم من المسلمين المتفرقين في أنحاء الإتحاد السوفييتي عدد قليل من الأئمة.

كان القصد من الذهاب إلى معهد الإمام البخاري ليس رؤيته فأنا قد رأيته أكثر من مرة، وإنما كان ذلك لتناول طعام الغداء بدعوة من المفتي الشيخ محمد صادق الذي كان يصحبنا بالسيارة كما قدمت.

ولم تكن مائدة الغداء في رواق مفتوح فيه كما كانت قبل ست سنين عندما زرت هذه البلاد أول مرة، وذكرت ذلك في كتاب «في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر» وهو مطبوع وإنما كانت في إحدى غرف المعهد.

وقد استمتعت بإعادة استجلاء مبنى المعهد الذي هو على طراز تقليدي قديم، أعمدته من الخشب القوي المزين بنقوش جميلة يصح أن تسمى إسلامية، بمعنى أنها على طريقة الفن عند المسلمين الذي يخلو من صور ذوات الأرواح، وإنما يقتصر على رسوم الأشجار والأزهار والخطوط الفنية المميزة.

واللطيف في الأمر أننا قبل الوصول إلى (معهد الإمام البخاري) الذي يقع في منطقة تابعة للإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر مقابلة لها سلكنا مناطق في أحياء شعبية قديمة مبنية بالطين لم يكن موكبنا يسلكها في القديم عندما زرنا طشقند إبان حكم الشيوعيين مع أنها هي الأقرب، لأنهم كانوا يتخيرون لمرور الضيوف الشوارع الحديثة، مع أن القديمة أنفس عندنا وأحب إلينا أن نراها، لأنها الطراز الإسلامي الأصيل.

وأغلب بيوت الأحياء القديمة التي مررنا بها هي مبنية بالطين ومطلية بالجص أو ما يشبه الجص من مادة بيضاء.

وأكثرها لها أساسات من لبن الآجر، لأنه أصبر على تحمل رطوبة الأرض من الطين. وقد أدينا صلاة الظهر معهم في مسجد (معهد الإمام البخاري).

قبر الإمام الشاشي:

يقع غير بعيد من مبنى معهد الإمام البخاري هنا قبر (القفال الشاشي) بل إن ضريحه الذي بنوا عليه قبة في مكان محاط بسور واحد هو والمعهد ومسجد هناك منفصل عنهما.

وكنت زرت الإمام القفال الشاشي زيارة شرعية، فسلمت عليه، ودعوت له في قبره، وإن كنت لا أقر البناء على قبره وهو - بلا شك - لا يقره، لأنه إمام كبير يعرف بأن البناء على القبور من البدع المنهي عنها كما في الحديث عن أبي الهيجاء الأسدي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال له: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته..

وقد ذكرت الزيارة الأولى له في كتاب «في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر» ولم أرني هنا بحاجة إلى زيارة القبر الآن، وإنما وجدتني أتذكر نصاً مَرَّ بي في كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي يتعلق بقفال آخر يشتبه اسمه باسم القفال الشاشي، وهو القفال المروزي رأيت نقله هنا لأنه يوضح مبدأ حاله في طلبه العلم.

قال ياقوت في معرض كلامه على مدينة (مرو) التي لا تبعد عن طقشند إلا بمسافة ٥٧٠ كيلومتراً:

وإليها ينسب عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله أبو بكر القفَّال المروزي وحيد زمانه فقهاً وعلماً، رحل إلى الناس وصنف وظهرت بركته وهو أحد أركان مذهب الشافعي وتخرَّج به جماعة وانتشر علمه في الآفاق، وكان ابتداءُ اشتغاله بالفقه على كبر السن، حدثني بعض فقهاء مرو بِفَنينَ من قراها أَن القفَّال الشاشي صنع قفلاً ومفتاحاً وزنه دانق واحد فأُعجب الناس به جداً وسار ذكره وبلغ خبره إلى القفَّال هذا فصنع قفلاً مع مفتاح وزنه طسُّوج وأراه الناس فاستحسنوه ولم يشع له ذكر فقال يوماً لبعض من يأنس إليه: ألا ترى كل شيء يفتقر إلى الحظ؟ عمل الشاشي قفلاً وزنه دانق وطنَّت به البلاد، وعملت أنا قفلاً بمقدار رُبعه ما ذكرني أحد! فقال له: إنما الذكر بالعلم لا بالأقفال، فرغب في العلم واشتغل به وقد بلغ من عمره أربعين سنة وجاء إلى شيخ من أهل مرو وعرَّفه رغبته فيما رغب فيه فلقَّنه أول كتاب المُزَني، وهو: هذا كتاب اختصرته، فرَقِيَ إلى سَطْحه وكرَّر عليه هذه الثلاثة ألفاظ من العشاء إلى أن طلع الفجر فحملته عينه فنام ثم انتبه وقد نسيها فضاق صدره وقال: أَيش أقول للشيخ؟ وخرج من بيته فقالت له امرأة من جيرانه: يا أبا بكر لقد أسهرتنا البارحة في قولك هذا كتاب اختصرته، فتلقنها منها وعاد إلى شيخه وأخبره

بما كان منه، فقال له: لا يَصدنّك هذا عن الاشتغال فإنك إذا لازمت الحفظ والاشتغال صار لك عادة، فجدّ ولازم الاشتغال حتى كان منه ما كان، فعاش ثمانين سنة، أربعين جاهلاً، وأربعين عالماً، وقال أبو المظفر السمعاني: عاش تسعين سنة. ومات سنة ٤١٧هـ ورأيت قبره بمرو، وزرته رحمه الله تعالى.

العشاء الحلال:

رغم كون هذه البلاد هي بلاد مسلمة منذ القديم أي منذ ثلاثة عشر قرناً فإن المسلم المتحرز لدينه لا يستطيع أن يأكل في مطاعمها ما يقدم إليه من لحم، ذلك بأن الذبح فيها ليس ذبحاً شرعياً، فالشيوعيون غيروا فيها حتى الذبح فصاروا يذبحون في المجازر الحكومية بالصعق الكهربائي.

لذلك يبادرك أهل العلم والدين منهم بأنهم سوف يتدبرون موضوع عشائك أو غدائك بأنفسهم، ولو كنت في فندق ذي مطعم كبير مثل هذا الذي نقيم فيه وهو فندق (أوزبكستان).

ولذلك لم نفاجأ عندما قال لنا الإخوة: إن عشاءكم الليلة قد اشترته الإدارة الدينية، وسوف يطبخ لكم في مطعم الفندق.

وقد حضر العشاء معنا في الفندق الشيخ (زاهد جان) نائب رئيس الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر وهو المكلف بملازمتنا والسهر على راحتنا، والأستاذ أمين عثمان وهو أديب وشاعر من أهل هذه البلاد ألف أكثر من عشرة كتب، واتجه إلى التأليف في الموضوعات الإسلامية في الفترة الأخيرة، أي بعد أن أصبحت الكتابة في هذه الموضوعات ممكنة، لأنها كانت ممنوعة في القديم، وكان من يدعو في كتابته إلى شيء يتعلق بالدين أو حتى بالتقاليد الدينية يعد رجعياً متآمراً على الدولة.

كما حضر معنا اثنان من الإخوة موظفي الإدارة الدينية.

يوم الأربعاء ٢٦/ ١٠/ ١٤١٢هـ - ٩/ ٤/ ١٩٩٢م:

إلى حديقة الحيوان:

بينما كان الإخوة في الإدارة الدينية يسعون في الحصول لنا على سمة الدخول إلى منغوليا التي سنذهب إليها في نهاية رحلتنا هذه. وبينما كانوا ينظمون خط السير في منطقة (ما وراء النهر) رأينا أن نذهب إلى أماكن لم نذهب إليها من قبل في طشقند.

ومن ذلك حديقة الحيوان وكان رفيق الجولة اليوم الأخ الأستاذ (عثمان أمين) وهو كاتب وشاعر بلغة أهل هذه البلاد، كما أنه يعرف الروسية ويكتب بها.

فاخترقنا شوارع طشقند الواسعة المشجرة التي اخضلت أوراقها في هذه الأيام الربيعية الندية.

ومررنا بمنزل له وهو شقة في بناء متعدد الطوابق (عمارة) مخصص لسكنى الأدباء فلهم مسكن خاص بهم وفيه ٣٠ شقة يسكن في كل واحدة منها أديب من الأدباء وقد عرفوا لنا الأديب بأن من ألف كتباً أدبية من روايات أو أشعار أو بحوث أدبية وليس من كتب في الصحف السياسية عندهم يعتبرونه أديباً فذلك صحفي وليس أديباً.

وسوف تأتي زيادة للحديث عن مسكنه هذا فيما بعد - إن شاء الله - والعمارة واقعة على شارع سمي باسم الشاعر الروسي الشهير (بوشكين) الذي قال عنه بعضهم: إنه ربما كان عربي الأصل.



صورة رقم (٢): تذكارية مع الأستاذ أمين عثمان على يمين المؤلف والأستاذ محمد حافظ على يساره خلال الجولة في حديقة الحيوان

ظباء بخاري:

لم يكن مدخل الحديقة سنياً ولا كان مجدداً، وتبدو الحديقة منه غير واسعة لأنه يفتح على عرضها ولكن تبين بعد ذلك أنها لا بأس

بسعتها، وأنها كان قد أصابها الإدبار من بين ما أصابه في العهد الشيوعي الذي ولى الأدبار.

ومن الطريف أن أول ما اطلعنا عليه فيها ظباء من ظباء هذه المنطقة التي نسميها في بلادنا بخارية وهي أوسع من (بخارى) ومنطقتها. وإنما هي البلاد التركستانية وهذا أمر طبيعي، وإنما الأمر اللافت للنظر أن طيوراً غريبة قد وضعوها في مكان بارز وكتبوا عليها أنها من (كوبا).

والنص على (كوبا) في هذه المدينة أمر كان له ما يبرره عند الشيوعيين من كون كوبا بلاداً شيوعية، وقد انفصمت عرى تلك القرابة الشيوعية عندما اضمحلت الشيوعية كلها من هذه البلاد.

البوم الأسود والبوم الأبيض:

البوم مخلوق غريب فهو طير ولكن له وجه يشبه على البعد وجه حيوان، وهو ضخم الجثة، ولكنه لا يفترس إلا الطيور الصغيرة أو الدواب القذرة كالفأر ونحوه فهو ليس كالصقر الذي هو أصغر منه حجماً، ولكنه أقوى منه عزماً وأشد أسراً.

ولذلك ضرب بنو قومنا المثل بالبومة لمن له حجم كبير، وقلب صغير لا يجرؤ على مقارعة الكبار، ولا حتى مجاراة الشجعان من الصغار.

والبوم المعروف في صحرائنا العربية هو أشقر اللون أي لونه بين الحمرة والسواد الفاتح وفيه ذو اللون الأغبر.

وقد عرضوا مثيله هنا وربما هو أو ابن عم له. ولكنهم عرضوا معه بوماً آخر أسود اللون لم يذكروا أنه من إفريقية وبوماً آخر أبيض اللون لم يذكروا بأنهم جلبوه من روسيا البيضاء مثلاً!!!

ثم اطلعنا على الأيايل - جمع أَيِّل - وهو شبيه ببقر الوحش ويسمى

نوع منه في بلادنا الوضيحي لكون لونه أوضح أي يميل للبياض ولكن هذا البخاري أكبر وأغلظ خلقاً.

ومن المفارقات أنهم عرضوا بجانبه (اللاما) حيوان جبال الإنديز في أمريكا الجنوبية الذي كان لأهلها بمثابة البعير للأعراب عندنا فهم يأكلون من لحومها ويلبسون من أوبارها ويحملون الأحمال غير الثقيلة على ظهورها.

وما أبعد موطنه بالنسبة إلى موطن جاره في الحديقة وهو الأيل الذي يعيش في هذه المنطقة. وقد تيسر لي أن أرى (اللاما) يرعى في موطنه الأصلي من جبال الإنديز. وذكرت ذلك في كتابي: «على قمم جبال الإنديز» و: «بين الأرغواي والباراغواي».

ويصح أن يسلك في هذه المنظومة من الحيوان (الوعل) الذي عرضوه بجانبها والوعل عندنا هو الماعز الجبلي وهو (الأروى) بلغة الشعراء والمحبين، وبه سميت المرأة (أروى) وإن لم تسم (وعلاً) وإنما سمي الرجل (وعلة) مع أن الوعل والأروى واحد.

وقد دأب بعض العوام من كتابنا على تسميته بالماعز الجبلي لعدم معرفتهم باسمه الأصلي العريق في العربية وهو الوعل والأروى.

السنور البري:

والسنور البري أو المتوحش، ولا أدري أيصح وصفه هذا الوصف من دون أن نعلم أنه كان أنسياً ثم توحش، وإذا لم يكن الأمر كذلك فإن الاسم الذي لا اعتراض عليه هو (السنور البري) نسبة إلى البر: ضد المعمور من الأرض، والسنور الوحشي.

ولو ذكرنا اسمه القديم عند أسلافنا العرب، لما عرفه أحد من أبنائنا المحدثين، وإن كان شيوخنا الأقدمون ومن أبقت عليه السنون منهم يعرفون به وهو (التَفَه) بفتح التاء والفاء وهاء لا تنطق تاء أبداً.

هكذا كنا نسمع به ونحن صغار وكنا نسمع أهلنا يضربون المثل للغلام الشرس المشاكس القوي بأنه (تفه) وذلك لقوة التفه وشراسته ومحبته للقتال، وقد ذكرت العامة أنه لا شيء من حيوان الصحراء يغلبه وأنه لا يأكل إلا اللحم.

قالوا ذلك وإن لم يعرفوا أن أسلافهم العرب كانوا يقولون في أمثالهم: «أغنى من التفه، من الرفه». والرفه: التبن يريدون أن التفه وهو هذا السنور البري لا يأكل إلا اللحم، وليس من عادته مطلقاً أن يأكل العشب.

والسنور البري هذا أكبر حجماً من الموجود عندنا، وعلى ذكر آكلة اللحوم من الحيوان أقول: إنهم عرضوا في الحديقة نموراً أهم ما فيها أنها متعددة الألوان، وليس معنى ذلك أنها نوع واحد متعدد الألوان، وإنما هي أنواع متعددة من بلاد متعددة.

ومع ذلك فإن النمور لا تعد غريبة في حدائق الحيوان فهي موجودة في أكثرها. ولكن الذي استرعى انتباهي منها نمر ضخم ذكروا أنهم جلبوه من سيبيريا.

بين الثغاء والرغاء:

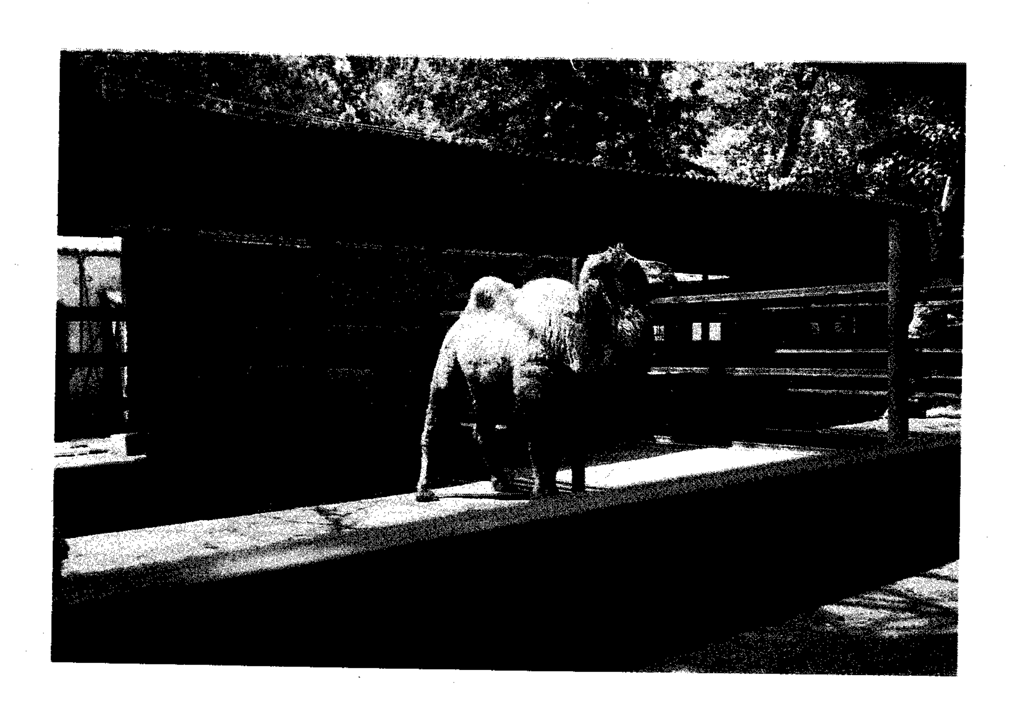
صادفناهم يطعمون (الفقمة) وهي سبع البحر فصار يصيح صياحاً أجش غليظاً يذهب صوته بعيداً في المدينة وهو بين ثغاء الشاة ورغاء البعير مع أنه حيوان مائي في الأصل وإن كان كالحوت يتنفس ويصوت، وهو يعيش بين البر والبحر.

وكثير من الناس يخلطون بينه وبين (القندس) الذي يسميه عوام الكتاب كلب البحر أو كلب الماء، وهو الذي يعيش في المياه العذبة، ويبني بيته من أعواد محكمة، فذاك نوع آخر وهو أصغر من هذا.

وقد رأيت في جانب من الحديقة غرفاً كالأكواخ الإفريقية المخروطة

الشكل وأعاليها واقفة، وعندما رأيتها تبادر إلى ذهني منظر (الخركاة) وهي الخيمة المشهورة عند المغول وقدماء الأتراك وكانوا يتفننون في صناعتها وتزويقها، إلا أن الأخ عثمان أمين ومن سألهم هنا لم يعرفوها وهي خالية ربما كانوا أرادوا أن ينقلوا إليها شيئاً من الحيوان أو يجعلوها مقصفاً أو مقهاة أو نحو ذلك.

مع أن مثل هذه (الكماليات) تكاد تكون معدومة في الأماكن العامة من هذه البلدان الشيوعية فلم أر في حديقة الحيوان هذه أي شيء من ذلك وإنما رأيت باعة يبيعون حلوى وخبزاً خارج بابها مما يلي الشارع وقد أصر أحدهم على أن يهدي إلي من بضاعته ما آكله لأنه رآني بثيابي العربية.



صورة رقم (٣): البعير ذو السنامين في حديقة الحيوان في طشقند

وواصلنا جولتنا في حديقة الحيوان هذه التي تبين لنا أنها غنية بالحيوان والطير رغم صغر مساحتها مما جعلهم يفكرون في نقلها إلى مكان خارج المدينة، لأن المكان الذي هي فيه قد لحقت به عمارة المدينة وهي عمارة قديمة، إذ لا يكاد المرء يرى بيتاً جديداً أو مجدداً في داخل المدينة.

فوقفنا على أفراس النهر في حوض ماء ضخم كدر وقد سماها ابن بطوطة (خيل النهر) وهي المسماة عند العامة في مصر (سيد قشطة).

وغير بعيد منها عرضوا بعيرين من أباعر هذه المنطقة وهي ذات السنامين التي لا يحتاج راكبها إلى (شداد) وهو الرحل، بل إن له من سناميها ما يقوم مقام ذلك فأحدهما يكون خلفه يستند عليه والآخر الأمامي أمامه يمسك به مثلما نفعل نحن عندما نركب على بعيرنا فوق رحل من الخشب.

ولا أدري لم استغنى بعيرنا عن السنام الثاني، إن كان الأصل في الأبل أن تكون ذات سنامين، أمرد ذلك إلى جدب الصحراء العربية التي لا يكاد البعير يجد فيها ما يقيم سناماً واحداً فضلاً عن اثنين. أم إن الأصل أن البعير ذو سنام واحد، ولكن نبت له سنام ثانٍ في هذه الأرض الخصبة من وسط آسيا وشمالها الشرقي.

ولكن بعيرنا العربي إن فاتته ميزة السنام الثاني، فإنه لم يفته الرشاقة والانسجام في قوامه فهو أسرع عدواً، وأجمل جسماً من ذي السنامين الذي هو قصير القوائم، بطيء الحركة بالنسبة إلى إبلنا الرشيقة السريعة.

وقد حاولت عدة مرات أن ألتقط صورة له وهو واقف معترض فكان ينحرف مولياً وجهه شطرنا ربما كان ذلك لعادة عوده علينا بعض الزوار وهي أن يقدموا إليه بعض الطعام، أو ربما كان ذلك لمجرد الشعور بالوحدة في قفصه الواسع.

طيور طليقة وطيور حبيسة:

يصح أن يقال إن هذه الحديقة حافلة بطيور كثيرة أغلبها من كبار الطير من أنواع البط الأبيض الكبير والرمادي الصغير وما كان بين ذلك، وفيها من ذلك ما هو حبيس في الأقفاص، وما هو طليق جاء إلى هذه الحديقة من أجل الإقتناص من طعام يلقى لهؤلاء المساجين من بني جنسه وكذلك من الطيور الكبيرة التي تسميها العامة في مصر (أبو سعن) وهي أقرب ما تكون إلى (مالك الحزين).

الطاووس وأم حبين:



صورة رقم (٤): أطفال فرحون برؤية الطاووس ينشر ذيله في حديقة الحيوان في طشقند

في الحديقة طاووس عجيب ذلك بأن له ذيلاً ملوناً طويلاً - وهذا طبيعي - ولكن الغرابة في الأمر أن الأطفال الذين كانوا قد دخلوا الحديقة مع ذويهم للفرجة والإستمتاع يقفون عنده ويصيحون به قائلين بلغتهم الأوزبكية: افتح، افتح، فينشر مروحته التي في ذيله الجميل قد جعلها على هيئة المروحة الواقفة ثم يسير مزهواً بذلك، مختالاً في مشيته كما تفعل الغانية الحسناء إذا كانت في بلاد ليس فيها من الحسناوات واحدة.

والغريب أيضاً أنه يسير مختالاً مزهواً ولكنه لا يقتصر على ذلك، بل يظل يهز جسمه، ومروحته تميل يميناً ويساراً كما تفعل المروحة اليدوية المعتادة في يد الحسناء الماهرة. يفعل ذلك وكأنه يرقص رقصة الطرِب بل النشوان.

وما رأيت مثله على كثرة ما رأيت من الطير والحيوان في أنحاء العالم.

وذكرني قول الأطفال (البخاريين) له: افتح؛ افتح بما ورد في خرافات الأعراب من أنهم إذا رأوا (أم حُبَيْن) وهي نوع من الحرابي وقالوا لها:

أم حبين أنشري برديك
إن الأمير ناظر إليك

فإنها تخرج من جنبيها جناحين كانت تخبئهما، وإن لم تستطع أن تطير بهما.

ولا شك في أن هذه خرافة أعرابية لا تنطلي على أحد، لأن جسم (أم حبين) هزيل ليس فيه تحت الجلد إلا العظم، وهو أصغر وأضيق من أن يخفي جناحين غير مستعملين، ولذلك قال أحد الأعراب حين سئل عما يأكله الأعرابي في الصحراء فقال: يأكل كل ما دب ودرج إلا (أم حبين)، فقال سائله: لتهنئك السلامة يا أم حبين.

ومن الطريف في أمر هذا الطاووس أن مرافقنا الأديب الشاعر (عثمان أمين) قال: إن الناس هنا يعتقدون أن الطاووس إذا رأى رجلاً صالحاً ينشر مروحته.

يشير بذلك إلى مجاملتنا بأنه إنما نشر مروحته من أجلنا.

فقلنا له: شكراً. وربما كان ـ من باب المزح ـ قد عرف صلاحنا ـ إن كنا صالحين ونرجو أن نكون كذلك ـ من ثيابنا الملونة التي لا يلبسها أهل هذه المنطقة.

العصفور والنسور:

كان الإنتقال من الطاووس المرح إلى ركن فيه طيور ضخمة ربما كانت الطيور الصغيرة وحيوانات البرية الضعيفة تراها ظالمة غاشمة وهي النسور. بل بعضها تعد من (قشاعم) النسور وهي كبارها الطاعنة في أسنانها.

وقريباً منها قفص فيه عصافير صغيرة فتبادر إلى ذهني المثل العامي: (أكبر الطيور النسور، وأكبرهن قلب العصفور) يريدون أن أذكاها هو العصفور.

أما تلك النسور، فإنهم ذكروا أنهم جلبوها من جبال الهملايا.

وبقرب النسور والعصافير أنواع من الصقور الجارحة ومنها ما نسميه في بلادنا (المسرول) وهو الذي يوجد ريش دقيق في رجليه.

وهناك النعام الإفريقي المعروف لنا وهو الرمادي اللون، ولم أرهم عرضوا نعام آسيا، وربما كان ذلك لعدم وجود نعام ذي طابع محلي.

وأما الغريب مثلنا في بعد الدار فهو (الكنقرو) حيوان أستراليا (الناقز) ولا نقول (القافز). فالنقز هو المشي مشية العصفور الذي يرفع رجليه ويضعهما دفعة واحدة لا تتقدم إحداهما على الأخرى. وهذا

الكنقرو يفعل ذلك كما يفعل (اليربوع) الحيوان العربي الصحراوي الصغير الذي لا يكاد يوجد بينه وبين هذا الكنقرو فرق إلا في كونه لا يضع أولاده في كيس تحت بطنه، وإنما يضعها في كيس ترابي في جوف الأرض لكي يبعدها عن أعدائه الكثر.

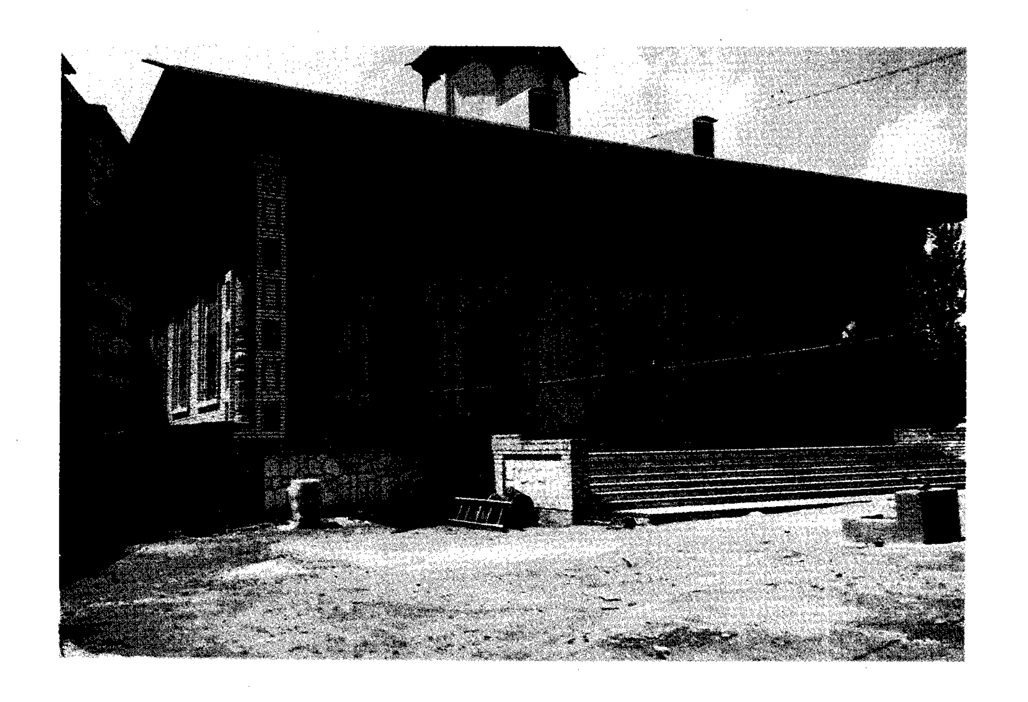
وقد قلت مرة إن الكنقرو الأسترالي ربما كان هو (اليربوع) العربي كبر حتى صار على ما هو عليه أو أن يربوعنا صغر عن حجم الكنقرو حتى صار على ما هو عليه من الصغر والحقارة حتى قالت العامة من بني قومنا فيه (جربوع ما يسوى تعبه) وقالوا: (جربوع ما يسوى حطبه) والجربوع: اليربوع.

هذا والحديقة تعج بالمتفرجين من كافة الأعمار وهم من الروس والوطنيين التركستانيين الذين نسميهم البخاريين وهؤلاء في الحديقة أكثر.

وقد رأينا القائمين على أمر الحديقة قد خصصوا فيها ركناً للأطفال فيه سيارات صغيرة يركبونها وعربات دائرة يركب فيها الصغار وذووهم وأرجوحات هوائية دائرة. وقد سألت عن السبب في حضور الناس إلى الحديقة في هذا اليوم الذي هو يوم عمل فأجابوا: إن كثيراً من العاملين والعاملات يعملون متناوبين يغيب أحدهم فلا يحضر فيعمل صاحبه. وهذا نظامهم، ولذلك تمكنوا من الحضور.

مسجد مزرعة اللوز:

حان وقت صلاة الظهر فذهبنا إلى مسجد يسمونه (بادام زار) ومعناها: مزرعة اللوز على اسم الحي الذي هو فيه، . أي اسمه القديم ويسمى المسجد مسجد (ميرزا يوسف) و(ميرزا يوسف) هو الذي وقف أرض المسجد وهذا المسجد كنا قد زرنا مكانه منذ سنتين، وكانوا بدأوا بتعميره إلا أننا لم نجد إمامه آنذاك ولا القائمين عليه الذين يسمى رئيسهم بالمتولي بمعنى رئيس الجمعية.



صورة رقم (٥): جامع يوسف ميرزا في طشقند

وقد استكمل بناء المصلى الرئيسي فيه، وبنوه بناء جيداً، بل على الطريقة الفاخرة العريقة في هذه البلاد فهو منقوش بنقوش بديعة، وأخشابه كلها مخروطة مجملة وأبوابه منقوشة مزخرفة إلا أنه غير واسع، مع أنهم ذكروا أنه يمتلىء يوم الجمعة، ويضيق بالناس حتى فناؤه.

وفيه غرف ملحقة لفصول الدراسة حيث يدرس فيها عدد لا بأس به من الصغار والكبار. ولديهم مشروع لبناء مدرسة واسعة على أرض ملحقة بالمسجد.

لقينا فيه إمامه الشيخ (عبد القادر بن مروان) ذكر الإمام وغيره من

الذين التقوا علينا من جماعة المسجد أن بناءه قد تم بتبرعات محلية، وبتبرع إضافي وصلهم من المملكة العربية السعودية.

ومن لطيف ما فيه نقوش جصية محيطة بمحرابه ذكرتني بما كنا نفعله في محاريب المساجد في بلادنا حيث كنا نزينها بمثل هذا الجص.

ومنارته لا تزال كما هي عليه وهي في وسط فنائه منفصله عنه، كما اعتاد الناس أن يفعلوا في هذه البلاد.

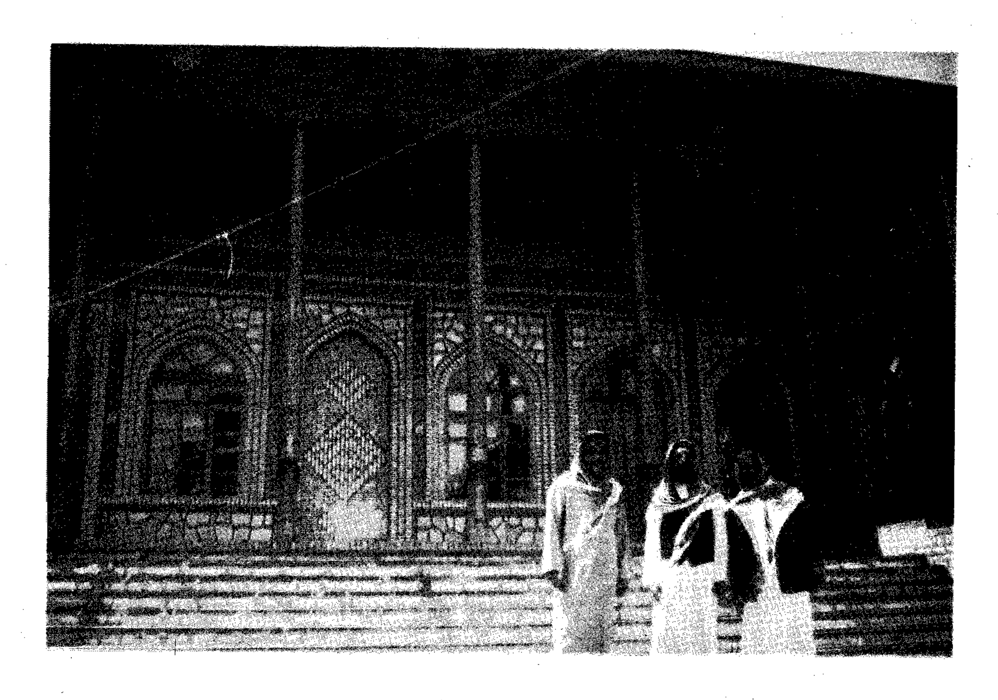
وقد صلينا معهم الظهر وذلك أننا بعد أن دخلنا المسجد أذن مؤذن منهم شجي الصوت، فصيح الأداء مع أنه أعجمي اللسان في الأصل، ثم صلوا السنة ٤ ركعات بعدها دخلوا في الفريضة، وكان عددهم جيداً بالنسبة إلى هذا الوقت الذي هو وقت عمل.

وبعد الصلاة كان التكبير، والتحميد السري الذي لا يجهر به أحد منهم وإنما يقول الإمام: الحمد لله، فيقولون مثله، ثم كان هناك دعاء برفع اليدين لا يجهر به الإمام ولا من خلفه. ثم دعاء آخر والمأمومون يؤمنون عليه أي يقولون: آمين، على ما لا يعرفونه ولا يفهمونه، وإنما ذاك ثقة بالإمام الذي يظهر كأنما هو يدعو دعاء سرياً.

وقبل الإنتهاء قرأ قارىء منهم آيات من القرآن الكريم.

وهذه عادة لهم لا يكادون يخلون بها في صلواتهم الجامعة، ويكون قارىء القرآن غير الإمام.

ومع أن هذه أدعية وتكبير وتحميد وتلاوة للقرآن الكريم وكل ذلك محمود ومطلوب إلا أن المواظبة عليها وعدم الإخلال بها يجعل من لا علم له منهم يظن أنها من الأمور المفروضة، وقد يترك الصلاة جماعة لما يتطلبه ذلك من وقت.



صورة رقم (٦): وفد الرابطة عند مدخل مسجد اللوز الجامع في أحد ضواحي طشقند

والمطلوب من طلبة العلم والعلماء منهم أن يوضحوا ذلك للعوام، وأن يخيروا من يريد منهم الإنصراف بعد الفريضة أن ينصرف أو يبقى بعد أن يبينوا فضل التكبير والتحميد بعد الصلاة.

أما قراءة القرآن بعد كل صلاة فلا أعرف أصله.

يوم الأحد ١/ ١١/ ١٤١٢هـ ـ ٣/ ٥/ ١٩٩٢م:

عود إلى طشقند:

قمنا بزيارة إلى جمهورية (قرغيزستان) حيث ذكرت أننا توجهنا بالسيارة إلى هناك فمررنا بعدة مدن من مدن جمهورية (قازاخستان) أيضاً حتى وصلنا بطريق البر إلى مدينة (بشكك) عاصمة جمهورية (قيرغزستان) وقد قصصت الخبر عن ذلك في كتاب: «حديث قرغيزستان» وهو كتاب مطبوع. ثم توجهنا بالطائرة من (بشكك) إلى طشقند حيث هبطنا في مطارها اليوم في السادسة والنصف ودقيقتين مساءً، بوقت طشقند وهي السابعة والنصف ودقيقتين بوقت (بشكك) وذلك بعد طيران استمر ساعة وثلثاً.

وجدنا في استقبالنا مضيفة أرضية كانت على علم بوصولنا فصحبتنا وحدنا في حافلة كبيرة ربما لكونهم لم يتيسر لهم الحصول على سيارة صغيرة وإلا فإن حافلة كبيرة طويلة لثلاثة أشخاص أمر غير معتاد.

وقد تكرر هذا معنا بعد ذلك في هذا المطار إذ كانوا يودعوننا ويستقبلوننا بهذه الحافلة أو بمثيلة لها.

ويذكر أن سائر ركاب الطائرة قد أركبوهم بعدنا في حافلة مثل حافلتنا وهم كثر.

أنزلونا عند قاعة كبار الزوار في المطار، ولكننا وجدنا صديقنا

الشيخ زاهد جان نائب رئيس الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر في انتظارنا مع السيارات المعتادة فانتقلنا معه إلى طشقند بسيارته بعد أن أمر رجاله بإحضار أمتعتنا وعدنا إلى فندق (أوزبكستان) في طشقند وهو الفندق الرئيسي فيها الذي نزلناه قبل سفرنا هذا إلى (قرغيزستان).

وفوجئنا بأننا ننزل في غرفنا لم تتغير فعرفنا أنهم أبقوها لنا لم يغيروها وقد اعتبرونا لا نزال نقيم فيها، وعلل الشيخ (زاهد جان) ذلك بأنه من أجل ضمان الحصول على غرف في الفندق لأنه لا يضمن لو تركناها أن نجد في الفندق غرفاً خالية بديلة منها.

ولم نفعل شيئاً عندما استقربنا المقام في الفندق وكان الوقت ليلاً سوى أن نزلنا إلى مطعمه الواسع في الطابق الأرضي فوجدنا الإخوة في الإدارة الدينية قد أعدوا العشاء، ولا بد هنا ـ كما قلنا ـ من ترتيب الطعام بما يطمئن إليه من اللحم، لأن اللحم الذي يقدم في المطاعم قد ذبح على غير طريقة إسلامية فهو لا يزال يذبح على الطريقة الشيوعية القديمة.

وقد جاؤوا بشواء ذكروا أنهم أحضروه من خارج المطعم.

ولم يكن لدينا ما نفعله إلا أن نخلد إلى الراحة في الفندق هذه الليلة لأننا لن نبقى فيه بل في أوزبكستان كلها إلا سواد هذه الليلة.

إلى جمهورية تركمانستان



قبل الوصول إلى تركمانستان لا بد لنا من الحديث عنها في معلومات مهمة تتناول جوانب من تاريخها ومن التعريف بها في ماضيها وحاضرها، كما فعلنا في جارتها (أوزبكستان) من قبل:

جمهورية تركمانستان:

تقع جمهورية تركمانستان في الجنوب الغربي لآسيا الوسطى ما بين دائرتي عرض ٣٥ـ٤٥ شمالاً، وخطي الطول ٥٣ـ٦٧ شرقاً ويشغل محيطها صحراء قره قوم التي تغطي أربعة أخماس الأراضي ثم يلي ذلك جبال كوپت تاغ التي تمتد على طرفها الجنوبي بحدودها مع إيران ويجري في أجزائها الشرقية نهر تسن (تزهن) الذي يعتبر امتداداً لنهر هربي زد الذي يجري في إيران.

ويعتبر حوض نهر تسن من أخصب الأراضي بتربته الطينية وتوجد فيه واحة ات Atck وسرخس وبيهق وفي امتداده الغربي عشق آباد.

كما يجري نهر مورغان الذي ينبع من جبال هندوكوش ويقطع أفغانستان وينتهي إلى صحراء قره قوم ويوجد في حوض نهر مورغان الذي عرف أيضاً باسم الروذ نسبة إلى مدينة مرو الروذ.

أما نهر جيحون وهو الذي يعرف باسم أموداريا الذي ينبع من جبال هندكوش ويعبر أوزبكستان إلى مصبه في بحيرة آرال فإنه يلامس حدودها الشرقية مع أوزبكستان وقد تم توجيه نهر أموداريا إلى صحراء قره قوم

حيث تم حفر قناة من قرية باساغا Pasaga قرب مدينة كركي Kerki إلى مدينة مرو عام ١٩٥٩ ومن هناك تم إيصال القناة إلى مدينة عشق آباد ويبلغ طول هذه القناة ٨٥٠ كيلومتراً والهدف النهائي هو تمديد القناة إلى مدينة نبت واغ ومنها إلى مدينة كراسنوفودسك على بحر قزوين.

تبلغ مساحة تركمانستان ٤٨٨٠٠٠ كم٢ وتعادل مجموع مساحة دول بلجيكا وهولندا والدانمارك والبرتغال والنرويج والنمسا واليونان وتتكون إدارياً من خمس مقاطعات وهي عشق آباد، كراسنوفودسك، ماري (مرو)، تاش حوض، جارجوي. وخمس عشرة مدينة و٧٣ مستوطنة وعاصمتها عشق آباد وتلفظ محلياً اشخباد Ashkhabad وقد سميت بولتوراتسك Poltoratsk فيما بين ١٩١٩-١٩٢٧.

سكان تركمانستان:

يقدر عدد السكان حالياً بنحو ٣,٧ مليون نسمة وقد بلغ عدد سكان تركمانستان ٣٥٣٤٠٠٠ نسمة بموجب إحصاء عام ١٩٨٩ ويتكونون من أكثر من ثلاثين قومية أهمها كالآتي:

التركمان	٦٨,٤٪
الروس	١٢,٦٪
الأوزبك	٨,٥٪
القازاق	٣,٠٪
التتار	١,٥٪
الآذاريون	١,٠٪
أوكرانيون	١,٠٪
آخرون	٤,٠٪

كما أن سكان مدينة عشق آباد عاصمة تركمانستان بلغ عددهم ٣٩٩,٢٩٦ نسمة بموجب إحصاء عام ١٩٨٩ ويتكونون من القوميات التالية:

تركمان	٢٢٢٩٤٣	٪٥٠,٨
روس	١٢٩٥٠٧	٪٣٢,٤
أرمن	١٨٢٣٤	٪٤,٦
أوكرانيون	١٠٩٣٦	٪٢,٧
آذاريون	٩٨٩٦	٪٢,٥
تتار	٧١٧٤	٪١,٨
أوزبك	٣٨١٣	٪١,٠
قازاق	٢٦٠٩	٪٠,٧
الروس البيض	٢٠٨٤	٪٠,٥
آخرون	١٢١	٪٣,٠

وفي إحصاء عام ١٩٨٩ بلغ جملة عدد التركمان في رابطة الدول المستقلة ٢٧٢٨٩٦٥ نسمة منهم ١٩٢٣٥٩ تركمانستاني أي ما يعادل ٧٪ من إجمالي التركمان في جمهوريات أوزبكستان وتاجيكستان ومنطقة القفقاس. كما توجد قبائل التركمان من تركمانستان في كل من:

١ ـ أفغانستان في شمال غربها حيث يقدر عددهم بحوالى ٢٥٠٠٠٠ نسمة.

٢ ـ إيران في مقاطعة خراسان بحوالى ٧٥٠٠٠٠ نسمة.

٣ ـ العراق في شمالها حوالى نصف مليون نسمة.

٤ ـ تركيا في شرقها ما يصل إلى مليون نسمة.

٥ ـ سوريا في شمالها الشرقي أكثر من مائة ألف نسمة.

من هم التركمان؟

يعود ظهور اسم تركمان إلى القرون الأولى لانتشار الإسلام في آسيا الوسطى واستعمله المؤرخون والجغرافيون المسلمون منذ القرن الخامس الهجري مثل المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم والكرويزي في كتابه زين الأخبار.

واختلف المؤرخون في تفسير كلمة تركمان فمنهم من رأى أنها كلمة مركبة من ترك بانند يعني أشباه الترك وبعضهم رأى أنها من ترك إيمان يعني الترك المؤمنين. وآخرون يرون أنها «ترك مان» يعني «أنا تركي».

وكما حدث اختلاف في اشتقاق الاسم فهناك خلاف في تحديد أصول قبائل التركمان حيث يشير بعض الباحثين إلى أنهم من قبيلة قاولوق التي كانت تحكم الجزء الشرقي من سرداريا وهو نهر سيحون، ثم هاجرت نحو الغرب ولكن الدكتور زكي وليدي دوغان يؤكد بأن أكثر قبائل التركمان ينتمي إلى الأغوز وهم الغز وقد عدد رشيد الدين الهمداني ٢٤ قبيلة منهم بينما ذكر محمود الكاشغري ٢٢ قبيلة وقال إن قبيلتين منهم انفصلتا عن باقي القبائل قبل الإسلام.

وكان بعض قبائل الأغوز يستوطن حوض نهر جيحون أموداريا من قبل الميلاد ومن بقاياهم قبيلة ساكار أوغلي التي ذكرها سترابون باسم ساكاراول Sakaraul وإبان الفتوحات العربية كان الأغوز ينزلون في قيزيل غرمات، أغورجا، بلقان، قيزيل سو، ديهستان، وغوركن في تركمانستان. وخلال الحكم العربي كان الغز يستوطنون أطراف غزنه وغوز في حوض نهر هري رود.

وكان التركمان يعملون على تزويد مدن خراسان بالأغنام والخيل بينما كان الولاة يأخذون أبناءهم أرقاء يبعثون بهم إلى بلاط الخلافة الإسلامية في دمشق وبغداد ولم يطغ اسم التركمان على الغز أو الأغوز إلا في أواخر عهد المغول.

وضمن القبائل والعشائر التركمانية توجد مجموعة من القبائل العربية التي تتركت أي أصبحت تركية، منها:

١ ـ قبيلة عطا بالقرب من مدينة جهار جوي في شرق تركمانستان.

٢ ـ قبيلة حجة في شمال غرب تركمانستان.

٣ ـ قبيلة السيد حول خليج قزابوغاز في جنوب غرب تركمانستان.

٤ ـ قبيلة الشيخ في شمال غرب تركمانستان.

ومما يؤيد عروبة هذه القبائل، وربما انتساب بعضها إلى النسب النبوي الشريف أن بلادها كانت موطن الدولة العلوية التي ظهرت بعد مقتل الإمام زيد بن علي وابنه في عهد العباسيين.

تاريخ تركمانستان:

أكدت الإكتشافات الأثرية أن تركمانستان كانت مهداً لحضارات إنسانية قديمة فالبعثة الأمريكية التي قامت بالتنقيب في موقع أناو قرب عشق أباد وجدت آثاراً تاريخية تعود إلى الألف التاسع قبل الميلاد. كما وجد بقايا الإنسان الحجري في كهوف أوبال وفيما بين ٦٠٠٠ـ٥٠٠٠ق.م انتشرت حضارة رعاة البقر المستوطنين والمزارعين في سفوح جبال كوپت داغ في تركمانيا.

وفي العهد البرونزي فيما بين ٤٠٠٠ـ٢٠٠٠ق.م انتشرت الزراعة، بل كان لهم نظام للري. وهنا أيضاً تم اكتشاف أقدم بقايا محاولة الإنسان لزراعة الحبوب.

وفي الألف الرابع قبل الميلاد ظهرت أوائل المستوطنات الإنسانية الكبيرة التي لها بيوت تضم عدة غرف كما ظهر في آثار التين تبه. وهذه المستوطنات كانت مشهورة بمصنوعاتها الفخارية الجميلة وصناعاتها الدقيقة من النحاس والبرونز والرصاص وكذلك بعرباتها. وفي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد كان استعمال الحديد شائعاً فيها.

وإلى أوائل الألف الأول قبل الميلاد كانت تركمانستان ضمن أملاك دولة ساكا التي يسميها اليونانيون اسكيذ وقد أدت حروب هذه الدولة مع الفرس إلى زحف للأقوام الإيرانية نحو الشمال والشرق.

وفي القرن السادس قبل الميلاد ألحقها الأخميديون بإمبراطورية فارس. ثم غزاها الإسكندر المقدوني في عام ٣٢٧ق.م. وفي أواسط القرن الثالث قبل الميلاد تأسست فيها دولة پارفيا Parfia وكانت عاصمتها في نيسادا Nisada ولكن الدولة الساسانية قضت عليها واستولت على جنوب تركمانستان في ٢٢٤ق.م بينما أسس أتراك الهون القادمون إليها من الشرق دولة هفتاليت Ephtalites التي عرفت في المصادر العربية باسم الهياطلة، وفي القرن السادس الميلادي أقام الترك دولتهم التي عرفت باسم كوك تورك.

وإبان الفتوحات العربية كان أكثر أراضي تركمانستان ضمن ولاية خراسان وكانت مرو التي أصبحت مدينة خامدة في تركمانستان حالياً هي مروالشاهجان قصبة ولاية خراسان وقد فتحها الأحنف بن قيس عام ٢٢هـ/ ٦٤٤م. ومن ثم عدت قاعدة حربية ومركز إمارة خلال الحكم العربي وقد استقر كثير من العرب في ولاية خراسان.

وفي أواخر القرن الهجري الأول كان أكثر سكان خراسان عرباً إذ قدر عدد المقاتلين العرب في حدود مائة ألف مقاتل وقدر عدد العرب من المقاتلين وعيالهم بحوالى نصف مليون نسمة وكانت قبيلة بني تميم أكبر قبيلة عربية هناك يليها الأزد في الضخامة والكبر. وبالإضافة إلى هاتين القبيلتين كانت هناك قبائل من بكر وعبد القيس.

ومع بداية الحكم الأموي جرت محاولات للإستقلال بولاية خراسان فقدم إليها الإمام يحيى بن زيد بن علي زين العابدين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فالتف حوله الزيدية وبايعوه إماماً ولكنه قتل عام ١٢٥هـ ثم تجددت حركة الزيدية في ولايات طبرستان وبرجان والديلم.

وفي عهد الخلافة العباسية دخلت تركمانستان في سيادة الدولة الطاهرية التي أسسها طاهر بن الحسين عام ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م وتلتها الدولة الصفارية التي أقامها يعقوب بن الليث الصفار من أفراد المتطوعة، وقد زحف بجيشه إلى نيسابور وقبض على محمد بن طاهر وضم خراسان إلى ملكه عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م.

ثم أقام السامانيون على أنقاض الدولة الصفارية دولتهم في خراسان وما وراء النهر فيما بين ٢٦١-٣٨٩هـ (٨٧٣-٩٩٩م) ثم جاء السلاجقة وهم جماعة من أتراك الغز أو الأغوز مؤسسين لدولتهم التي اتخذت (مرو) حاضرة لها واستمرت إلى عام ١١٥٧م وأدى الحكم السلجوقي إلى دعم الكيان التركماني الموجود في تركمانستان في ذلك العصر.

ومع أن قبائل الأوغوز احتلت مرو عام ١١٥٧م إلا أن تركمانستان ضمت إلى دولة خوارزمشاه التي تأسست في أوركنج في خوارزم عام ١١٩٣م ثم اجتاحها جنكيز خان بجحافله عام ١٢٢٠ وانتهى الحكم المغولي إلى وقوع تركمانستان في حكم دولة التون أورده ثم إلى سلطة الجغتائيين ولكن تيمورلنك ضمها إلى ملكه عام ١٤٧٠م وبعد انهيار أمبراطورية تيمورلنك تقاسمتها خانية خيوه وإمارة بخارى مع نزعة قبائل التركمان للإستقلال والحرية ومحاولات الإيرانيين لغزو تركمانستان واحتلالها.

الحكم الروسي:

بعد أن أحكم الروس قبضتهم على خانية خيوه أنشأت الحكومة الروسية قاعدة عسكرية لساحل بحر قزوين وجعلت مركزها في قزيل سو (كراسنو فواسدك) في ٩ مارس ١٨٧٤ ثم توجهت بغزواتها العسكرية نحو التركمان. ولما تم لها إخضاع قبائل اليامود التي كانت ضمن دولة خانية خيوه توجهت نحو قبائل تركمان تيكه ولكن الجنرال الروسي لوماكين لم ينجح في حروبه المتفرقة ضدهم التي استمرت إلى عام ١٨٧٩. وقد منيت القوات الروسية بهزيمة منكرة في الهجوم الذي شنته على كوك تبه عام ١٨٧٩.

واضطرت القيادة الروسية إلى تكليف الجنرال م.د. سكوبيليف M.D. Skobelev بتولي قيادة القوات الروسية التي حاصرت قلعة كوك تبه أكثر من ١٥ يوماً وفي ١٤ يناير ١٨٨١ سقطت كوك تبه بعد أن استشهد ٦٥٠٠ مجاهد تركماني و٢٨٠٠٠ من الأطفال والنساء وكبار السن من الموجودين في داخل قلعة كوك تيه كما أن الجيش الروسي الذي دخلها نهب الأملاك والأموال حيث بلغت الأموال النقدية حوالى ٦ ملايين روبل. ولما أبلغ الممثل الروسي المقيم في طهران شاه نصر الدين ملك إيران بسقوط كوك تبه في يدي روسيا أعرب له الشاه عن تهنئته لروسيا. وفي ٩ ديسمبر ١٨٨١ جرى إبرام إتفاقية بين روسيا وإيران على تحديد الحدود بينهما حيث تم الإتفاق على أن يكون نهر اترك حداً فاصلاً بينهما.

ثم توجه الروس إلى عشق أباد في ١٧ يناير ١٨٨١ وحوض نهر تزهان في ٤ فبراير ١٨٨١ وبعد ذلك غدت مدينة مرو هدف الجيش الروسي، ولكن تخوف روسيا من الإعتراض الإنجليزي جعلتها تتخذ أسلوب الخداع مع أهالي مرو. وفي ٣١ يناير ١٨٨٤ وقعت روسيا مع مندوبي مدينة مرو معاهدة تقرر بموجبها ترك خانات التركمان على حريتهم مع تعيين أحد القواد الروس للإشراف عليهم ولكن القوات الروسية زحفت إليها واحتلتها في ١٤ مارس ١٨٨٤. وفي ٦ أغسطس ١٨٨٧ صدر مرسوم قيصري بضم الأراضي التي مركزها بيرام علي في الضفة اليسرى لنهر مورغاب إلى أملاك القيصر نفسه وجعلها تحت إشراف الجيش الروسي وإرسال عائداتها إلى خزينته الخاصة.

وفي ٦ فبراير ١٨٩٠ جعلت خيوه ومناطق التركمان ولاية باسم ولاية ساحل بحر قزوين وربطت إدارياً بوزارة الحربية الروسية وكان واليها على صلة تامة دبلوماسياً بالممثليات الروسية في طهران ومشهد في إيران وبالإدارة السياسية في بخارى وفي ٢٦ ديسمبر ١٨٩٧ ألحقت بإدارة الوالي العام لتركستان.

وإبان الإضطرابات التي عمت روسيا على أثر الثورة الشيوعية عام

١٩١٧ حاول محمد قربان جنيد خان وهو من التركمان الإستقلال بخانية خيوه في فبراير ١٩١٨ كما أعلن أورازسروار إستقلال التركمان في عشق أباد بيد أن الجيش الأحمر الروسي بقيادة الجنرال فرونزه احتل خيوه في فبراير ١٩١٩ ثم عشق أباد ٩ يوليه ١٩١٩ وكراسنوفود سدك في ٦ فبراير ١٩٢٠ وألحقت بجمهورية تركستان الإشتراكية السوفييتية الذاتية الحكم التي أسسها الشيوعيون في طشقند في ١٥ نوفمبر ١٩١٧.

ورغم محاولة الوطنيين التركستانيين لإستقلال بلادهم داخلياً وحفظ وحدتها إلا أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي قررت إلغاء جمهورية تركستان السوفييتية الذاتية الحكم وإنشاء جمهوريات سوفييتية إشتراكية لبلاد القازاق والقرغيز والأوزبك والتاجيك والتركمان داخل نطاق جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية في ١٨/ ١/ ١٩٢٤ وبناءاً على ذلك تأسست جمهورية تركمانستان الإشتراكية السوفييتية في ٢٧ أكتوبر ١٩٢٤.

وهذه الجمهورية التي أحدثها الشيوعيون الروس ضمت في حدودها التي رسمت لها ولاية ساحل بحر قزوين ومناطق عشق أباد وكراسنوفودسك وتزهن ومرو وألحقت بها منطقتا أوركنج وتاش حوض من خانية خيوه (خوارزم) ومنطقتا جارجوي وكركي من إمارة بخارى.

ومع التغيرات التي ضربت الإتحاد السوفييتي وأدت إلى انهيار النظام الشيوعي بدل جهاز الحزب الشيوعي الذي يرأسه صقر مراد نيازوف منذ عام ١٩٨٥ ويحكم تركمانستان باسمه إلى الحزب الديمقراطي التركمانستاني وفي ٢٦ اكتوبر ١٩٩١ تم إجراء تصويت برلماني لاستقلال تركمانستان وكانت نتيجته تصويت ٩٤٪ من الأعضاء لصالح الإستقلال الذي أعلن عنه رسمياً في ٢٧ اكتوبر ١٩٩١. وهكذا استقلت تركمانستان بعد ٦٧ عاماً من تأسيسها من الحكم السوفييتي.

وبرلمان تركمانستان الحالي قد تم انتخاب أعضائه البالغ عددهم ١٧٥ عضواً في يناير ١٩٩٠ وهو الذي انتخب صقر مراد نيازوف رئيساً

بتصويت بلغت نسبته ٩٨٪ من جملة أصوات البرلمان في اكتوبر ١٩٩٠. وهذا التواجد الكثيف لأفراد الحزب الشيوعي السابق في برلمان تركمانستان وحكومته دفع بالمواطنين إلى تشكيل أحزاب سياسية مستقلة ومن أهمها الجبهة الديمقراطية ويرأسها محمد دوردي مراد وحركة الإتحاد التي تعرف محلياً باسم أغيزبرليكي Agizbirligi ويتزعمها الأديب محمد ولي صفر.

اللغة التركمانية:

تنتمي اللهجة التركمانية إلى لغة الأغوز التركية ولم تكن التركمانية لغة الأدب والعلم إلا في عهد الحكم السوفييتي. بل كانت اللغة الجغتائية هي السائدة في ميادين العلم والأدب في عموم تركستان حتى العقود الأولى من القرن العشرين. وبعد أن تم تشكيل جمهورية خاصة باسم تركمانستان قام السوفييت بتشكيل لغة تركمانية أدبية مبنية على لهجتي قبائل تكّه ويامود وهما أكبر القبائل التركمانية. وهذه اللغة التركمانية التي ظهرت في عام ١٩٢٣ استخدمت الأبجدية العربية ثم تحولت إلى الأبجدية اللاتينية عام ١٩٢٩ ومنها إلى الأبجدية السلافية عام ١٩٤٠.

ومع ذلك كانت اللغة التركمانية تستعمل في المدارس الإبتدائية والثانوية، أما في الجامعات والمعاهد العلمية والمعاملات الرسمية فكانت اللغة الروسية هي السائدة إلى أن أعلن البرلمان التركمانستاني فرض التركمانية لغة رسمية في البلاد في ٢٤ مايو ١٩٩٠.

ومع هذا فاللغات الروسية والأوزبكية والقازاقية لا تزال تستعمل في المدارس الخاصة بتلك القوميات، كما أن الإذاعة والتلفاز التركمانستاني تبث برامجها باللغتين التركمانية والروسية.

ومن أقدم الصحف جريدة تركمانستان التي تصدر في تركمانستان منذ عام ١٩٢٠. وهناك أيضاً تركمانستان ياشلاري (شباب تركمانستان) ومجلة الأدب التركماني (تركمان أدبياتي).

وقد تأسست جامعة عشق آباد في عام ١٩٥٠ وأكاديمية العلوم لجمهورية تركمانستان عام ١٩٥١، ويوجد ٥٦ معهداً متخصصاً مثل معهد إعداد المعلمين والمعهد الزراعي. وفي عام ١٩٩٠ قدر عدد الطلاب بنحو ٨٠٠ ألف طالب ومنهم مائة ألف طالب في المعاهد والجامعات.

ويتكلم اللغة التركمانية ٧٤,٥٪، واللغة الروسية ٣٦,٦٪ من جملة سكان تركمانستان و٢,٥٪ من المستوطنين الروس فقط يعرفون اللغة التركمانية.

النشاط الإسلامي:

دخل الإسلام إلى تركمانستان مع قدوم الفتح العربي إلى مدينة مرو الشاهجان في عام ٢٢هـ/ ٦٤٤م، ومنذ ذلك التاريخ كانت تركمانستان جزءاً من العالم الإسلامي الذي أسهم أبناؤها المسلمون بقسط وافر من بناء حضارته وثقافته التليدة ومن أعلامها العظام الإمام النسائي صاحب السنن الكبرى وهو من مدينة نسا وشمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي صاحب كتاب المبسوط من مدينة سرخس والإمام أحمد بن حنبل من مدينة مرو، والإمام أبو بكر أحمد بن حسين بن علي البيهقي من بيهق وعبد الله بن حماد بن أيوب الآملي من أئمة الحديث من مدينة آمل. والإمام جار الله محمود الزمخشري من مدينة زمخشر وهناك عشرات غيرهم من تلك المدن التي ذكرت من قبل، ومما لم يذكر مثل مدن ابيورد وغيرها.

بيد أن الحكم الروسي وما فرضه من نظام شيوعي يهدف إلى محاربة الإسلام ويعمل على طمس معالمه وقطع صلة الأبناء بأمجاد الأجداد تمكن بالبطش والإرهاب من قتل العلماء ومصادرة الكتب الإسلامية وإغلاق المدارس والمساجد وقد كان عددها في بوادي التركمان أكثر من خمسمائة مسجد قبل الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ ولم يبق الشيوعيون منها إلا خمسة والبقية تحولت إلى مرائب ومخازن.

ولم يكن هناك مسجد في عشق آباد عاصمة تركمانستان إلى عهد قريب بيد أن المسلمين بعد حصولهم على قسط من حريتهم الدينية ثم انهيار النظام الشيوعي نشطوا في العمل على استعادة الهوية الإسلامية وترميم وإصلاح وبناء المساجد واليوم في عشق آباد وحدها أكثر من خمسة مساجد وفي مدينة تاش حوض حيث مقر الإدارة الدينية التي يرأسها الشيخ نصر الله بن عباد الله قاضي تركمانستان ما يزيد على عشرة مساجد بالإضافة إلى معهد إسلامي باسم مدرسة الإمام محمود الزمخشري.

وتبلغ نسبة المسلمين ٨٥٪ من جملة سكان تركمانستان والتركمان هم من أهل السنة والجماعة على مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله، وهناك جاليات من المهاجرين الأذربيجانيين الشيعة. كما أن بعض الطرق الصوفية توجد بين المسلمين وخاصة بين القبائل.

الوضع الإقتصادي:

يتنوع إقتصاد تركمانستان تنوعاً جيداً وتعتبر الزراعة والرعي من الحرف الرئيسية إذ يعمل أكثر من ٤٨٪ من سكان تركمانستان في الزراعة والرعي، والقطن هو الغلة الرئيسية إذ يحتل المرتبة الثانية ويصل الإنتاج السنوي منه ٤٥٠ ألف طن سنوياً، إلى جانب ١٢٠ ألف طن من القمح و٢٤ ألف طن من الذرة.

وقد أدى الإستهلاك لمياه نهر جيحون التي تم سحبها بالقنوات لري الأراضي الصحراوية إلى انخفاض مياه بحيرة آرال بما يزيد عن ستة أمتار كما أدى إلى تلوث التربة وتسممها مما أدى إلى ارتفاع نسبة وفاة المواليد إذ بلغت ٥٣ طفلاً في الألف في عام ١٩٨٨.

ولا تزال قبائل التركمان وهي شبه رعوية تقوم برعي الإبل والخيول والأغنام التي بلغ عددها أكثر من أربعة ملايين رأس ويقومون بتربية نوع خاص من الأغنام لإنتاج نوع خاص من فراء الحملان مشهور باسم قراقول. كما يشتغل التركمان بصناعة السجاد الفاخر من الصوف.

وأما الثروة المعدنية فهي البترول الذي يبلغ إنتاجه أكثر من خمسة ملايين طن وبالغاز الطبيعي تحتل تركمانستان المرتبة الثالثة في رابطة الدول المستقلة، كما يوجد في أراضيها الرصاص والزنك والنحاس وصوديوم السلفات الطبيعي.

وفي تركمانستان تقوم الصناعة على استخلاص الغاز الطبيعي والبترول ومشتقاتهما والبتروكيماويات والزيوت النباتية والزجاج والنسيج، وتتكون صادراتها من البترول والغاز الطبيعي والخامات اللازمة للصناعات الخفيفة التي تبلغ أكثر من ٨٠٪ من إجمالي صادرات تركمانستان. كما تستورد المواد الغذائية والأجهزة والآلات ومواد البناء والأخشاب.

وقد بلغت جملة الدخل الوطني لتركمانستان ١١,٨ بليون دولار ودخل الفرد هو ٣٣٧٠ دولاراً عام ١٩٩٠.

يوم الاثنين ٢/ ١١/ ١٤١٢هـ ـ ٤/ ٥/ ١٩٩٢م:

من طشقند إلى عشق آباد:

كان نزولنا إلى مطعم الفندق في طشقند مبكراً في السابعة وموعد طعام الإفطار في المعتاد عندهم يكون من الثامنة إلى العاشرة.

وخرجنا فوراً إلى المطار لكون المقرر أن تقوم الطائرة في السابعة والنصف وعندما وصلنا المطار تبين لنا أن ساعته هي على توقيت موسكو ويتأخر ساعتين عن توقيت طشقند في هذا الفصل من السنة فالسابعة والنصف بتوقيت موسكو هي التاسعة والنصف بتوقيت طشقند.

وهذا أمر حدث معنا من قبل في مطار مدينة (أوش) في (قيرغيزستان) وهو عجب من العجب إذ كيف تتبع دولة مستقلة توقيت عاصمة دولة أخرى على حين أننا نرى بعض الدول يكون توقيت البلدان داخلها هو توقيت غير توقيت عاصمتها ولا ترى بأساً في ذلك كالولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل.

ودخلنا قاعة الترحيل دون تفتيش الحقائب، وكذلك فعلوا قبل الصعود للطائرة لم يفتشوا حقائبنا على خلاف عادتهم، وحجتهم في هذا أن الآلة الكهربائية فيها عطب يمنعها من العمل. وحتى الركاب لم يكن عددهم كبيراً في المطار هذا الصباح.

وعندما حان موعد الخروج إلى الطائرة وكنا فضلنا ألا ندخل إلى

قاعة كبار الزوار بل نبقى مع المسافرين في القاعة المعتادة نقلونا في حافلة كبيرة مع ركاب أجانب ليسوا ركاباً من طائرتنا فحسب وإنما هم ركاب كانوا ذاهبين إلى مدينة (كالين قراد) وهم مسافرون على طائرة أخرى بطبيعة الحال فقامت الحافلة وفيها مضيفة أرضية وموظف من المطار بتوزيع ركاب الطائرتين عليهما. ولم يكن معنا من المواطنين الركاب أحد، إلا مرافقنا الذي انضم إلينا في هذه الرحلة وهو أخونا الشيخ (زاهد جان عبد القادر) نائب مدير الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر الذي سيذهب معنا في جولتنا في جمهورية تركمانستان.

وقد ركبنا الطائرة وأخذنا مقاعدنا فيها قبل صعود المواطنين.

وقد ذكرت بهذه المناسبة مناسبة نقل ركاب طائرة بحافلة واحدة مرة حدثت في مطار مدينة (كادونا) في شمال نيجيريا حيث أنجزوا أوراق الركاب المغادرين وصفوهم صفاً وكنا بينهم أمام موقف الطائرة في ساحة وقوف الطائرات في المطار، توفيراً للوقت، وعندما وصلت الطائرة وهي من طراز ٧٣٧ ولكنها كانت مليئة نزل الركاب منها فاختلطوا بالركاب المغادرين الذين كانوا قد سارعوا إلى الصعود إلى الطائرة قبل أن يكتمل نزول الواصلين.

وتأملت الركاب في هذه الطائرة عندما اكتمل ركوبهم فيها، فإذا بهم مختلطون ما بين روس وتركستانيين من الذين نسميهم في بلادنا بخاريين وهم سكان هذه البلاد التي كانت تسمى في القديم (ما وراء النهر) وفي العصر الحديث سماها الروس (آسيا الوسطى) وإن كانت تسميتهم هذه واسعة فضفاضة.

ولاحظت أن الخصائص التركية القديمة أقل في وجوههم منها في وجوه القرغيز الذين وصلت البارحة من بلادهم فأولئك تظهر فيهم خصائص الجنس التركي الأصيل أكثر من هؤلاء. إذ هؤلاء الأوزبكيون

أقرب إلى التقاسيم العربية من أولئك وإن كانوا كلهم أقرب إلى المظهر العربي من الصينيين ومن المغول بكثير.

إلى عشق آباد:

كانوا قد أخبرونا أننا سنسافر على خطوط تركمانستان الجوية، إلا أننا وجدنا الطائرة هي طائرة مؤسسة الطيران السوفييتية (ايروفلوت) عليها شعارها واسمها لم يغير منه شيء رغم ما أكدوه لنا من أن (تركمانستان) تفعل فعل الجمهوريات الأخرى التي استقلت عن الإتحاد السوفييتي في كونها أخذت حقها من طائرات (ايروفلوت) ولكنها لم تغير فيها حتى كتابة الاسم والشعار.

والطائرة من طراز توبوليف ١٣٤، وهي نفاثة تحمل ١٢٠ راكباً، وهذه الطائرة بالذات جيدة التنجيد، نظيفة المقاعد ولم يشغل الركاب فيها إلا نصف مقاعدها.

وأعلنوا باللغة الروسية وحدها أن مدة الطيران من طشقند إلى (عشق آباد) ستكون ساعتين اثنتين ولم يعلنوا معها بلغة أخرى مع أن الطائرة تطير بين جمهوريتين مستقلتين غير روسيتين ولغة كل واحدة منهما وهي الأوزبكية، والتركمانية قريبة من الأخرى فهما متفرعتان من اللغة التركية القديمة، ولذلك يفهم كل فريق من أهلها الفريق الآخر على اختلاف بينهما في اللهجة والنطق ببعض الكلمات والإصطلاحات.

ولكن الذي جعلهم يكتفون بالروسية هو أن اللغة الروسية كانت هي لغة التعليم ويعرفها كل المتعلمين في البلاد وأكثر أهل البلاد قد نالوا قسطاً من التعليم.

ومع ذلك فإنني رأيت أنه ليس من اللائق أن يبقوا مثل هذه الطائرة التي ذكروا أنها تابعة لخطوط بلادهم، دون كتابة تدل على أنها لهم أو

دون أي شعار يدل على ملكيتها لبلادهم، بل إن الكتابة التي عليها الآن تدل على أنها لقوم آخرين غيرهم.

كما أنني لم أستسغ أن يخلو الإعلان في الطائرة من إحدى اللغتين اللتين يتكلم بهما بلدا المغادرة والوصول.

أقلعت الطائرة في التاسعة والربع، وفيها مضيفات عابسات كما هي العادة وهن من الروسيات فيما يظهر من أمرهن. فليس من عادتهن مجاملة الركاب بابتسامة عمل أو لنسمها الإبتسامة المصلحية التي تسارع المضيفات الغربيات بها.

وحالما أقلعت الطائرة اتجهت الإتجاه الصحيح وهو جهة الجنوب الغربي إلى (عشق آباد) وكان الجو صحواً لحسن حظنا. وقد أخبرنا أن (عشق آباد) هي أكثر دفئاً من طشقند على حين أن طشقند هي أكثر دفئاً من بشكك عاصمة (قيرغيزستان).

واتضح منظر الأرض تحتنا أقل خضرة من منطقة طشقند ومن قيرغيزستان، إذ هناك وديان ومجارٍ جافة من مجاري المياه، وبدت الحقول ضيقة والأعشاب البرية أقل خضرة.

وجاء الخيال يقول: لا عجب أن تكون هذه المنطقة هي أقل خضرة وأكثر جفافاً فهي أقرب إلى بلادنا وإن كان قربها نسبياً لا يقربها منها فإنه يكفي أن نكون الآن نطير باتجاه الجنوب الغربي وهو الجهة التي يتجه إلينا من يذهب إلى بلادنا، أو لنقل بعبارة أخرى: إنها جهة القبلة فهذا هو اتجاه القبلة عندهم.

فوق نهر جيحون:

ولكن الخيال كان قد نسي أو تناسى أننا سنمر بنهر جيحون أحد الأنهار الأربعة التي ورد فيها أثر من الأنهار وهي سيحون وجيحون والنيل والفرات. أما النيل والفرات فهما العربيان المعروفان، وأما جيحون فإنه

الذي يسمى عند أهل هذه البلاد في الوقت الحاضر (أموداريا) ويؤلف جزء منه الحدود بين هذه البلاد وبين أفغانستان، وبه سمى المؤرخون الأولون من بني قومنا هذه المنطقة ببلاد ما وراء النهر وهم يقصدون نهر جيحون هذا بالذات.

وأما سيحون فإنهم يسمونه الآن (سرداريا) وسر: هي الكلمة العربية: ضد جهر. و(داريا) نهر بلغتهم فهو إذاً معناه: نهر السر أو النهر السري، وسوف نقف عليه وقوفاً عند عودتنا إلى أوزبكستان بعد إكمال زيارتنا إلى تركمانستان بإذن الله.

استمر نهر جيحون يبارينا فهو يمشي ونحن نطير ولم نقل يسايرنا، أو يماشينا، لأنه لا يسايرك أو يماشيك إلا من يكون يمشي وتكون أنت تمشي مثله، وقد كثرت القرى واتسعت الحقول حوله وتكاثفت الخضرة. وكثرت الأراضي التي كانت قد زرعت، وحرثها أهلها وتركوها لتخصبها الشمس تمهيداً لزراعتها مرة أخرى.

وربما كانت أكثر هذه الحقول من حقول القطن التي تشتهر بها هذه المنطقة من تركستان أو لنقل إذا أردنا التقيد بالاسم الرسمي السياسي إنها من أرض أوزبكستان وهي منطقة مشهورة بإنتاج القطن أكثر من غيرها من الأراضي التي كانت داخلة في الإتحاد السوفييتي.

وتنتشر في هذا الريف القرى الصغيرة مع أن الحقول الواسعة هي حكومية لا يقوى على زراعتها غير الحكومة والجمعيات التعاونية شبه الحكومية وتبدو أكثر تلك القرى من الطائرة غبراء اللون في مثل الأرض فكأنها مبنية من الطين مثلها مثل أكثر البيوت القروية في المنطقة التي لا زال بعضها يبنى بالطين حتى الآن.

ثم شاهدنا قناة ضخمة منطلقة من نهر جيحون ربما تكون هي القناة الطويلة الشهيرة الذاهبة من هذا النهر إلى تركمانستان، وعلى ضفتها زراعة كثيفة.

لا مكان للضيافة:

لم أعجب عندما عرفت أن ضيافتهم لهذا الطيران الذي سيستغرق ساعتين إنما هي كأس وحيدة غير مترعة من الماء. فهذه عادة لهم عرفتها من طائرات هذه الشركة منذ سنوات، فهم لا يقدمون لركابهم طعاماً في الرحلات الداخلية التي تقل مدتها عن ثلاث ساعات. ولكن عجبي كان عندما أردت الكتابة على المائدة التي تكون أمام الراكب في ظهر المقعد فلم أر لها أثراً مطلقاً، وهذا عجيب، فقلت: ربما كان هذا قد صادف عدم وجودها عندي فوجدت أن مقاعد الطائرة كلها ليس في ظهورها موائد للأكل، ولا في جوانبها كما يكون في الطائرات الحديثة، فاستفسرت عن ذلك من رفيقنا الشيخ (زاهد جان) فقال: هذه معدة للرحلات الداخلية التي لا تقدم فيها وجبات للطعام فلمَ تكون هناك مائدة للطعام لا تستعمل؟

ولكن الشيء الجيد عندهم هو ما عرفناه عنهم من كونهم لا يسمحون بالتدخين خلال هذه الرحلات، ولا يقدمون خموراً أو مشروباً كحولياً. بل لا يسمحون لمن أحضرها معه أن يتناولها في الطائرة، لذلك ليست فيها منطقة للمدخنين، وأخرى لغير المدخنين، وبالنتيجة ليست فيها تعليمات تتعلق بالتدخين وحتى بالنسبة إلى أنواع الإرشادات والتعليمات الأخرى هي غير موجودة فلا صحف ولا أوراق توضيحية تتعلق بنوع الطائرة مثلاً ولا مجلة تصدرها هذه المؤسسة تكون في جيوب المقاعد أمام الركاب كما تفعل شركات الطيران في العالم الحر في اقتصاده.

فوق الصحراء:

وصلت الطائرة إلى منطقة جبلية جرداء لا يختلف منظر الجبال فيها عن منظر الجبال في الصحراء الخالصة التي تنتشر فيها مجاري الوديان الجافة.

ومن الأمور السيئة في هذه المؤسسة التي كانت شيوعية أنهم لا

يوفرون للراكب أية معلومات لا من مكبر الطائرة ولا من غيرها مما يتعلق بخط سير الرحلة والمناطق التي تمر بها. فلو كانت فيها خارطة موضحاً عليها خط سيرها التي تسلكه لاهتدينا إلى بعض ما نريد معرفته.

غير أننا نعرف من معلوماتنا الخاصة السابقة، ومما يعرفه إخواننا المرافقون من أهل هذه المنطقة، وهو قليل أننا سنمر فوق منطقة صحراوية واسعة تؤلف جزءاً من أراضي جمهورية تركمانستان التي هي في مجملها ذات أراضٍ صحراوية إلا ما انتفع منها بالقناة الضخمة الممدودة من نهر جيحون، وما كان في مواضع تنزل عليها ثلوج تمسك بها الجبال فتصير كالينابيع في الصيف وهي قليلة.

ومررنا فوق سد على وادٍ في الصحراء خلفه بحيرة من الماء المجتمع الذي أظنه من مياه الأمطار، وتحف بهذا السد جبال عديدة تمنع مياهه من التسرب.

وقد استمتعت برؤية هذه الأرض المسلمة، لأن الجو كان صاحياً تماماً فكانت كل المناظر واضحة من الطائرة وليس في السماء قزعة من غيم.

ثم رأينا وادياً صحراوياً ضخم المجرى، إلا أنه جاف ليست فيه إلا بقايا مياه مما أسالها المطر وسط رمال في مجراه كما تكون الرمال في مجاري الوديان الضخمة في بلادنا الصحراوية.

هذا وقد ساعد على استيعاب هذه المناظر هدوء شامل في الطائرة إذ محركاتها رتيبة رتابة المناظر في هذه الصحراء التي نطير فوقها، وليس هنا موسيقى ولا إعلانات من مكبر الطائرة والركاب لا يحملون في العادة كتباً أو خرائط ينظرون فيها كما يفعل الغربيون. لذلك نام الركاب أو أكثرهم، وما رأيت أكثر هدوءاً في الجو من هذه الطائرات النفاثة الروسية إذا استوت في الجو، فهي أكثر هدوءاً من الطائرات الغربية التي تنتجها الشركات الرئيسية مثل بوينغ ودوجلاس وغيرهما. ولقد سألت بعض العارفين بالأمر

عن السبب الذي يمنع الغربيين من أن يجعلوا طائراتهم المدنية تكون في هدوء هذه الطائرات الروسية فذكر أنهم يستطيعون ذلك ولكنهم لا يفعلونه لأنه يجعل طائراتهم تنفق وقوداً أكثر مما يزيد في نفقات تشغيل الطائرات، قال: والطائرات السوفييتية محركاتها النفاثة أكبر وأكثر ضخامة من المحركات النفاثة التي في الطائرات الغربية التي تحمل عدداً من الركاب والأمتعة مماثلاً لما تحمله.

وذلك لكون مؤسسة الطيران السوفييتي ليست شركة تجارية فهي لا تنشد الربح من تشغيلها وإنما المقصود من ذلك هو خدمة الإتصال بين المدن والجمهوريات المتباعدة في البلاد لأن الحكومة السوفييتية تريد ذلك.

ولشيء آخر وهو أن الوقود من وقود الطائرات وغيرها متوفر في الإتحاد السوفييتي ينتجه من بلاده ويزيد ما ينتجه عن حاجته فيرسله للتصدير كما هو معروف.

وهذا هو سر هدوء هذه الطائرات في الجو وهو قوة محركاتها بالنسبة إلى حجمها وحمولتها.

الرمال السود:

كلما أمعنت الطائرة في سيرها زاد اتساع الصحراء في نظرنا وازداد جدبها، وإن شئت قلت: تأكدت عراقتها في الطبيعة الصحراوية.

ولا غرو في ذلك فهي الصحراء الواسعة المشهورة واسمها (قرا قوم) ومعناها: الرمل الأسود، لأن (قرا) معناها: أسود، وقوم: رمل.

ومن الدلائل على عراقتها في الصحراوية إن لم نقل: أصالتها فيها أنني رأيت فيها تلالاً مرتفعة سوداً تحيط بأسافلها (براق): جمع برقة وهي الرمل الذي يركب الجبل. وفي بعض هذه الأماكن سباخ: جمع سبخة، وهي الأرض الملحة.

ومع ذلك رأينا في جهة معينة منها مزارع غير واسعة لا شك بأنها قائمة على القناة التي شقت في هذه الصحراء من نهر جيحون (أموداريا)، لأن هذه المزارع تحيط بها أراض صخرية قاحلة.

ثم وصلنا إلى منطقة جبلية قاحلة كأنها منطقة التلال الجبلية في بلادنا دون أي فرق، وليس فيها أية عمارة، مما يؤكد أنه لولا نهر جيحون في هذه البراري لكانت صحراء خالصة مثلما أن مصر هي صحراء لولا نهر النيل.

ورحت أبحث عن رمل أسود يصدق تسمية هذه الصحراء بصحراء الرمال السود فلم أجد إلا الجبال السود. أما الرمل وهو موجود وظاهر فيها فإن لونه أدهم وهو اللون الذي يكون بين الحمرة والسواد. وربما كانت فيها رمال سود في غير المكان الذي تطير فوقه طائرتنا.

ومع ذلك فإن طائرتنا قد وصلت وهي تواصل لهاثها فوق هذه الصحراء الواسعة إلى منطقة ذات رمل يقرب لونه من السواد.

وعندما رأيت امتداد هذه الصحراء من الطائرة وهي تمعن فوقها طيراناً يفوق المسافة ما بين جدة والأحساء منذ أن غادرت طشقند إلى أن تقف في عشق آباد قال الخيال: إن امتداد هذه الصحراء هو كامتداد الصحراء في بلادنا، وذلك ناشىء عن اتساع حقيقي في الصحراء وعن رتابة المناظر وعدم تغيرها من جهة أخرى.

وكدت أضحك من هذا الخيال الذي لم يكد يصدق بسعة هذه الصحراء التركية، دون أن تمدها صحراؤنا العربية، لولا أنني تذكرت أن ديننا الإسلامي الحنيف قد انطلق من صحرائنا العربية الواسعة فعمر قلوب أهل هذه الصحراء من الإخوة الأتراك أو إن شئت التعبير الرسمي قلت: إنهم التركمان ـ على ما لكلمة التركمان من تفاسير ذكرناها في مقدمة الكلام على هذه الجمهورية ـ وقد تجاوز الإسلام هذه المنطقة، على يد أهلها المسلمين المخلصين لإسلامهم حتى وصل إلى وادي فرغانة في

جمهورية أوزبكستان التي فارقناها، وكانت هذه حدوده الشمالية الشرقية في القرن الرابع الهجري مما حدا بالأديب المبدع (بديع الزمان الهمذاني) أن يقول قولته في بيان حدود العالم الإسلامي في ذلك القرن: (إنك لو جبت ما بين غانة إلى فرغانة ما وجدت مثله). وغانة، واقعة في غرب إفريقية على ضفتي نهر السنغال الذي كان أسلافنا العرب يسمونه (نيل غانة) لأنهم كانوا يسمون نهر النيجر (نيل السودان) وذلك قبل أن يعرف العالم تسمية السودان العربي بالعين المهملة وهو الشرقي باسم السودان.

وليست (غانة) القديمة في مكان دولة (غانا) الحديثة التي عاصمتها (اكرا) فهذه ذاهبة إلى الجنوب عن موقع (غانة) القديمة ولكن أهلها سموها بغانا تيمناً باسم مملكة (غانة) التاريخية القديمة ورداً على بعض الأوروبيين الذي يشنعون على الإفريقيين بأنه لم يكن لهم ماضٍ تاريخي مشرف ناسين أو متناسين ماضي مملكة (غانة) هذه العريق الذي يضرب بقدمه إلى ما قبل البعثة المحمدية بزمن.

وفي القرن السادس الهجري تجاوزت المسافة التي وصلها الإسلام في هذه المنطقة إلى أجزاء معدودة الآن في جمهورية (قازاقستان) ومنها مدينة (جمبول) فيها التي كانت تسمى مدينة طراز، وكانت آخر حدود الوطن الإسلامي من تلك الجهة في القرن الخامس الهجري، وقد زرتها وتكلمت عليها في كتاب «حديث قازاقستان».

وبعد ذلك بقرن أو قرنين تجاوز الإسلام تلك الحدود حتى وصل إلى سيبيريا وأقام فيها دولة مسلمة عرفت بمملكة (سيبير) أو على حد التعبير الشائع في هذه المنطقة (خانية) سيبير، لأن ملكها يلقب بلقب (خان).

وما زالت تلك المملكة السيبيرية المسلمة قائمة حتى نشبت الخلافات والحروب بين أهلها وبين بعض مجاوريهم من المسلمين مما هيأ للروس أن يحتلوها ويسقطوا تلك المملكة المسلمة.

وبين هذه المنطقة التي تطير فوقها طائرتنا الآن وهي (صحراء الرمال السود) وبين حدود مملكة سيبير الشمالية مسافات واسعة بل شاسعة إلا أنه ينبغي أن نتذكر أن الروس عندما استولوا على مملكة سيبير المسلمة ضموا إليها مناطق شمالية وصلت الدائرة القطبية الشمالية من تلك الجهة وأطلقوا على ذلك كله اسم (سيبيريا).

في مطار عشق آباد:

أعلن مكبر الطائرة عن قرب الوصول إلى مطار عشق آباد، وأن درجة الحرارة فيه هي ١٦ درجة مئوية وهذه درجة جيدة فرحنا بها بعد برد بشكك الذي وصل في بعض الأحيان درجة الصفر ونحن فيها حيث نزل الثلج وإن لم يكن نزوله واسعاً، وقد ذكرت ذلك في كتاب: «حديث قيرغيزستان».

وكان المنظر قبيل الوصول إلى المطار لا يزال صحراوياً تحت الطائرة إلا أننا كنا نرى على أيماننا بحيرة صافية المياه وعلى أيسارنا جبل عال تجلل هامته الثلوج.

وعندما تدنت الطائرة كانت قد وصلت إلى منطقة مزروعة في أرض تبدو صخرية، تتناثر فيها منازل ريفية من طين بعضه رمادي اللون.

ورأيت على بعض الأماكن المرتفعة وهي حجرية سوداء شيئاً كالملح الأبيض وربما يكون من بقايا ثلج الشتاء.

ولقد ذكرني منظر هذه الأرض التي تبدو صحراوية فيما بعد عن المدينة بمنظر مناطق من الصحراء الأسترالية كنت رأيتها أكثر من مرة من الطائرة عندما قطعت القارة من الجنوب إلى الشمال، وأكثر ما فيها هذه السباخ التي هي الأراضي الملحة وقيعان جافة.

ومع ذلك قد رأيت أن منطقة مدينة عشق آباد تغطيها مقادير من بخار الماء لا توجد فيما هو قبلها، ولا شك أن ذلك بسبب الري والزراعة فيها،

فقد رأيت قناة مفعمة بالمياه جهة الغرب من الطائرة ونحن قادمون من جهة الشمال الشرقي. وحول هذه القناة حقول نضرة ومزارع متسعة فهي مع منطقة المدينة كالواحة الخضراء وسط الصحراء.

ثم أقبلنا على المدينة فاتضحت الأحياء الشعبية في أطرافها ذات بيوت مسنمة السقوف وسقوفها من الصفيح الأبيض.

وتغلب طبيعة الأرض الملحة على ما حول المدينة، بحيث أن بعضها كأنما نثر فوقه الملح نثراً، أما وسط المدينة فإن فيه أبنية جديدة متعددة الطوابق، ولكن رقعته ضيقة بالنسبة إلى باقي أحياء المدينة غير الجيدة.

هبطت الطائرة في الحادية عشرة وثلاث دقائق فكانت مدة الطيران ساعتين إلا اثنتي عشرة دقيقة وليست ساعتين اثنتين كما أعلنوا ذلك من مكبر الصوت في الطائرة.

وبينما صارت الطائرة تدرج في المطار كنت أتأمل ما حول المدارج من الأرض فأجدها كالأرض الصحراوية الخصبة، وما شبهتها إلا بما حول مدارج مطار القصيم من الأعشاب والأشجار الصحراوية اللاطئة في الأرض.

إلا أن الأعشاب الآن هنا خضر وإن تكن قليلة.

نزل ملاحو الطائرة قبل الركاب كما هو التقليد المعتاد في الطائرات السوفييتية، وكان من عادتهم أن يعلنوا للركاب عن وجود ضيوف في الطائرة فلا يتحركون من أماكنهم حتى ننزل قبلهم ولكنهم في هذه المرة لم يفعلوا ذلك. وربما كان ذلك لكونهم لم يخبرهم مخبر به.

عندما نزلنا في المطار وجدنا مضيفة أرضية تنتظرنا أشارت إلى حافلة صغيرة فركبناها ونحن أربعة إذ كان معي عضوا الوفد الأستاذ محمد محمود حافظ المدير العام لإدارة المشاريع والإعانات في الرابطة والأستاذ

رحمة الله بن عناية الله مدير إدارة الدراسات والبحوث في الرابطة والأستاذ (زاهد جان) نائب رئيس الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر، الذي صحبنا من طشقند.

أنزلتنا الحافلة أمام مدخل يفضي إلى قاعة مستطيلة الشكل لا بأس بسعتها هي قاعة كبار الزوار في المطار ولم يكن فيها أي شيء يشرب مثلما أن الطائرة لم يكن فيها شيء من ذلك. وكنا بحاجة إلى فنجان من القهوة أو الشاي لا سيما أن لدينا برنامجاً في مدينة عشق آباد في وقت ضيق. ثم جاء الشيخ (دردي قليج بن خداي نظر) نائب قاضي تركمانستان، ومعنى (خداي نظر): نظر الله. لأن (خداي) هي اسم الجلالة وأصل الكلمة فارسية، ونظر هي العربية وإن كان المراد بها الآن معنى عناية الله.

والشيخ بمثابة نائب رئيس الشؤون الدينية في جمهورية (تركمانستان) لأن رئيس الشؤون الدينية هو الشيخ (نصر الله بن عباد الله) ويسمونه هنا القاضي لأن رئيس الإدارة الدينية لما وراء النهر الذي يراد به هذه الناحية كلها هو الشيخ محمد صادق محمد يوسف، ومقره في طشقند وهؤلاء الذين في الجمهوريات الأخرى بمثابة نواب له فيها، ولذلك يسمى الواحد منهم بالقاضي ولا يسمى رئيس الشؤون الدينية.

ويقيم قاضي تركمانستان في مدينة (تاش حوض) على حدود خوارزم، بخلاف نائبه الشيخ (دردي قليج) هذا الذي استقبلنا في مدينة عشق آباد عاصمة الجمهورية.

اعتذر الشيخ عن عدم حضوره عندما نزلت الطائرة بأنه تأخر بسبب تأخر سائق السيارة عليه. ولذلك جاء معه بحفيد يقود سيارته. وقال: إنه كان ينوي استقبالنا عند سلم الطائرة، واسم حفيده (حاجي مراد) وسنه ١٨ سنة ولم يحج بعد، ولكنهم أسموه بذلك تفاؤلاً بأنه سوف يكتب له الحج.

كما وجدنا في الإستقبال الشيخ محمد صالح (سكرتير) قاضي

تركمانستان الشيخ نصر الله عباد الله أرسله من (تاش حوض) ليكون في استقبالنا في (عشق آباد) وأرسل معه اعتذاراً يخبر فيه أنه كان في موعد مهم مع كبار المسؤولين في الدولة بشأن ترتيب أمور الحجاج في هذا العام وإلا لكان حضر إلى (عشق آباد) بنفسه.

الوصول إلى مدينة عشق آباد:

ركبت مع الشيخ دردي قليج في سيارته التي يسوقها حفيده، وركب بقية الرفقة مع سيارة أخرى ويعرف الشيخ دردي قدراً من العربية لا يكفي للحديث في المسائل العميقة.

سرنا من المطار إلى المدينة مع شارع واحد للسيارات الذاهبة والآيبة يفصل بينهما خط من الصباغ فكانت أولى الملاحظات السريعة على هذه البلاد هي أن نساءها يتميزن بملابس طويلة واسعة تشبه لباس النساء عندنا، ولا توجد الملابس القصيرة مثل التي تلبسها نساء أوزبكستان عليهن. وقد تكررت بعد ذلك رؤية هذا اللباس السابغ على نسائهم سواء في المدينة أو في الأرياف. وقال لي الشيخ نائب القاضي: إنّ هذا هو الزي الوطني لنسائنا وهو سابغ كما ترى. ويتألف من قميص طويل (فستان) يضرب إلى الكعبين، وفوق الرأس منديل واسع.

بيت نائب القاضي:

كان الذي يأمر وينهى في هذه المرحلة منذ وصولنا هو نائب القاضي الشيخ (دردي قوليج) فوصل بنا بسرعة حياً يمكن أن يوصف بأنه حي شعبي إذا نظر المرء إلى شوارعه غير المتناسقة، التي هي في الحقيقةَ أزقة غير متساوية الإتساع وليست بشوارع مستقيمة، وأكثرها غير مزفت بل إنه غير ممهد لذلك يجد راكب السيارة فيها تعباً من السير فوقها، وكثير منها تتسرب إليه فضلات من المياه خارجة من البيوت.

ولكن يمكن أن يوصف هذا الحي أو جزء منه بأنه جيد، لأن فيه بيوتاً واسعة جيدة، ذات أبوابَ واسعة.

ووقف عند باب واسع وأمر خادماً وجدناه عند الباب أن يفتحه فدخلت السيارتان في فنائه، ونحن لا ندري من الأمر شيئاً وإنما كنت قلت للشيخ: إننا نريد الذهاب إلى الفندق فتجاهل كلامي، وظننت أنه لم يفهمه حق الفهم.

ثم قادنا إلى غرفة جلوس واسعة مفروشة بفراش نظيف بل جميل من السجاد الغالي والأرائك المريحة عليها السجاد غير العريض من النوع التركماني المعروف الذي يصنع في هذه البلاد. وعلى الحيطان الواسعة سجاد معلق أيضاً. وعلى النوافذ ستائر رقيقة رغم البرد الذي يتبعه صيف حار. وفي هذه الغرفة جهاز للهاتف استعمله مضيفنا أكثر من مرة واتصلنا منه بمدينة تاش حوض في تركمانيا.

مائدة تركمانية:

وجدنا السماط وهو الخوان أي ما يوضع عليه الطعام قد فرش في الأرض ووضعت حوله الحشايا وقد حفل هذا الخوان بمقدمات الطعام التي اعتادوا أن يضعوها على المائدة يأكل منها الإنسان قبل الطعام الرئيسي وأثناءه وبعده ووجدناهم هنا وضعوا منها زبيباً أسود وآخر أصفر وهو من العنب الذي تنتجه بلادهم، ومعها بزر المشمش وهو صلب إلا أنه إذا كسر وجد الإنسان فيه لباً يؤكل كما يؤكل النقل ومعه المكسرات الأخرى كالفستق والبندق. ثم جاؤوا بالزبد والعسل، والعسل عندهم جيد لأنه لا يدخله الغش إذ سعر السكر الذي يغش به العسل في البلدان الأخرى مرتفع هنا، كما جاؤوا بسمن أصفر جامد، وبجبن أصفر أيضاً. ثم أضافوا إلى النقل الموجود على المائدة أنواعاً أخرى أحضروها بعد جلوسنا وفيها اللوز والحمص الذي هو حبوب طبيعية غير مطحون ولا مكسور وكذلك تين مجفف ونوعان من الخبز.

وبدأنا الأكل وكانت بنا إليه حاجة، إلا أن الأنواع كثيرة فأكلنا شيئاً من العسل والزبد مع الخبز أما بعض الحاضرين وفيهم شيخ عمره ٧٨ سنة

فإنه كان يغمس الخبز بالسمن المتجمد فتحمل القطع من الخبز مقداراً كبيراً من السمن فيأكله بذلك.

الروائح الثلاث:

ولاحظت أنهم يكثرون من الدسم ومن الزبد والسمن، إلا أنهم أحضروا في السلطة ذوات الروائح الذكية المشهورة وكلها طازجة كأنما قلعت لتوها من الحقل وهي بصل أخضر أي بورقه، وثوم أخضر طازج وفيه ورقه أيضاً، وفجل فيه ورقه ويأكلون منه رؤوسه الحمر.

ورأيتهم يأكلون من الثوم الأخضر بعد أن يأكلوا من السمن بالخبز فعرفت أنهم يكافحون تأثير الدسم بالبصل والثوم، وقد علمتهم التجربة ذلك وهو أمر صحيح ثابت طبياً، وهو أن الثوم والبصل له تأثير جيد في مكافحة الكولسترول وهو الشحم أو الشمع الذي يترسب في داخل الشرايين بسبب الإكثار من الدسم.

ومع السلطة رشاد أخضر وهو النبات الذي يؤخذ منه حب الرشاد إذا نضج. وبعد أن أمعنا في هذا الطعام وبخاصة العسل والزبد جاؤوا بالصحن الرئيسي من الطعام وهو الأرز المطبوخ بالزبيب ومعه قطع من لحم الغنم اللذيذ.

ومع ذلك ذبحوا الذبيحة:

بعد أن شبعنا من هذا الطعام الكثير اللذيذ قلنا للشيخ: إننا نرجو أن تكونوا قد اتصلتم بالفندق فحجزتم لنا فيه غرفاً فأسر مضيفنا الشيخ للشيخ زاهد جان بشيء قال لنا له بعده الشيخ زاهد: إنه يقول: لقد ذبحنا الذبيحة. وقال الشيخ زاهد: إن العادة هنا أن تنتظروا الذبيحة حتى تأكلوا من لحمها، فقلنا: إننا أكلنا من هذا الطعام الكثير الذي فيه الأرز واللحم، ونريد أن يأذن لنا الشيخ. فلما سمع كلامنا تأثر وقال بلغته ما لم يترجمه لنا مرافقنا الشيخ زاهد جان ولكن فهمه زميلنا في الوفد الأستاذ

رحمة الله بن عناية الله الذي يعرف لغة القوم وهو قوله: نحن نريد أن نكرمهم، ويجب أن يجربوا منزلنا فإن كان أحسن من الفندق بقوا فيه، وإلا غادروه. أما أن أحجز لهم في الفندق فهذا لا يمكنني، يريد أنه لا يوافق على أن نذهب من بيته.

كرم التركستانيين:

كنت أقول عند المناسبات: إن أكرم العرب المعاصرين هم المغاربة وأكرم المسلمين من غير العرب هم التركستانيون يستوي في ذلك أهل تركستان الشرقية، الواقعة الآن تحت الحكم الصيني ويسميها الصينيون (شنجاك) وكانت تعرف عند الأوروبيين باسم (سينكيانغ) وأهل تركستان الغربية التي منها بلاد ما وراء النهر هذه.

وقد زرت أهل المنطقتين، ودخلت بيوتهم وأكلت على موائدهم، هذا مع التنويه بأنهم الآن كلهم يمرون على وجه العموم بأزمات إقتصادية حادة بحيث تدنت دخولهم، وعدم الغنى فيهم وكثر الفقراء الذين كانوا يعيشون عيشة متوسطة، وذلك بسبب انتقالهم من مرحلة الشيوعية إلى مرحلة الإقتصاد الحر من دون أخذ الإحتياط اللازم لذلك من تخطيط وتهيئة هذا مع العلم بأن أكثر حكامهم لا يزالون من الشيوعيين السابقين الذين غيروا جلدهم بسبب التطورات الأخيرة التي مرت بها البلاد، وسقطت فيها الشيوعية حتى في عيون أهلها، حيث صاروا يتبارون في ذكر مساوئها ويخشى إذا رأوا أنه يمكنهم الإستمرار في سياستهم تلك أن يعودوا إلى ما يضمن لهم البقاء في السلطة بأي ثمن كان. وقد يكون في ذلك التنكر للإخوة المسلمين الذين فرحوا بهذا النصر على الشيوعية، نسأل الله تعالى أن يحقق آمالهم في نصر الإسلام والمسلمين وأن يخزي الشيوعيين والملحدين ويكفي المسلمين شرهم إلى يوم الدين.

كان بيت الشيخ (دردي قوليج) بل قصره واسعاً مريحاً، وكانت فيه عدة قاعات للجلوس غير الرئيسية التي كنا فيها. ولكن كانت المشكلة في

الحمام، فأهل هذه المنطقة كلهم من أقصاها إلى أقصاها أقل ما يعتنون به هو الحمام، والمراد بذلك بيت الراحة إذ يجعلونه في مكان بعيد جداً عن غرفة الجلوس، بل يكون منعزلاً عن البيت كله، ويكون أشبه ما يكون بفتحة واسعة في سقف غرفة صغيرة، والفتحة هذه واسعة جداً، وهم يستعملون الماء بالإبريق للتنظيف وأحياناً يستعملون الحجارة، ولذلك لا يمكن استنقاذ ما يسقط في هذا المرحاض أبداً، وقد اعتدت على أن أتفقد ثيابي عندما أذهب للحمام، فأبعد كل ما أخشى عليه السقوط من قلم أو ساعة أو نظارة أو دفتر صغير أو نحوه. والسبب في ذلك بدون شك عدم وجود مجاري منتظمة للمياه المستعملة، وليس هذا هو المشكلة الوحيدة هنا وإنما هي فيما نشعر أننا سببناه من حرج لأهل بيت الشيخ لأن الحمام بجانب المطبخ وقد يرى الضيف أحياناً فيه بعض أهل البيت، ومع أنه لا يوجد حجاب في هذه البلاد فإن النساء لا يسلمن على الضيوف ولا يقابلنهم، فضلاً عن أن يحدثوهن.

ومن أجل هذا طلبنا أن نذهب إلى الفندق ولكن مضيفنا الشيخ (دردي قليج) لم يأذن بذلك إكراماً لنا ومحبة في استضافتنا جزاه الله خيراً.

وقد جعلوا في البيت قسماً للنساء منفصلاً عن قسم الرجال بينهما فناء مكشوف فيه دوالي للعنب الذي استكملت أوراقه الظهور قبل فترة قصيرة، وقد جعلوا أغصانه تتدلى فوق موقف للسيارات داخل الفناء.

وقد غرست فيه شجرة من أشجار (الجنّار) التي تكبر وتضخم وقد تعمر إلى أربعمائة سنة رأيت منها أشجاراً ضخمة في كشمير ذكروا أن المغول أحضروها من بلاد ما وراء النهر وغرسوها في أول حكمهم للهند، وبقيت هكذا لا تقطع، ونموها بطيء ولكنه مستمر، وهي قوية. أما هذه (الجِنَّارة) المغروسة عند مدخل قصر مضيفنا الشيخ (دردي قليج) فإنها صغيرة ولا تزال.

لقد استفدنا فوائد كثيرة من أخينا الشيخ (دردي قلينج) أكثرها تتعلق

بأوضاع المسلمين في هذه البلاد كما سمعنا منه أشياء عن نفسه فرغم كونه شيخاً كبيراً وجيهاً فإنه لا يتسلم راتباً له من الإدارة الدينية التي ليست لها مخصصات من الحكومة وإنما هي قائمة على تبرعات المسلمين ولا توجد لها موارد ثابتة، لأن الشيوعيين صادروا الأوقاف الإسلامية التي كانت موجودة ولذلك قال الشيخ عن نفسه: إنني أشغل وظيفة نائب القاضي في تركمانستان. ومحل إقامتي العاصمة (عشق آباد) بخلاف القاضي نفسه فإن مقره في مدينة (تاش حوض) قال: وأنا مع ذلك إمام في الجامع الكبير وجميع رواتبنا من تبرعات الجمهور.

ولكن الشيخ يشغل مكانة مرموقة في المجتمع، فقد حدثنا أن له ستة أبناء ذكور وثلاث بنات من زوجة واحدة وعندما سألني عن عدد أولادي قلت: إنهم مثلما عندك في العدد وهم من زوجة واحدة لم أتزوج غيرها ولكنهم ٦ بنات و٣ أبناء.

وقال: وابني واسمه (باي محمد) هو وزير الشؤون الإجتماعية في الحكومة، وهذه السيارة التي معنا هي سيارته.

مدينة عشق آباد:

الجولة على المساجد في المدينة هي أيضاً جولة على المدينة نفسها، ولكنني لم أقل إنها جولة على المدينة لأنه لم يكن المقصود جولة على المدينة وما فيها من أماكن تستحق الزيارة.

ونحب أولاً أن نذكر معنى اسمها (عشق آباد) ذلك بأن كثيراً من الكتاب والصحفيين العرب ينطقون باسمها محرفاً ويكتبونه بصيغة أكثر تحريفاً، لأنهم كانوا ينقلونه عن وكالات الأخبار الأجنبية، وعن مصادر لا تفهم معناه، فبعضهم يكتبه (اشخباد) وبعضهم (اشك اباد) مع أنه مؤلف من كلمتين إحداهما عربية هي عشق من العشق الذي معناها: الحب الشديد والثانية فارسية وهي (آباد) بمعنى محل أو بلدة التي تكثر التسمية بها في بلاد الهند، حتى إنه توجد فيها مدينتان كل واحدة منهما تسمى

(حيدر آباد) بمعنى بلدة حيدر إحداهما (حيدر آباد الدكن) في الهند، والثانية (حيدر آباد السند) في باكستان.

ولكن الكلمة العربية هنا لم تأت من أجل الحب نفسه وإنما جاءت مع اسم شيخ صوفي متعبد كان يقيم في هذا المكان أول الأمر واسمه (بير عاشق) والمراد بالعشق هنا العشق الذي يسميه الصوفية العشق الإلهي. فسميت باسمه (عاشق آباد) ثم تحولت إلى (عشق آباد) وإذاً يكون معنى اسمها الحرفي (بلد العشق) ولكن هذا ليس بالمراد وإنما هو ما ذكرناه.

وقد اعتدى الروس على هذا الاسم الذي شطره عربي وهو وطني أصيل فغيروه إلى (انَّنا أوغلو) وهو اسم قائد من قوادهم الذي أسهم في إخضاع هذه البلاد المسلمة لسلطانهم، مثلما كانوا غيروا اسم مدينة (بشكك) عاصمة (قيرغيزستان) إلى (فرونزه) أحد قوادهم، بل أحد عتاتهم الذي قهر المسلمين بعد أن قتل منهم طائفة كبيرة، ولكنها عادت إلى اسمها الأصيل. مثلما عادت (عشق آباد) إلى اسمها العريق.

وبالنسبة إلى ما يوحي به العشق سألت بعض الإخوة عن ذلك أله نصيب في هذه المدينة؟ فأجابوا بأنها ليست من المدن المشهورة في المنطقة بمثل هذه الأمور رغم كونها قد ابتليت بسكنى غير المسلمين فيها حتى كانت نسبة المسلمين فيها في وقت من الأوقات لا تزيد على ٤٠٪ وأما الأغلبية فإنها من غير المسلمين من الروس والأوكرانيين والروس البيض والأرمن ومن لف معهم من طوائف المسيحيين الآخرين.

ولذلك لم يكن فيها طيلة السنوات الماضية إلا مسجد واحد هو (جامع عشق آباد). ويقول الشيخ (دردي قليج) وهو رجل مهتم بهذا الأمر وعارف به: إن عدد السكان المسلمين الآن قد ارتفعت نسبته إلى ٦٠٪ في العاصمة (عشق آباد) وإنهم في بقية أنحاء البلاد تبلغ نسبتهم ٩٠٪.

إلى الهضبة السماوية:

بدأنا في الثانية ظهراً بصحبة الشيخ دردي قليج الذي هو أكبر مسؤول ديني في المدينة بالذهاب إلى خارج العاصمة لزيارة بلدة (كوك تبه) التي معنى اسمها: الهضبة السماوية والمراد بالسماوية هنا النسبة إلى اللون السماوي وليس إلى الارتفاع الشديد. وتبعد (٥٠) كيلومتراً عن العاصمة.

خرجنا من بيت الشيخ (دردي قليج) الواقع في فولتيرسكي مع شارع واسع إلا أنه غير مستقيم ولا متناسق السعة، فبعضه واسع، وبعضه ضيق ثم وصلنا للشارع العام المستقيم الذي يفضي إلى خارج المدينة فمررنا بمعهد زراعي يقع عليه.



صورة رقم (٧): الأرض التي سيقام عليها المسجد في كوك تبه في تركمانستان

وخرجنا بسرعة من المدينة فوقعنا في جو نصف صحراوي. ليس على الطريق في كثير منه شجر وبعضه عليه شجر غير ظليل.

والطريق نفسه إسفلتي لا بأس به، إلا أنه ضيق بقياس الطرق الموجودة في بلادنا. ثم مررنا جهة اليسار من الطريق بمطار عسكري، كما رأينا مزارع غير واسعة للقمح، وذكروا بهذه المناسبة أنهم لا ينتجون ما يكفيهم من القمح وإنما يستوردونه بخلاف المواشي من الأغنام خاصة فإنهم يربون ما يكفيهم منها، ويزيد شيء عن ذلك فيصدرونه إلى الخارج، وذكروا أنهم قبل الإستقلال لا يزرعون أي شيء من القمح. لأن سياسة الإتحاد السوفييتي الذي كانوا جزءاً منه تقتضي أن يزرعوا القطن فقط. وأن يرسل الإتحاد السوفييتي القمح من جهات من الإتحاد.

ومررنا بمصنع للإسمنت على يمين الطريق فسألتهم عما إذا كانوا ينتجون من الإسمنت ما يكفيهم، فذكروا أن ما ينتجونه لا يكفيهم.

وقد حدا بي هذا المظهر شبه الصحراوي لبلادهم أن أسألهم من باب التأكد من شيء عرفته عما إذا كان يجري عندهم نهر فأجابوا إنه لا يوجد نهر وإنما تصل إلى المنطقة قناة من نهر (أموداريا) الذي هو نهر جيحون وهي التي أشرت إليها فيما سبق.

أهي جزء من خراسان؟

نحن الآن في منطقة تقع إلى الجنوب من مجرى نهر جيحون، ولذلك يعتبرها بعض الجغرافيين القدماء جزءاً من خراسان على اعتبار أن بلاد ما وراء النهر هي ما كانت بالفعل شمال نهر جيحون غير أن الصحيح أن منطقة خراسان تقع إلى الجنوب والجنوب الغربي منها وأنها معتبرة من منطقة (ما وراء النهر) على اعتبار أن طبيعة الأرض والثقافة وأصول السكان مشتركة مع بلاد ما وراء النهر، حتى اللغة التي هي شائعة في خراسان هي

الفارسية، وهنا لغتهم (التركمانية) إحدى اللغات المتفرعة من اللغة التركية القديمة.

ولا شك في أن تسمية خراسان تتسع وتضيق عند بعض البلدانيين العرب بفعل التطورات الثقافية والسياسية وبفعل الأحداث التي تجري فوقها.

وتتوزع خراسان الآن بين إيران وتركمانستان وأفغانستان والمراد بذلك تلك التي كان يشملها اسم خراسان عند التدوين في القرن الثاني الهجري.

ومع هذا الجو الشبيه بالصحراوي هنا فإنهم ذكروا أن عدة أنواع من الفاكهة توجد عندهم ومنها العنب والتفاح وكذلك البطيخ بنوعيه الأخضر (الحبحب) والأصفر وهو (الخربز) أو الجرو في العامية النجدية.

لباس النساء ولباس الرجال:

يلمح المرء في هذا الطريق وقبله في شوارع المدينة نماذج من لباس الرجال والنساء في هذه البلاد التركمانية وهي ملابس غريبة أكثرها غرابة تلك القلنسوة (الطاقية) التركمانية الضخمة التي هي أكبر من العمامة السودانية وأكثر كثافة وتكون سوداء في الغالب كما تكون أكثر كثافة وأكبر حجماً على رؤوس الكبار والمسنين منها على رؤوس الشبان، وكنت ونحن في بيت الشيخ (دردي قليج) أقارن بين طاقية تقليدية عليه وأخرى على رأس حفيده فأجد أن التي على رأس حفيده قد تضاءل حجمها إلى النصف أو الأقل من النصف بالنسبة إلى التي على رأس الجد.

وهذه القلنسوة (الطاقية) الضخمة يقولون: إنها ضرورية في الصيف والشتاء، أما الشتاء فإن ذلك ظاهر من وقايتها من البرد والثلج والريح الباردة وأما في الصيف فإنها تمنع من الإصابة بضربة الشمس التي تكون حارة في الصيف. بل شديدة الحرارة في وسط النهار حتى تبلغ الحرارة في بعض الأيام إلى ٤٦ درجة مئوية.



صورة رقم (٨): تركمانيات بلباسهن الوطني

وهي من الفوارق في اللباس ما بينهم وبين سائر الأقوام في بلاد ما وراء النهر ويلبسون على أبدانهم جبة قصيرة ولكنني لاحظت أنها كثيراً ما تكون ضيقة على الجسم، وضيقها ليس من أصل تفصيلها وإنما من كون كبار السن منهم لهم أجسام غليظة في الغالب، وغالباً ما يكونون من ذوي البطون فيبرز شيء من البطن من تلك الجبة القصيرة، إلا أنهم يلبسون سراويل سميكة وأحذية أو لنقل أخفاف ـ جمع خف ـ عالية الأرقاب بحيث ترتفع إلى ما يقرب من الركبة. وهذا لباس غريب.

أما نساؤهم فإن لباسهن مألوف في بلادنا فهو قميص طويل (كالفستان المكسي) يضرب إلى الكعبين وفوق الرأس منديل.

ونظراً إلى قرب ألوانهم من ألواننا، وبخاصة القرويين منهم فإنك إذا رأيت نساءهم على البعد خيل إليك أنهن من نسائنا.

ولاحظت أن السيارات موجودة في الطريق أكثر منها في طرق أوزبكستان خارج المدن وربما كان السبب في ذلك رخص وقود السيارات هنا، لأن تركمانستان تنتج النفط وإن يكن بمقادير غير ضخمة ولكنها تنتج مقادير ضخمة من الغاز وتصدره إلى أوروبا الشيوعية السابقة مثل أوكرانيا.

هذا وعندما أمعنا في السير في الطريق انقطعت الأشجار التي كانت تحف بجانبيه وهي أشجار مغروسة من أجل أن تظله وتجمله. وصرنا نرى بالقرب منه عرائش العنب الذي تنتجه هذه البلاد لأن الجو مناسب له ولأمثاله من أنواع الفاكهة.

وبقية ما نراه من الطريق لا عمارة فيه وإنما هو مراع للماشية، وقد سألتهم وكررت السؤال عما إذا كان يوجد عندهم الآن بدو من الذين يرحلون وينزلون يتتبعون الكلأ وليست لهم منازل ثابتة، فأجابوا: إنهم غير موجودين بهذا المعنى وإنما توجد أعداد كبيرة من الشعب التركماني تعتبر من الرعاة ولكنهم يستقرون في بعض فصول السنة أو أكثرها.

هذا مع العلم بأن الحكم الشيوعي لم يكن يدع فرصة للملكية الفردية التي هي عماد الحياة البدوية حيث يسعى البدوي إلى توسيع ملكه من الماشية ويقاتل دون ذلك. ويستطيع إذا اجتهد أن يزيد أعدادها، بل أن يضاعفها ولكن قسماً كبيراً من الشعب هم من أنصاف البداة أي من القرويين الذين يقومون على رعي الماشية وتربيتها.

وبهذه المناسبة حدثنا أخونا ومرافقنا الشيخ (دردي قليج) قال: سأل شاه إيران ـ قبل الشيوعية ـ أحد كبار التركمان فقال: كيف منازلكم؟ فأجابه التركماني: منازلنا ظهور الجبال!

الأعراب في تركمانستان:

هذا الجو الذي نشاهده الآن من الطريق مناسب لحياة الأعراب

فالجو جاف ولكنه ليس بقاحل فأعشاب الصحراء تشبه أعشاب الصحراء في ديارنا في الربيع ما عدا الرياض التي يقل مثيلها هنا حسبما رأيته. ولذلك سألت الأخ الشيخ (دردي) عما إذا كان يوجد في بلادهم (أعراب) يؤلفون عشيرة أو فخذاً من قبيلة ويعيشون في هذه البلاد معيشة الأعراب.

ولم يستغرب هذا السؤال وإنما قال: لقد كانوا موجودين ولكنهم انقرضوا، ولا يوجد الآن عندنا إلا عشيرة واحدة تدعي الإنتساب للعرب.

ولم يخبرني باسم هذه العشيرة ربما لكونه لا يتذكر اسمها جيداً، ولكن القياس أن يكون الأعراب موجودين هنا لما ذكرته ولكون بلادهم متصلة ببلاد إيران، ومن المعلوم أنه كان يوجد في بلاد فارس الواقعة خلف الخليج العربي من جهة الشرق طوائف من العرب إلى وقت قريب، والمراد بذلك وجودهم السياسي المعروف ولهم عدة إمارات منها إمارة الشيخ خزعل في المحمرة.

ولكن إيران استولت على بلادهم وضمتها إليها وبقي العرب يتكلمون العربية وأكثرهم من القبائل العربية المعروفة كبني تميم وبني كعب. ولكنهم اصطبغوا أخيراً بالصبغة الفارسية، لأن اللغة الفارسية هي لغة التعليم والمخاطبة.

فلا يبعد أنه كان أناس من هذه المناطق قد ارتحلوا شرقاً إلى أراضي تركمانستان وعاشوا فيها لشبه جوها بجو الجزيرة العربية الصحراوية.

وعلى ذكر الجو في هذه الصحراء أخبرونا أن البرودة ليست شديدة، وأن البرد إذا اشتد في الشتاء وصل إلى برودة (صفر إلى ١٠) تحت الصفر أو نحو ذلك. وهذه درجة حرارة معتدلة بالنسبة إلى الأقسام الأخرى من بلاد ما وراء النهر. أما في الصيف فإن الحر يكون شديداً.

وقد نوهوا بأن ثلج الشتاء يفيد الأرض إذ تنبت الأعشاب بعده في الربيع.

هذه كوك تبه:

وصلنا بلدة كوك تبه وهي بلدة حسنة كان أول ما رأيناه فيها محطة واسعة للقطارات ذكروا أن فيها ما يسافر من عشق آباد إلى موسكو، ويقف بهذه المحطة الكبيرة.

والواقع أن البلدة لا تستحق مثل هذه المحطة الكبيرة بمفردها، ولكنها اعتبرت محطة للعاصمة ولما حولها. ومعلوم أن القطارات كانت مهمة جداً للإتحاد السوفييتي بالنظر إلى سعة البلاد وتباعد أطرافها، وقلة السيارات المملوكة للشعب التي حتى لو توفرت فإن الخطوط الإسفلتية الحديثة فيها قليلة، ولذلك عولوا على القطارات وهي كثيرة ومتعددة ولكنها بطيئة مملة. ثم جاءت الطيارات فقربت البعيد وأدنت النائي وجعلوا تذاكرها رخيصة الثمن كثيرة ولكنها لا تقوم للنقل بما تقوم به القطارات، بل لا تصل ما تصل إليه القطارات من قرى ومدن صغيرة.

اخترقنا الشارع العام للبلدة ولم نجد فيها هضبة رغم كون اسمها يعني الهضبة السماوية كما سبق وإنما عرفنا أن الهضبة خارج القسم الحديث منها.

وشارعها العام ذو بيوت اسمنتية جيدة المظهر، أغلبها من طابق واحد. ثم وقفنا في شارع متفرع من الشارع العام جيد المظهر عند بناء ذكروا أنه محافظة البلدة أي مركز الإدارة فيها وما حولها. وذلك في حي يسمى (جمعه أمان ساعت) وهذه كلها كلمات من العربية، مثل كثير من الألفاظ والجمل في لغتهم، إذ الملاحظ أن لغتهم تكثر فيها الجمل والتعبيرات العربية رغم طول انقطاعها عن الإحتكاك بالعربية وأهلها على عكس اللغة التركية العثمانية التي استمر احتكاكها بالعرب. وذلك لكون اللغة العثمانية وجد من المتعصبين المتفرنجين من أهلها من يحب أن ينأى بها عن العرب والإسلام في عهد (مصطفى كمال) الذي يسمونه (أتاتورك) أي أبا الترك فأماتوا كثيراً من الكلمات العربية وأحلوا بديلاً منها كلمات أو تعابير تركية.



صورة رقم (٩): في مكتب حاكم بلدة كوك تبه التي تقع شمالاً من عشق آباد على يساري نائب الحاكم... وعلى يميني الأستاذ زاهد جان

لم نجد رئيس محافظة (كوك تبه) واسمه (ودي) فيما ذكروه لنا، وذلك لكونه غائباً عن المحافظة ولم يكونوا علموا بزيارتنا إلا هذا اليوم، وإنما وجدنا نائبه (مليايف أنَّا أوغلو). أجلسنا نائب المحافظ على مائدة اجتماع مستطيلة في قاعة من قاعات المحافظة.

وقد أخبرنا نائب المحافظة بأن البلدة ليس فيها مسجد وأن أهلها يريدون بناء مسجد في بلدتهم، ولكنهم لا يستطيعون ذلك لضيق ذات يدهم.

قال: وهذا فيما يتعلق بالبناء، وإلا فإن الأرض متيسرة هنا فلدينا

أراض حكومية يمكننا أن نمنح قطعة منها لبناء مسجد وقد عينا الأرض المطلوبة.

وذكر أن عدد المسلمين من أهل البلدة يبلغ تسعة عشر ألف مسلم وأنهم يصلون الآن في مصلى مؤقت. ثم أطلعنا على الوثائق المتعلقة بأرض المسجد من ناحية كونها قد أقرت بالفعل من الحكومة وذكر مساحتها، وموقعها في خارطة كبيرة للمنطقة التي تقع فيها ثم أرانا ذلك. فتكلمت فيهم حامداً لله تعالى وشاكراً على إتاحة هذه الفرصة الطيبة لزيارة إخوتنا المسلمين في هذه البلدة وقلت لهم: إننا في رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة نساعد على بناء المساجد في أنحاء العالم كله. ونحن على استعداد لمساعدتكم على بناء مسجد البلدة، غير أن أحد إخوتنا المحسنين من أهل مكة المكرمة قد أعطانا مبلغاً من المال لننفقه في بناء مسجد في بلاد ما وراء النهر ونقوده معنا، ويمكننا أن نرى مكان المسجد وأن نتفق على بقية الإجراءات بعد ذلك.

واسم الأخ المكي المحسن (عبيد الرحمن مؤذن) وهو مؤذن في المسجد الحرام في مكة المكرمة. وقلت لهم: إن أول ما نريد الحصول عليه هو وثيقة توضح تنازل محافظة (كوك تبه) عن قطعة الأرض المذكورة بصفة رسمية ومختومة بخاتم رسمي، فذكروا أنهم مستعدون لذلك، وأنهم سوف يهيئون الوثيقة المذكورة ويطبعونها ثم يحضرونها إلينا.

قلعة الشهداء:

تناولنا الشاي في المحافظة، وتحدثنا حديثاً طويلاً متشعباً في الشؤون الإسلامية أخبرتهم فيما أخبرتهم به أن رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة تنشد التعاون بين المسلمين تعاوناً إسلامياً خالصاً امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾ ومن عادتنا ألا نتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى لأن ذلك يعوقنا عن تحقيق التعاون الإسلامي الثقافي الخالص.



صورة رقم (١٠): يسيرون في أنقاض قلعة الشهداء في تركمانيا

ثم انتقلنا إلى قلعة في البلدة حدثت فيها معركة فاصلة بين المسلمين التركمان أهل هذه البلاد وبين جنود القياصرة الروس وقد فني فيها عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال، وشبهها الشيخ (دردي) بوقعة أُحُد التي ابتلي فيها المسلمون، وحصل فيها نصر مؤقت للكفار عليهم.

وهي قلعة ضخمة ذات أسوار عريضة مبنية من الطين إلا أصول الحيطان فإنها بالحجارة، ذكروا أنها من القلاع التاريخية إلا أنها كانت صممت للدفاع ضد الأسلحة القديمة التي كانت معروفة في القديم.

وذكروا أن الروس كانوا قد عجزوا عن إلحاق الهزيمة بالمسلمين، بل إن المسلمين كسروا الروس وألحقوا بهم الهزيمة فجاء الروس بجنود

أكثر ولكنهم لم يستطيعوا إلحاق الهزيمة بالمسلمين، وقد احتشد المسلمون في هذه القلعة حتى بلغ عددهم عشرين ألفاً فيهم النساء والأطفال فاحتال الروس بأن نقبوا نقباً تحت القلعة وحشوه بالمتفجرات ففجروا القلعة وأكلت النيران بعض من كانوا فيها، ومن سلم من النار لم يسلم من نيران الروس الكفار. فأجهزوا على المقاتلة حتى بلغ من قتل منهم في وقعة القلعة هذه ثمانية آلاف شخص خلال ثلاثة أيام كما أخبرونا.

وقال الإخوة المرافقون وفيهم شيوخ كبار: الروس الأوائل في عهد القياصرة قتلوا المسلمين، والروس المتأخرون الشيوعيون عذبوا الناس وقتلوا العلماء. وهدموا المساجد، وقالوا والفرح يملأ أفواههم، ونحن الآن مستقلون، لقد حصلنا على استقلالنا قبل ستة أشهر، ولله الحمد.

وذكروا أن وقعة القلعة هذه كانت في شهر يناير من عام ١٨٨١م.

وقد تجولنا في القلعة أو لنقل في بقايا القلعة التي لا تزال أساساتها العريضة الضخمة باقية، بعضها بقي منه متر، وبعضها بقي منه ما هو أرفع من ذلك بقليل.

وقد بقيت تلك الأنقاض على ما هي عليه لم ترفع ولم تغير، وتجري بجانبها قناة ماء صغيرة عليها بعض المزروعات.

وبعد أن تجولنا في أنحاء القلعة مع الإخوة المرافقين، وأغلبهم من المسنين الذين شجعنا وجودهم معنا على تحمل التجول في آثار القلعة.

وفي النهاية أرونا قبوراً دفن فيها الذين قتلوا في القلعة فسلمنا عليهم السلام الشرعي ودعونا لهم بالمغفرة وتكفير الذنوب.

وأما أصحابنا من المشايخ المرافقين فإنهم جلسوا بجوار هذه القبور وقرأوا آيات من القرآن الكريم.



صورة رقم (١١): مع شيوخ تركمانيين على أنقاض القلعة القديمة التي قتل الروس فيها المسلمين

مسجد عبيد الرحمن المؤذن:

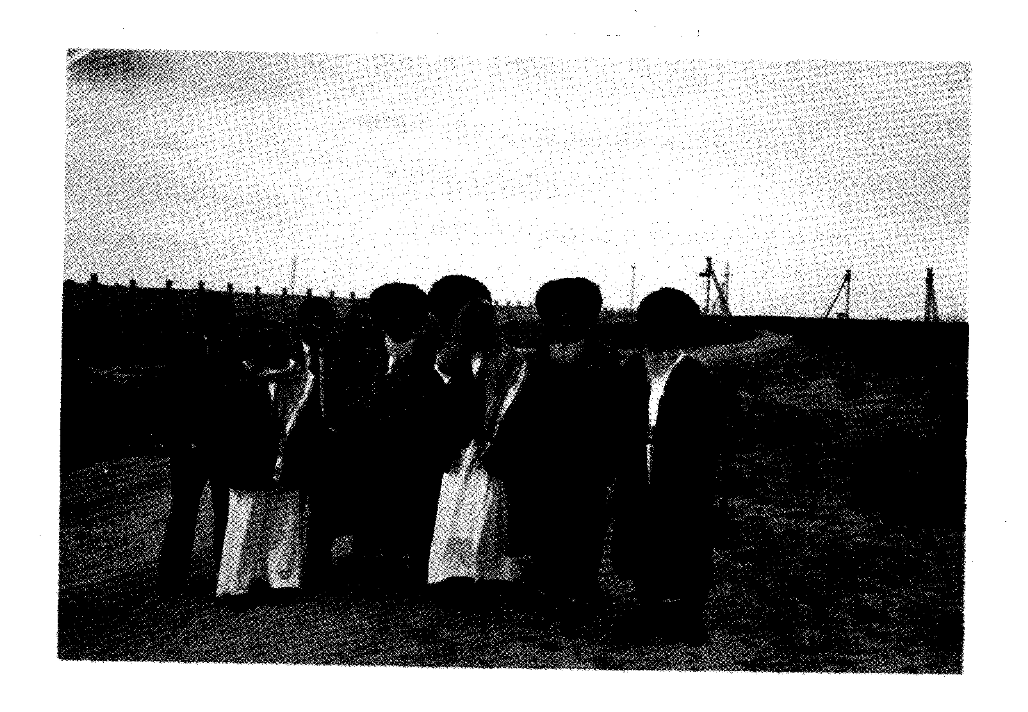
أرونا الأرض المخصصة لإقامة مسجد عليها وتقع غير بعيد من مبنى حكومي واسع، وتبلغ سعتها هكتاراً واحداً.

وقد أحضروا لنا صك الأرض المذكورة فأخذنا منه صورة مصدقة من المحافظة، ومن نائب القاضي وحددنا لهم مساحة المسجد الذي يبدأ فيه البناء، والتقطنا صوراً تذكارية في هذه الأرض. ثم أجرينا موعداً للمسؤولين عن المسجد من أهل البلدة وهم:

صاري أَنَّه مراد إمام مسجد كوك تبه.

نظر بايرام تورت أوغلي متولي كوك تبه.

السيدة أوغلي كراك أتاي مديرة الشؤون الثقافية في بلدة كوك تبه.



صورة رقم (١٢): تذكارية مع الإخوة التركمانيين على أرض المسجد في كوك تبه

والمراد بالمسجد هنا المصلى المؤقت الموجود في البلدة، وإلا فإنه لا يوجد فيها مسجد رسمي مبني على هيئة المسجد كما قدمت.

وقلنا لهم: إن الموعد سيكون في هذه الليلة في بيت نائب القاضي الشيخ (دردي قليج).

قرية قراتاش:

ودعنا أهل (كوك تبه) وهم يدعون ويثنون على العرض الذي

اعتبروه سخياً ببناء مسجد لهم ووقفنا عند محطة للسكك الحديد ضخمة وعلى من يريد أن يقطع من غرب البلدة حيث السوق الرئيسية والمنازل الكثيرة إلى شرقيها حيث القلعة أن يدور لمسافة طويلة لأن خطوط السكة الحديدية عالية في الأرض، ويصعب تجاوزها على السيارة، ولم يقيموا جسراً أو نفقاً تحت الخط كما يفعل غيرهم ولذلك كان علينا أن نسير طويلاً قبل أن نصل إلى الطريق الإسفلتي الذي يربط ما بين عشق آباد وكوك تبه.

كان انصرافنا من كوك تبه في الثالثة والنصف من بعد الظهر، والجو الذي نشاهده كله صحراوي من ذلك إبل ترتع فيه، كأنها الإبل التي ترعى في صحرائنا العربية، وذلك أنها ذات سنام واحد، وليست كإبل القازاق وأهل الصين التي تكون في العادة ذات سنامين اثنين كما شاهدتها وذكرت ذلك عنها في عدة كتب من ذلك: «داخل أسوار الصين» الذي طبع في مجلدين.

إلا أن إبلهم هذه أقل رشاقة من إبلنا وأقصر قليلاً أي أنها أقل ارتفاعاً عن الأرض من إبلنا العربية. ربما كان سبب عدم رشاقتها هو كثرة المراعي التي تنبتها الأرض في الربيع الذي نحن فيه الآن. وربما كان ذلك أيضاً بسبب برودة الجو، فقد لاحظت أن إبل البلدان الباردة تكون أقصر قوائم وأكثف أوباراً، وأما إبل البلدان الحارة كإبل الصحراء الإفريقية وصحراء كالاهاري التي رأيتها في ناميبيا وبتسوانا لاند ورأيتها محنطة في متاحف جمهورية جنوب إفريقية فإنها مثل إبلنا في الرشاقة، وبعضها أكثر رشاقة حتى تشبه أن تصل إلى رشاقة الإبل العمانية المشهورة عندنا.

ومما يؤكد الإنطباع عن الجو الصحراوي السائد هنا كثرة السباخ وهي الأراضي الملحة ذكروا لنا أن سبب وجودها هو قرب الماء الملح من وجه الأرض هنا، حتى لا يزيد عمقه عن متر واحد.

ورأيت سرباً من الغربان يحوم حول تلة غير بعيدة مما أعطى انطباعاً أكثر عن صحراوية المنطقة. وسألتهم بهذه المناسبة عما إذا كانت توجد

مقادير كافية من النفط في بلادهم ما دامت صحراء تشبه الصحارى العربية التي تنتج النفط. فذكروا ما قدمت ذكره قبل قليل من أنهم ينتجون من النفط ما يكفيهم لذلك يباع اللتر عندهم هنا بثلاثة روبلات على أنه يباع في طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان المجاورة بـ٦٧ روبلاً، هكذا قالوا.

وأما الغاز فإنه وفير عندهم ويصدرونه بأنابيب إلى موسكو وإلى شرق أوروبا أيضاً.

بعد مسيرة عشرين كيلومتراً وصلنا قرية (قراتاش) ومعنى ذلك: الحجر الأسود غير أن لاسمها بقية (قراتاش إياق بزامين) وهي قرية مسلمة يبلغ عدد سكانها ثمانية عشر ألف نسمة، ليس فيهم من غير المسلمين أحد.

قصدنا بيت رئيس القرية فلم نجده فيه وإنما خرجت إلينا زوجته وهي سيدة وقور في منتصف العمر، وعرضت علينا أن نشرب من لبن الإبل التي رأيناها في داخل فناء داره.

وقد لاحظنا بعد ذلك أن أكثر المنازل في قرى عشق آباد، بل وفي ضواحي عشق آباد نفسها تكون واسعة الأفنية وهي الأماكن المكشوفة ولا تخلو من شيء من الأشجار وقد يكون هذا معتاداً لا يستحق الذكر ولكن الذي يستحق التنويه به أنها لا تخلو من الإبل. وبخاصة منها النوق اللبون التي يربطونها في بيوتهم كما كنا نربط الأبقار في بيوتنا نبتغي منها اللبن والزبد حتى تغير بناء البيوت عندنا، وتوفر اللبن والزبد في الأسواق وسهل الحصول عليه من دون تربية للأبقار في البيوت التي تحتاج إلى نفقة وتنظيف وتعب.

وقد طلبوا منا أن نشرب من لبن الناقة الذي أرسلته المرأة مع بنية لها صغيرة رقال لنا الإخوة المرافقون: إن من مقتضيات اللباقة أن تشربوا منه شيئاً فاعتذرنا بأننا لا نقوى على ذلك لكوننا قد شبعنا من اللحم والشحم ومعهما الزبد فشربوا هم منه قليلاً، أو (دسموا شواربهم) كما يقول المثل الأعرابي عندنا وقد تناوب على القدح منهم ثلاثة مثلما كنا نفعل في القديم تماماً.

في مكتب رئيس القرية:

ذهبنا إلى رئيس القرية نبتغي اللقاء به في مكتبه فوجدناه فيه رجلاً كهلاً يلبس لباساً عصرياً ليس فيه من الملابس التركمانية الوطنية شيء واسمه (عبد الكريم أحمد يار). وجدنا في مكتبه قاعة إجتماعات إذ تبين أنها هي المكتب وهذا أمر شاهدناه في كثير من البلدان الشيوعية السابقة، وهو أن يكون في المكتب مائدة إجتماعات طويلة. وقد أكد رئيس البلدة ما ذكرناه من كون سكان القرية يبلغ عددهم ثمانية عشر ألف نسمة.

مسجد خضر قولي إيشان:



صورة رقم (١٣): مع الإخوة القائمين على عمارة مسجد خضر قولي إيشان في قرية قراتاش إياق

بعد جلسة طيبة في مكتب رئيس قرية (قراتاش) حضرها عدد من الإخوة المسلمين أعيان القرية انتقلنا بالسيارة إلى مشاهدة مسجد كبير بدأوا بتشييده خارج القرية واسمه (مسجد خضر قولي ايشان) وجدنا في الإستقبال الأخ (مراد محمد سعيد) متولي المسجد، ويريدون بالمتولي رئيس اللجنة التي تشرف على بناء المسجد والأخ (قافا مراد أوراز كيرلي) محاسب، والأخ (خوجة رجب أوغلي) المشرف من الناحية الهندسية على بناء المسجد.

يقع المسجد وسط أرض واسعة تبلغ مساحتها ستة آلاف متر مربع، فكأنهم بذلك يريدون أن يعيدوا سيرة المساجد الكبيرة الواسعة التي كانت في بلاد ما وراء النهر وفي الصين حيث يكون المسجد أشبه ما يكون بالمركز الإسلامي الذي يشتمل على مسجد ومدرسة وحدائق وغرف للغرباء، ومنازل للعاملين في المسجد، ولكن الإخوة لا يستطيعون في الوقت الراهن أن يفعلوا من ذلك إلا الحصول على هذه الأرض الواسعة، لأن دخولهم ضعيفة، وعملة البلاد منهارة، والرواتب لا تكاد تسد الرمق. فلا يفضل منها شيء للتبرع إلا ما شاء الله ممن يكون عنده منهم وفر في السابق، ولكن حتى هذا قد انهارت قيمته حتى أصبح لا يساوي عشر معشار ما كان يساويه من قبل.

ومع ذلك بنوا المسجد ووقفوا عند التسقيف وقد رفعوه بحيث يدخل إليه من درج غير عال، شأن المساجد والأبنية الكبيرة المحترمة التي ينبغي أن تكون مرتفعة عن مستوى سطح الأرض. وقد أرونا خريطة المسجد ومخططاته وهي أشياء طموحة نسأل الله تعالى أن يوفقهم لإتمامها. من ذلك أنهم رسموا ارتفاع قبة المسجد إلى ٣٣ متراً والمنارة إلى ٥٦ متراً. والغريب أن كل ما أنفقوه عليه هو من تبرعاتهم الخاصة، ولم يتسلموا أي شيء من المساعدة عليه من خارج البلاد، ولم يكتبوا لرابطة العالم الإسلامي أو لغيرها بطلب المساعدة ولكن نيتهم صادقة إن

شاء الله، لذلك يسر الله لنا زيارتهم لندفع لهم مساعدة مجزية بالدولار الأمريكي الذي يصرفونه بمبلغ كبير من عملتهم المحلية وهي الروبل الروسي.

وهو جيد البناء مبني بالإسمنت المسلح وجميع اللبن فيه هو من الآجر الأحمر الجيد. وقد ذكروا لنا أن مساحة المصلى الرئيسي في المسجد ٣٠ في ٤٥ متراً.

وأعلنا لهم تبرعاً عاجلاً من الرابطة قدره ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار أمريكي. وأخبرناهم أنهم إذا أنفقوا كل هذا المبلغ ولم يبق لديهم شيء من النقود يواصلون به بناء المسجد سواء ما كان من عندهم وما حصلوه من غيرهم فإن بإمكانهم أن يكتبوا إلينا في رابطة العالم الإسلامي مع تزكية لما يقولونه من نائب القاضي الذي هو معنا وهو الشيخ (دردي قليج) ومن قاضي تركمانستان الشيخ (نصر الله بن عباد الله) ونحن سوف نرسل لهم تبرعاً مناسباً بإذن الله.

وذلك أننا أعجبنا بسعة المسجد، وببعد نظرهم في الحصول له على هذه الأرض الواسعة، مع أنه الآن بينه وبين قرية (قراتاش) مساحة من الفضاء غير المبني، إلا أنه من المنتظر أن تتصل به بيوت البلدة في المستقبل.

العودة إلى عشق آباد:

بدأنا العودة إلى مدينة (عشق آباد) في الخامسة عصراً. ولم نر جديداً في الطريق سوى تكرار ملاحظة كثرة السيارات كثرة نسبية في هذه المدينة لعل مبعثها وفرة وقود السيارات ورخصه فيها، وكذلك رؤية أسوار طينية عديدة على بساتين ونحوها ذكرتنا بالأسوار الطينية التي كنا نقيمها حول حوائط النخل والمزروعات في بلادنا قبل التطور الإقتصادي الأخير.

دخلنا مدينة عشق آباد في الخامسة والنصف ولاحظنا أن معظم

الأحياء الشعبية فيها هي ذات أرض غير مستوية ولم تعمل البلدية شيئاً لتسوية تلك الأراضي قبل أن تأذن للناس بالبناء فيها.

وشوارعها يقل فيها الزفت وهي إلى ذلك مليئة بالحفر والنقر.

وبعض الأحياء الشعبية ليست فيها شوارع بالمعنى المفهوم وإنما هي أزقة وممرات تضيق مرة وتتسع أخرى، وهي إلى ذلك غير مستقيمة.



صورة رقم (١٤): أطفال في أحد أحياء عشق آباد

ثم انتقلنا منها إلى أحياء أخرى غاية في الإهمال سواء في أزقتها والممرات التي بين البيوت فيها حيث لا زفت في الشوارع، بل ولا تسوية أو تمهيد لها وأكثرها فيها مياه ساربة من البيوت مهملة في الأزقة، وقد

اسودت أو اسودت الأمكنة التي تجري فيها. وليس هناك مجال للحديث عن أرصفة في الشوارع والأزقة لأنه ليست فيها زفلتة ولا تسوية كما قلنا.

وحتى سقوف المنازل تدل على الإهمال من البلدية مع الفقر والعوز عند السكان فأكثرها ذات سقوف من الصفيح الصديء. مما أعاد إلى ذهني منظر كثير من الأحياء في حواشي المدن الإفريقية لولا أن تلك الأحياء الإفريقية أكثر استقامة في الشوارع من أحياء هذه المدينة الشعبية التي كانت تقع في الإتحاد السوفييتي إحدى الدولتين العظميين في العالم، وهذا ما كان عليه الأمر في السابق.

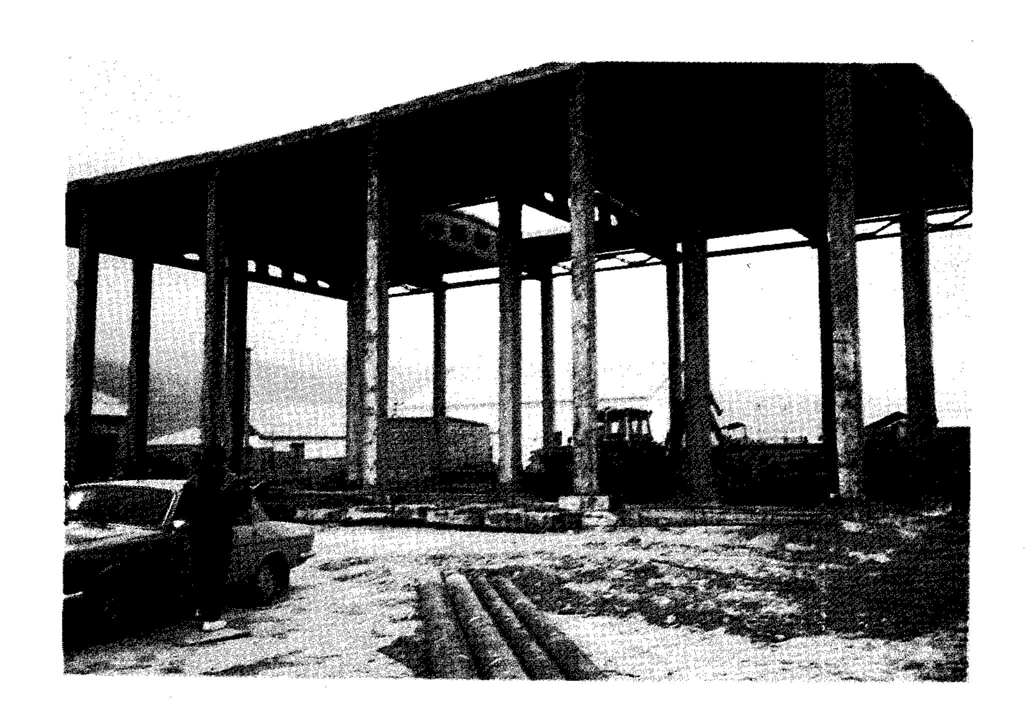
ولكن الشيء الجيد هنا أنه توجد في هذه الشوارع أشجار عديدة من أشجار الظل الضخمة قد غرست فيها من دون تنسيق إذْ قد تجد شجرة عند باب أحدهم ليس في الشارع أو الطريق شجرة غيرها وتجد في مكان آخر عدة شجيرات مثلها أما البيوت فإنها لا تكاد تخلو من الأشجار الخضر المثمرة إذا كانت فيها أفنية تتسع للأشجار.

وقفنا عند بيت من هذه البيوت فخرج إلينا الأخ الحافظ باي محمد بن محمد يارده ونوهوا بأنه من حفظة كتاب الله الكريم، وقد كان نور الإيمان يشع من وجهه، والخشية من الله تغمر مظهره.

مسجد الإمام الأعظم:

ركب معنا الأخ محمد باي وذهبنا لرؤية مسجد يقام في حي اسمه (ينكي اوفا) ومعناها: الضاحية الجديدة، أو المحلة الجديدة، وهي جديدة بالفعل.

والمساجد هنا مهمة جداً، بل هي ذات أهمية خاصة علاوة على أهميتها المعروفة في بلاد الأكثريات المسلمة التي لم تبتل بالشيوعية ذلك بأنها تدل على التحرر الحقيقي من النير الشيوعي الإلحادي، وهي تدل على حيوية الدين الإسلامي وبقاء شعلته في النفوس رغم القمع والقهر الذي استمر قاسياً عنيفاً عشرات السنين.



صورة رقم (١٥): مسجد الإمام أبي حنيفة في عشق آباد (تحت الإنشاء)

ومن الأدلة الواضحة على قسوة الضغط الشيوعي الإلحادي في هذه البلاد أن مدينة (عشق آباد) لم يكن فيها قبل الإستقلال الذي مضت عليه ستة أشهر إلا مسجد واحد رغم كونها عاصمة جمهورية مسلمة عريقة في الإسلام، بل هي ذات ماضٍ إسلامي منير.

والعذر الذي يورده بعض الناس هنا أن السبب في ذلك هو أن الأغلبية من سكان المدينة كانت إبان طغيان الحكم الشيوعي الروسي من غير المسلمين حتى قيل: إن نسبة غير المسلمين من سكانها كانت ٦٠٪ وهذا عذر أقبح من فعل فهو يدل على سياسة كفرية تريد انتزاع هذه المدينة العريقة في إسلامها من أهلها المسلمين، وإحلال غيرهم من غير المسلمين محلهم، لأن الروس وبخاصة في زمن الشيوعيين هم الذين

مكنوا لغير المسلمين من الروس والأوكرانيين والروس البيض ومن لف لفهم من السكنى فيها.

ولو قلنا ـ جدلاً ـ إن هذا العذر صحيح فإن السؤال يبقى قائماً وهو كيف لا يكون هناك إلا مسجد واحد لمدينة كبيرة تبلغ نسبة المسلمين فيها ٤٠٪.

وعلى أية حال فإن الشيخ (دردي قليج) وهو نائب القاضي في المدينة ورئيس الشؤون الدينية فيها ذكر لنا أن نسبة المسلمين الآن في المدينة هي ٦٠٪ وغير المسلمين هي ٤٠٪ وأن كثرة غير المسلمين هي خاصة بالعاصمة، وتقدم نقل كلامه.



صورة رقم (١٦): المؤلف بين الشيخ محمد كلدي على يساره وابنه على يمينه وبعض الإخوة في مسجد أبي حنيفة الذين يبنونه في عشق آباد

ولذلك عندما أتيحت الفرصة للإخوة المسلمين لبناء المساجد نهضت طائفة من جنود الله منهم وهم جنود مجهولون عند الناس معروفون عند الله، وجهل الناس بهم كان حقيقة قبل فترة من الزمن، إذ لم يكونوا يستطيعون إبان الحكم الشيوعي أن يظهروا ما يكتمونه من إيمان، فضلاً عن أن يعملوا ما يريدونه من عمل إسلامي مرئي.

ومن أولئك الجنود المجهولين الأخ (محمد كلدي بن محمد) وابنه محمد يعقوب إذ رأيناهما يعملان في المسجد بأيديهما أحدهما يسوق جراراً يسوي به أرض المسجد، والآخر يعمل في أعمال أخرى فيه وقد علق كل واحد منهما الغبار الذي نرجو أن يكتب لهم من الأجر عليه مثلما يكتب لمن علاه الغبار وهو يقاتل في سبيل الله.

تقع ضاحية (يانكي اوفا) في مكان مرتفع يشرف على المناطق التي حوله إلا من جهة واحدة هي الجهة التي تلي قلب المدينة، ولا تزال بعض البيوت تبنى فيه وفيه أراضٍ كثيرة خالية، ولكنه خالٍ من أية عناية من البلدية لا من حيث سفلتة الشوارع ولا تسوية أراضي الحي.

نزع الأخ (محمد كلدي) القلنسوة التركمانية السميكة عن رأسه، وكانت تشبه وهي عليه القبعة من الشعر المستعار (الباروكة) ولم تكن في ضخامة قلنسوة الشيخ (دردي) إذ هذه تقليدية كاملة، وأخذ ينفض الغبار عنها فيتطاير ثم ينفث على غبار ثيابه أيضاً، وقلنا له: يا شيخ نرجو أن تشركنا في هذا الغبار عسى أن يكون لنا معك نصيب من الأجر. فاعتذر بتواضع قائلاً: هذا هو أثر العمل وهذا المسجد هو أول مسجد يقام في هذا الحي، بل ربما صح القول بأنه أول مسجد يقام في هذه الناحية من المدينة.

واسم المسجد (مسجد الإمام الأعظم) الذي يريدون به الإمام أبا حنيفة النعمان بن ثابت، ومعظم سكان هذه البلاد حنفية المذهب، والأخ محمد كلدي هو إمام المسجد المذكور.

وقد بلغ ارتفاع البناء إلى السقف إلا أن السقف نفسه مرفوع بما يعادل ارتفاع مبنى من ثلاثة طوابق وكل هذا العمل هو من التبرعات الشعبية المحلية الخاصة فلم تساعدهم الحكومة ولا أية جهة رسمية أخرى بشيء على بنائه، وإنما أعطتهم محافظة المدينة الأرض للمسجد بالمجان، وهذا في حد ذاته تطور مهم جداً، إذ الحكومة الشيوعية كانت تمنع أن يبني الناس مسجداً جديداً حتى في بيوتهم أو الأرض التي يملكونها على ضيق الأراضي التي يملكها الأفراد.

ومساحة المصلى الرئيسي هي ٣٠ متراً في ١٨ متراً. ومن المقرر أن يكون ارتفاع المنارة ١٤ متراً، فقد منعهم ضيق ذات اليد من التوسع في بناء المسجد.

ومع ذلك فإن المسجد سيكون أعلى الأبنية في هذا الحي، لأن معظم بيوت الحي من طابق واحد.

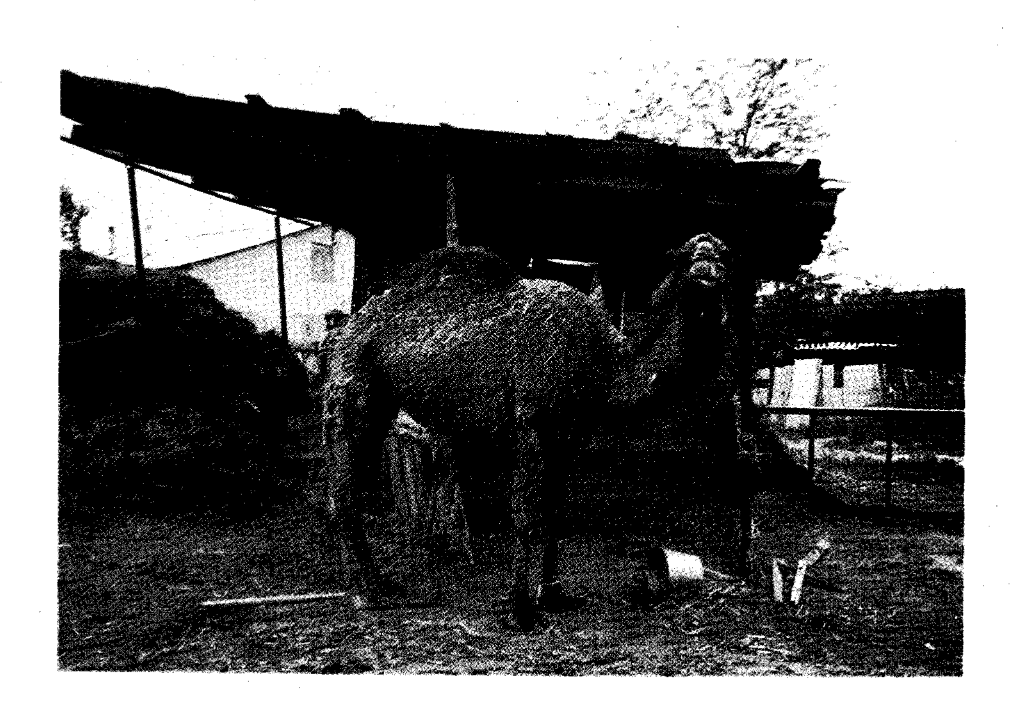
في بيت الإمام:

وهو أخونا (محمد كلدي) متولى المسجد فقد عزم علينا أن نزور بيته. وقال أحد الإخوة المرافقين: إن في بيته مدرسة.

توجهنا إليه فانحدرنا مع مكان أقل ارتفاعاً وعندما دخلنا باب البيت فوجئنا بأنه بستان واسع فيه بيت وليس مجرد بيت للسكن. وهكذا وجدنا كثيراً من البيوت في ضواحي هذه المدينة وقراها تكون كبيرة ذات أفنية (أحواش) واسعة في جانب منها بستان لا بد فيه من وجود ناقة لبون أو أكثر من بعير.

لبن الناقة:

جلسنا في فناء البيت الداخلي بينما كان أحد أبناء الأخ (محمد كلدي) يحلب لنا الناقة حتى ملأ المحلاب وهو الإناء الذي يحلب فيه ثم جاء بالحليب تكاد تقفز رغوته من فوقه وأخذ الرفاق يشربون من هذا القدح الواحد تحلة القسم.



صورة رقم (١٧): ناقة في منزل الشيخ محمد كلدي في عشق آباد

وعلى ذكر أولاده أخبرنا أن له اثنى عشر ولداً منهم ٦ أبناء و٦ بنات وكلهم يقرأون القرآن الكريم وفيهم حافظ للقرآن وابنة تتلو القرآن تلاوة مجودة بحيث اشتركت في مسابقة لتلاوة القرآن الكريم وتجويده أقيمت في طشقند.

ولم يقتصر وجود الإبل في فناء هذا البيت الشبيه بالبستان الواسع على الناقة اللبون التي رأينا معها ولدها، وأنما كان فيه بعير آخر.

وفي البيت أيضاً طائفة من الشياه وعدد كبير من البط ومن الطريف أننا رأينا عدداً من الطيور الوحشية وهي البرية غير المربتة تنزل قرب البط،

وتأكل من طعامها وتظرف أحد الرفقاء فقال: إنها قد (عزمت) نفسها. وقال آخر: إنها تعرف كرم صاحب البيت.

وقد سألته عن علف هذه الدواب التي في بيته فذكر أنهم يجمعون العشب في الصيف من الصحراء ويخزنونه ليطعموه المواشي في الشتاء أما في هذه الأيام فإن العلف يكون مما زرع في المزارع وهو رخيص.

وقد كرروا لنا ما ذكروه من قبل وهو كثرة الإبل في بيوتهم وأنه قل أن يوجد بيت ليست فيه ناقة للبن.



صورة رقم (١٨): الأستاذ محمد حافظ عضو وفد الرابطة معه قدح لبن الناقة في منزل الأخ محمد كلدي الذي يقف على يساره في عشق آباد

ونياقهم تشبه نياقنا في كونها ذات سنام واحد، وليست كذوات السنامين التي لم أر منها نوقاً تحلب كما تحلب النوق ذوات السنام الواحد.

ولما كان أخونا (محمد كلدي) يشبه العرب في مظهره ولكونه يعيش معيشة تشبه معيشة العرب الأقحاح الذين لم يهجروا كل حياة البدو سألته عما إذا كان يعتقد أن أصله من العرب؟ فأجاب: أنا أحب العرب، ونفى علمه بأنه ينحدر من أصل عربي.

مسجد ومدرسة في المنزل:

انتقلنا إلى مبنى في داخل المنزل يقع في جانب الفناء المكشوف الواسع فجلسنا في مسجد صغير في داخل البيت كان قد اتخذه ليصلي فيه هو وأفراد أسرته ومن يثق به من إخوته المسلمين إبان الحكم الشيوعي الذي لم يكن يجيز بناء مساجد جديدة ويصعب عليهم وأمثالهم الذهاب إلى المسجد الوحيد في ذلك الوقت في المدينة وهو (جامع عشق آباد).

وقد صلى مرافقونا صلاة العصر في هذا المسجد الذي هو صغير غير متسع ولكن له محراب ومفروش بفراش خاص ومنعزل عن بقية المكان بباب يغلق عليه.

وبجانب المسجد غرفة واسعة وغرفة أخرى أعدتا لتكونا مدرسة قرآنية بل هما تستعملان لهذا الغرض إلى جانب المسجد الذي رأينا بعض الطلاب يدرسون فيه أظن أن عددهم يبلغ اثني عشر طالباً عندما وصلناهم كلهم من الصبيان والفتيان الصغار.

وذكروا لنا أن عدد الطلاب الذين يدرسون في هذه المدرسة المنزلية هو عشرون طالباً، وأنهم يقيمون في المنزل ويتناولون فيه طعامهم وشرابهم.

كل ذلك من هذا الأخ الكريم (محمد كلدي) ويساعده أبناؤه على تدريس هؤلاء الصبيان مبادىء الدين الإسلامي وتلاوة القرآن الكريم.

وقد تلا بعضهم تلاوة جيدة والصبيان كلهم نظيف الثوب والبدن وأمارات التغذية الجيدة بادية على وجوههم.

وقد أهدينا لهم تسجيلاً لآيات القرآن الكريم مع جهاز للتسجيل عندما أداروه واستمعوا إلى التلاوة منه سروا سروراً عظيماً لأن مثل هذا الجهاز يصعب عليهم الحصول عليه لكونه لا يباع في بلادهم ويحتاج استيراده من الخارج إلى مبلغ من المال بالعملة العالمية الصعبة وهو ما لا يستطيعون الحصول عليه.



صورة رقم (١٩): في منزل الشيخ محمد كلدي في عشق آباد بجانب حاشي صغير وصقر للصيد

ثم أعلنا لهم أننا نقدم لهم باسم رابطة العالم الإسلامي ألفين وخمسمائة دولار أمريكي نقداً إسهاماً في نفقات المسجد، وألف دولار نقداً للمساعدة على النفقة لهؤلاء الصبيان الذين يتعلمون القرآن الكريم.

وهذا المبلغ على ضآلته عندنا هو عندهم كبير جداً، نظراً لضعف دخولهم وتدني عملتهم، إذ يستطيعون أن يحصلوا به على مبلغ بالعملة المحلية جيد، كما أوضحت ذلك فيما سبق. كما قدمنا شيئاً من التبرع الشخصي بمثابة الهدية لهؤلاء الأبناء الذين يتعلمون القرآن الكريم. وطلبنا منهم أن يحضروا هذه الليلة في بيت نائب القاضي وأن يحضروا معهم خازن الجمعية وهو أمين الصندوق فيها وأختام الجمعية والأوراق التي تثبت أنها مسجلة رسمياً. وذلك لكي نسلم لهم المال في بيت نائب القاضي الشيخ (دردي قليج) وهو رئيس الشؤون الدينية في العاصمة (عشق آباد) لأن القاضي وهو الشيخ (نصر الله بن عباد الله) يقيم في (تاش حوض) وهو رئيس الشؤون الدينية في تركمانستان كلها كما سيأتي.

وقلت موجهاً كلامي للطلاب: إنني أرجو أن تجتهدوا في طلب العلم حتى تتاح لكم أو لبعضكم فرصة الإبتعاث لبلادنا لتكملوا تعليمكم فيها، لأننا نقدم منحاً دراسية للطلاب الناجحين أمثالكم. سواء من رابطة العالم الإسلامي أو من الجامعات السعودية.

فتهللت وجوههم لهذا العرض ودعا المشايخ الكبار لهم بنيل هذا الشرف.

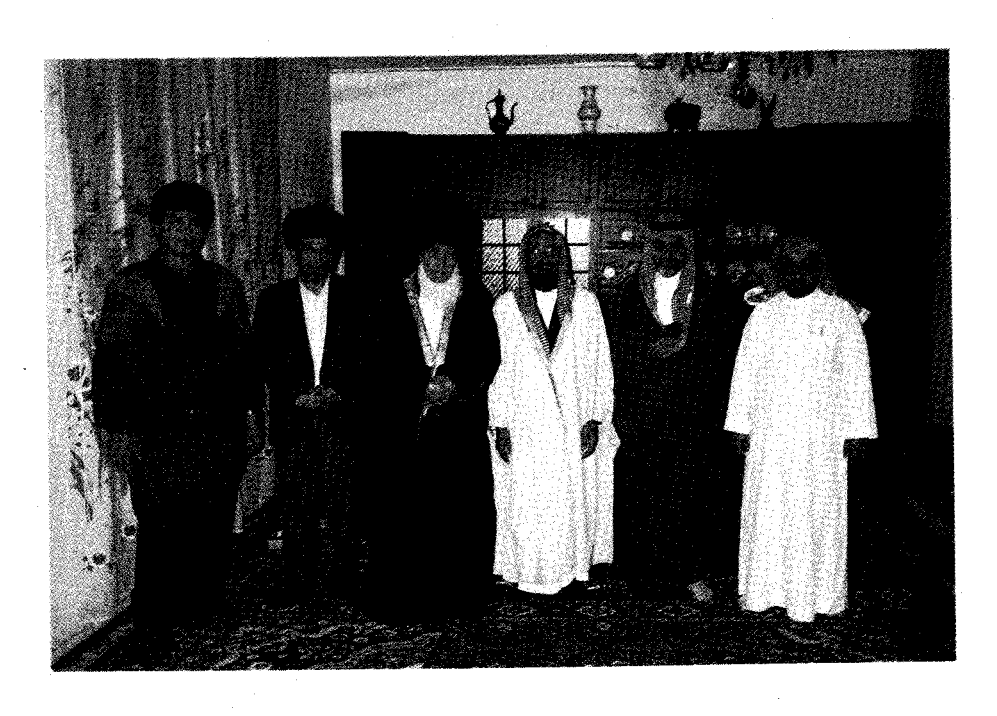
وبهذه المناسبة قال أحد كبارهم: إن إيران عرضت علينا أن تأخذ طلاباً منا على هيئة منح دراسية وأن تعلمهم في إيران بنفقتها ولكننا رفضنا ذلك، ولا نحب أن نرسل أبناءنا إلى إيران للدراسة لأننا من أهل السنة ولا نريد أن يدرس أبناؤنا إلا على مذهب أهل السنة.

أما الذين يسبون أصحاب رسول الله ﷺ فإنه من المستحيل أن نرضى بإرسال أبنائنا إلى بلادهم للدراسة.

وممما يجدر ذكره أن حدود إيران لا تبعد عن العاصمة (عشق آباد) إلا بمسافة ٤٢ كيلومتراً جهة الغرب من العاصمة لكن الحدود كانت مغلقة في أيام حكم الشيوعيين.

العشاء السخي:

عدنا إلى بيت نائب القاضي الشيخ (دردي قليج) مع غروب الشمس، وعندما حان موعد صلاة المغرب وجدناهم أعدوا مكاناً آخر من بيته الواسع لكي نصلي فيه وأخبرناهم أننا سنصلي معهم صلاة المغرب ثم نجمع معها العشاء لكوننا مسافرين.



صورة رقم (٢٠): تذكارية في منزل الشيخ دردي قليج
عليه العباءة العربية التي أهديتها له

وعندما قمنا لأداء الصلاة في المجلس الذي كان في قاعة الإستقبال المستطيلة الواسعة كان جلوسنا فيها على المقاعد التي صفت على الحيطان فوقها السجاد الثمين والحشايا ولكننا عندما عدنا إليه بعد انقضاء الصلاة وجدنا هيئته قد تغيرت إذ مد فيه سماط مستطيل قد فرشت حوله الحشايا، وقد وضعت مقدمات المائدة التي أهمها عندنا العسل المصفى، وألزمها عندهم النقول من الجوز والفستق.

وجاؤوا بالسلطة من الخضرات التي منها أوراق الرشاد الأخضر والجرجير ونبات آخر أحمر الأوراق لا أعرفه إلى جانب البصل الأخضر.

وتبين أن هذه المائدة هي الرئيسية مع أننا أكلنا في بيت الشيخ قبلها مرتين. ولكن معنى كونها الرئيسية عندهم أنها التي تقدم فيها الذبيحة التي ذبحت من أجلنا. وكان أول الأطعمة الحارة الحساء وهو (الشوربة) التركستانية الشهيرة التي تكون دسمة مطبوخاً فيها لحم الغنم اللذيذ، ثم توالت أنواع اللحم ما بين صليق (مسلوق) ومشوي ومقلي.

وبعد الانتهاء من الطعام السخي الوافر كان الدعاء وهذه عادة عامة ي بلاد ما وراء النهر وهي أن يختموا أكثر الأشياء المهمة بالدعاء، ومن ذلك الإنتهاء من الطعام والذي يدعو في العادة هو الضيف يدعو لمضيفيه بما يشاء من أن يكتب الله لهم الأجر، وأن يخلف لهم ما أنفقوا، وحتى الإفتراق بعد اللقاء يختتم بالدعاء قبل الإفتراق، وحتى عند التقاء الأصدقاء اعتادوا أن يبدأوا بدعاء قصير جداً يرفعون في نهايته أيديهم ويمسحون وجوههم ببواطن أكفهم.

ومن الطريف أن دعاء الضيف لأهل المنزل معناه أنه سيذهب عنهم، مثلما أن تقديم عود البخور عندنا معناه الإذن للضيف بالإنصراف.

سليم المساعدات المالية:

اجتمع الإخوة الذين قررنا صرف تبرعات لهم من رابطة العالم الإسلامي مساعدة لهم على مشروعاتهم الإسلامية في بيت نائب القاضي

الشيخ (دردي قليج) وبعضهم حضر معنا العشاء وقد أعطيناهم ذلك بحضور نائب القاضي الذي عرفنا بهم وبشخصياتهم وبمقام كل واحد منهم في الجمعية التي تقوم على ذلك المشروع.

كما كان حاضراً معنا الشيخ (زاهد جان) نائب مدير الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر التي مقرها في طشقند وهو يرافقنا في رحلتنا هذه إلى تركمانستان.

وكان من بين الإخوة الذين حضروا الأخ (محمد كلدي) الذي يقوم على بناء مسجد الإمام الأعظم وكنا قبل قليل من الوقت في منزله، وكان حدثنا عن ابنة له قارئة للقرآن مجودة للتلاوة، وقد أحضرها معه متحجبة بحجاب غريب في هذه البلاد غربة الدين الإسلامي فيها قبل أن يخذل الله الشيوعيين، وتنال البلاد استقلالها عنهم، فجلست في غرفة مجاورة منفردة ليس معها إلا أحد إخوتها. ثم تلت آيات كريمة من القرآن الكريم تلاوة مجودة متقنة لا يتقن مثلها إلا من تدرب على التلاوة زمناً طويلاً وأتقن علم التجويد وعرف أحكامه.

كانت تتلو القرآن ونحن لا نرى من شخصها شيئاً لأنها في غرفة أخرى مجاورة ولم نر منها شيئاً إلا حينما مرت داخلة للغرفة وخارجة منها، وكانت متحجبة حجاباً كاملاً، ومع ذلك سمعنا تلاوتها ونحن لا نرى شخصها مما ذكرني بما سمعته عن نساء الخلفاء العباسيين ومن بعدهم من كونهم يتحدث الناس إلى نسائهم من وراء ستارة، حتى بالنسبة إلى بعض الجواري المغنيات كن يغنين من وراء ستارة بحيث يسمع الناس غناءهن دون أن يروا من أشخاصهن شيئاً، ولا ينقص ذلك شيئاً من تمتعهم بالغناء.

وليس معنى هذا مساواة قراءة القرآن من وراء ستارة بالغناء من وراء الستارة ولكنهم كانوا في القديم يكلون قراءة القرآن إلى قراء من الرجال، بخلاف الغناء الذي كان مشتركاً من الرجال والنساء. وإن كان كل من الجنسين على حدة.

يوم الثلاثاء ٣/ ١١/ ١٤١٢هـ ـ ٥/ ٥/ ١٩٩٢م:

صباح بلاد العشق:

ولم يكن لنا في صباح (بلاد العشق) ولا مسائها ما يعني العشق أو ما يدانيه، وما نحن من أهل العشق لأننا لم نأت من بلادنا إلى هذه البلاد وما جاورها لنعشق أحداً، وما كان أحد فيها ولا في غيرها ليعشقنا، لا لشيء إلا لكوننا تجاوزنا مرحلة العشق والعاشقين. وإنما كان صباح العشق دسماً بل مليئاً بالدسم.

فقد نمنا في غرف واسعة من بيت مضيفنا الكريم الشيخ (دردي قليج) على مضربات مفروشة على الأرض، فوقها الأغطية الصوفية الوثيرة، وكل ذلك نظيف مرتب، وكان نومنا مبكراً، لذلك كان صباحنا مبكراً صلينا في أوله صلاة الفجر مبكرين، ثم وجدنا السماط قد مد في قاعة الجلوس الكبيرة المستطيلة وقد حفل بما لذ وطاب من أطعمة حارة وباردة كان منها اللحم والشحم والسمن والمرق والعسل والبيض، ومع ذلك البطاطس، وخبزهم الغليظ الذي يظل أياماً وهم يأكلون منه، ومع الجميع المكسرات الدسمة، وحتى الشاي أحضروه نوعين أخضر وأحمر.

جولة في عشق آباد:

استأنفنا الجولة على مدينة (عشق آباد) فنزلنا من الأحياء الشعبية المرتفعة غير المخططة إلى وسط المدينة ذي التخطيط الجيد، والأبنية

الإسمنتية المتعددة الطبقات. شوارعه مزفلتة، وفيه أرصفة لا بأس بها بالنسبة إلى الأرصفة في البلدان الشيوعية، التي انكشف عوارها عندما انكشف زيف مذهبها. فتبين أنها قد عولت على الكذب في الدعاية عن التقدم والرفاهية في العيش أكثر مما عولت على العمل، ولكنها سترت ذلك بستر حديدية كثيفة، لم يستطع الذين يعيشون في عوالم حرة أن يخترقوها في وقت طغيان الشيوعية.

وأهم ما يميز القسم المعتنى به من المدينة وجود التشجير في شوارعه وميادينه.



صورة رقم (٢١): مع الشيخ دردي قليج في الميدان الجيد في عشق آباد

المكتبة العامة:

رأينا المكتبة العامة في مبنى واسع جميل المظهر يطل على ميدان منسق من أهم ميادين المدينة، وكان بي شوق إلى الإطلاع على المخطوطات العربية التي ربما تكون موجودة في هذه المكتبة العامة غير أن الوقت لم يسعفنا بذلك لأننا سوف نسافر في هذا الصباح إلى منطقة (تاش حوض) إضافة إلى كون المكتبة لا تفتح أبوابها في هذا الوقت المبكر، فالتقطنا صوراً تذكارية في هذا الميدان المهم مع الإخوة المرافقين في هذا المكان الجيد من المدينة.

ومررنا بقصر رئيس الجمهورية الذي يقع أمام حديقة واسعة ذات أشجار باسقة قد تعانقت فروعها فوق أرض الحديقة.

ثم عطفنا يساراً إلى (جامعة مختوم بولي) وهو شاعر تركماني، سموا الجامعة باسمه تكريماً له.

ويقع أمامها جزء من الحديقة نفسها لأنها واسعة ممتدة.

وكان عدد المارة قليلاً في الشوارع في هذه الساعة المبكرة من الصباح التي هي بعد السادسة بقليل.

ومررنا بمحطة للسكك الحديدية تذهب القطارات منها إلى موسكو، وإلى سائر أنحاء بلاد ما وراء النهر، وتقع المحطة أيضاً في منطقة جيدة ليست كالأحياء التي رأيناها أمس مهملة بدون تخطيط أو مرافق، ولا يعاب أهلها بأنهم فقراء، لأن الفقر ليس بعيب وهو موجود في بلدان كثيرة، هذا إذا سلمنا بأن الإتحاد السوفييتي كان بلداً فقيراً رغم موارده الضخمة التي منها النفط والغاز، وإنما العيب هو في الإهمال وعدم العناية بتخطيط هذه الأحياء، وتنظيمها.

ومررنا بنفق لم نر نفقاً آخر غيره في هذه المدينة التي تقل فيها الجسور أيضاً، وكيف تكثر الجسور في مدينة تكاد تعتبر ضواحيها من ضواحي الصفيح؟

آزادي مسجد:

وهو منسوب إلى الحي الذي يقع فيه واسمه (دولت محمد آزادي) وقد يسمي بعضهم المسجد بمسجد القطريين، لأن الإخوة من أهل قطر تبرعوا بنفقات إقامة هذا المسجد كلها وقد اكتمل المسجد، في بناء جيد. وتمنيت أن أرى مسجداً لأحد الإخوة السعوديين من أثريائنا المحبين للخير.

ولذلك سألتهم وعلى رأسهم نائب القاضي الشيخ (دردي قليج) الذي يتابع مثل هذه الأمور عما إذا كانوا يعرفون أن أحداً من السعوديين من غير رجال الحكومة قد حضروا لديهم وتبرعوا بمبالغ مالية للمساجد فلم يذكروا إلا شخصاً يعرفون اسمه الأول (عبد الله) ذكروا أنه قدم إلى (تركمانستان) الصيف الجاري وأنهم اتصلوا به يطلبون منه المعونة فأعطاهم ثمانين دولاراً.

ولا شك في أن هذا الرجل ليس من المعنيين بشؤون المساجد، وإلا فإن مجموع ما قدمناه نحن من رابطة العالم الإسلامي في هذه السفرة وحدها ومنه ما سيأتي الكلام عليه من التبرعات للمساجد والمدارس في منطقة (تاش حوض) يزيد على ثلاثين ألف دولار. وقد أخبرناهم بأن هذا بمثابة المقدمة لعطاء يتبعه في حال ما إذا أنشئت مساجد جديدة أو أن المساجد والمدارس القائمة احتاجت إلى المزيد من المساعدة في المستقبل.

مسجد أبي بكر الصديق:

ويقع في شارع سيفر نايار وتعني الشمالي، وهو شارع واسع ومستقيم ومعبد ولكنه غير مزفت. وكذلك البيوت التي عليه وحوله هي في مستوى متوسط من حيث البناء والمظهر.

وهذا المسجد لم يتم بناؤه بعد، وجدنا في المسجد الأخ الشيخ

شير محمد القائم على عمارة هذا المسجد، وهو يعرف العربية جيداً، ونشيط في عمله.

شرح لنا أمر هذا المسجد الذي ارتفع إلى مستوى التسقيف ثم وقف بسبب قصور النفقة فذكر أن أصل بنائه باتفاق مع ممثل هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في جدة الذي التزم بدفع نفقات بناء المسجد التي تقدر بعشرة آلاف دولار أمريكي دفع منها في أول الأمر ثلاثة آلاف دولار وعاد للمملكة، وإنهم أنفقوا هذه الآلاف الثلاثة من الدولارات حتى وصل البناء إلى هذه المرحلة التي ترونها وهي مرحلة متقدمة.



صورة رقم (٢٢): مع الشيخ شير محمد
متولي مسجد أبي بكر الصديق في عشق آباد

قال: وقد توقف العمل في المسجد الآن لقصور النفقة، ونحن ننتظر أن ترسل هيئة الإغاثة باقي المبلغ على قسطين كما هو المتفق عليه لنمضي في إقامة المسجد.

كما ذكر أنهم يخططون الآن لبناء مدرستين بجانب المسجد إحداهما للبنات وأخرى للبنين وتقدر النفقات اللازمة للمدرستين كلتيهما بعشرة آلاف دولار.

وقد وعدناهم بأن نبحث الأمر مع هيئة الإغاثة الإسلامية عندما نعود إلى المملكة ولا نشك في أن الهيئة سوف تفي بوعدها وإلا لكنا قدمنا لهم ما يستأنفون به البناء، ثم ما يكملونه به بعد ذلك.

وهذا المسجد واقع في ضاحية مستوية الأرض تماماً من ضواحي العاصمة، وليست كالأحياء الشعبية التي رأيناها أمس واقعة في أماكن مرتفعة، بل هي غير مستوية الأرض.

الإبل في طريق المطار:

لا يبعد مطار عشق آباد كثيراً عن ضواحيها، فهو لا يزيد بعده عن خمسة كيلومترات عن الحي الذي فيه مسجد أبي بكر الصديق وهو الذي انطلقنا منه إلى المطار، ومع ذلك فإن المساحة بين هذا الحي والمطار هي أرض خالية من المنازل والبساتين، بل هي خلاء صحراوي معشب رأينا فيه أعداداً من الإبل ترعى عشبه كما ترعى في الصحراء، ورأينا أيضاً قطعاناً من الغنم فيه.

وعندما رأيت ذلك تبادر إلى ذهني الشبه الكبير ما بين هذه الأرض وبين أرض نجد، لولا خضرة الربيع هنا التي لا توجد في نجد إلا إذا جادها الغيث وتتابع فأعشبت كلها، وعرفت أيضاً أن الأحياء الشعبية غير الجيدة التي رأيناها أمس تعتبر تطوراً متقدماً بالنسبة إلى حياتهم البدوية السابقة التي كانوا فيها يشدون رحالهم في انتجاع العشب، ويسيمون أنعامهم في الصحراء طول الوقت.

وطبيعي أن الكلام هنا هو على أكثر السكان وإلا فإن هناك طائفة منهم هم من أهل الحضر الذين يزرعون الأرض ويعملون في فلاحتها وأناس من سكان المدن القليلة في البلاد.

وصلنا المطار بسرعة وجلسنا في (قاعة كبار الزوار) التي كنا جلسنا فيها عند الوصول ولحق بنا فيها بعض المشايخ الذين التقينا بهم أمس جاؤوا لتوديعنا في المطار جزاهم الله خيراً.

إلى تاش حوض:

صعدنا وقد زاد وفدنا واحداً إذ انضم إلينا الأخ (محمد صالح) (سكرتير) قاضي تركمانستان الشيخ (نصر الله بن عباد الله) وكان الشيخ نصر الله قد أرسله إلى (عشق آباد) نائباً عنه في مرافقتنا إلى هناك لكونه لم يستطع أن يحضر بنفسه كما قال.

وجدنا الطائرة من طراز توبوليف ١٣٤ الجيد وهي تشبه طائرة بوينغ ٧٢٧. إلا أننا وجدنا الطائرة مزدحمة بالركاب جداً وقد قاربوا مقاعدها لكونها مخصصة للرحلات الداخلية حتى كادت تكون في تقاربها كمقاعد الطائرات الهندية التي تطير على خطوط داخلية هناك.

وقد وجدت رائحة من الصنان لأبدان الركاب ذكرتني بروائح كنت أشمها من سكان الصحارى الذين لا يتوافر الماء لديهم، أو كانوا كذلك في القديم، فبقوا على ما كانوا عليه، ولو توفر لهم الماء، مثل أهل الصحراء الإفريقية الذين يأتون إلى بلادنا التي يتوافر فيها الماء في البيوت والأماكن العامة كما يتوافر في البلدان ذات الأنهار الجارية وبأثمان زهيدة فلا نرى أولئك الصحراويين يستعملون الماء في الإستحمام وتنظيف أبدانهم، لذلك يجد من يمر بهم فضلاً عمن يجالسهم من رائحة الصنان ما يزكم أنفه، ويؤذي عينه.

وأكثر الركاب إن لم يكونوا جميعهم هم من الوطنيين التركمانيين،

بخلاف ركاب الطائرة التي قدمنا عليها من طشقند إلى عشق آباد فإن أكثرهم من الروس وأشباههم من الأوروبيين الشرقيين.

كان قيام الطائرة في الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحاً متأخرة ٢٥ دقيقة عن الموعد المحدد لقيامها في الأصل وهو الثامنة.

ومع أن الركاب كلهم من الوطنيين إن لم نقل إنهم من القرويين أو البدو الصحراويين فإن فيها مضيفتين روسيتين، ولا أدري لم لم يختاروا لها مضيفة أو مضيفاً من أهل البلاد.

التجارة في الطائرة:

عندما استوت الطائرة في الجو انتظرنا من باب المعرفة والإطلاع أن نعرف نوع الضيافة التي يقدمونها للركاب في هذه الرحلة الداخلية فلم نجدهم قدموا شيئاً مع أن الوقت هو وقت إفطار فهو الثامنة والنصف صباحاً.

وهذه عادة عرفناها من الطائرات السوفييتية عندما كان الإتحاد السوفييتي قائماً وهي ألا يقدموا الطعام إلا في رحلة تزيد مدتها على ثلاث ساعات، ولكنني ظننت أن أهل هذه البلاد قد غيروا هذه العادة بعد أن استقلوا، وزعموا أنه أصبحت لهم خطوط طيران خاصة بهم أسموها في هذه الجمهورية (خطوط طيران تركمانستان) وهذا شيء قالوه في أحاديثهم وبعض أوراقهم، ولكنه لم يصل بالفعل إلى الطائرات التي يستعملونها في هذه الخطوط فما زالت تحمل اسم (ايروفلوت) السوفييتية السابقة وشعارها. ولم يكتبوا عليها شيئاً لجمهورية تركمانستان ولا الاسم مثلهم في ذلك مثل إخوانهم وجيرانهم شركائهم في الإتحاد السوفييتي المنهار أهل (أوزبكستان).

وبديلاً من الضيافة أخذت المضيفتان تعرضان على الركاب أنواعاً منوعة من البضائع للبيع عليهم وهي مقادير كبيرة شملت فيما شملته

الجوارب والملابس الداخلية والعطر والحقائب اليدوية للنساء، ورأيت الركاب يقبلون على شراء هذا السلع من المضيفات بكثرة. وظننت أن ذلك لعدم توفرها في مخازن البيع الحكومية التي كانت هي التي تبيع مثل هذه السلع بشكل مكثف للجمهور.

وعلى ذكر الضيافة ينبغي أن نذكر شيئاً من السبب في عدم تقديمها وهو رخص التذاكر فبين عشق آباد وتاش حوض ٤٠ دقيقة بهذه الطائرة النفاثة التي تقطع حوالي تسعمائة كيلومتر في الساعة أي أن بينهما حوالي (٦٠٠) كيلومتر ومع ذلك لم تزد قيمة التذكرة للمواطنين على (٢٠٠) روبل وذلك يساوي بالصرف الرسمي دولاراً وثلث الدولار أو خمسة ريالات سعودية. إلا أنها بالنسبة إلى رواتبهم ومستوى دخولهم التي يتقاضونها بهذا الروبل مبلغ كبير إذ تساوي حوالى ثلث الراتب الشهري للعامل غير الماهر.

من خراسان إلى ما وراء النهر:

يقع جزء من جمهورية تركمانستان في خراسان القديمة ويقع جزء آخر منها فيما وراء النهر، الذي هو نهر جيحون المسمى الآن عندهم (أموداريا).

وهذا كله بحسب اصطلاح القدماء، وإلا فإن الصحيح أنها تعتبر كلها من بلاد ما وراء النهر من الناحية العرقية والثقافية والتاريخية، وأهلها لا يشبهون أهل خراسان فهم من أصل تركي ويتكلمون فرعاً من اللغة التركية، هي اللغة التركمانية.

ومع ذلك اخترقنا الفضاء فوق نهر جيحون فانتقلنا مما كان دونه بالنسبة إلى بلادنا إلى ما ورائه بالنسبة إلينا أيضاً.

ونهر جيحون نهر عظيم لم أرض في زيارتي السابقة لجمهورية أوزبكستان برؤيته من الطائرة ولا بمشاهدته من ضفافه على الأرض إلا بأن

امتطي غاربه وأشق عبابه، فتكفل إخواننا أهل أوزبكستان بذلك وجهزوا قارباً تجولنا به في هذا النهر العظيم في أمسية من أمسيات الصيف الحارة في تلك البلاد. وقد ذكرت ذلك في كتاب: «في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر» وكتاب «يوميات آسيا الوسطى».

واليوم رأيته من الطائرة وكأنما كنت أراه لأول مرة لأنه نهر تاريخي إن صح التعبير قد ذكره مؤرخونا الكبار ونوه به البلدانيون من أسلافنا العرب، بل كثير منهم ذكروه عن مشاهدة ومعرفة ومنهم ياقوت الحموي وابن بطوطة الطنجي.

قال ياقوت:

جَيْحُونُ: بالفتح، وهو اسم أعجمي، وقد تعسف بعضهم فقال: هو من جاحه إذا استأصله، ومنه الخطوب الجوائح، سمي بذلك لاجتياحه الأرضين؛ قال حمزة: أصل اسم جيحون بالفارسية هرون، وهو اسم وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جَيهان فنسبه الناس إليها وقالوا جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ، وقال ابن الفقيه: يجيء جيحون من موضع يقال له ريوساران، وهو جبل يتصل بناحية السند والهند وكابل[1]، ومنه عين تخرج من موضع يقال له عندميس، وقال الإصطخري: فأما جيحون فإن عموده نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وَخّاب من حدود بذخشان وينضم إليه أنهار في حدود الخُتل ووَخش فيصير من تلك الأنهار هذا النهر العظيم وينضم إليه نهر يلي جرياب يسمى بأَخْش، وهو نهر هُلْبُك مدينة الختّل، ويليه نهر بربان والثالث نهر فارعي والرابع نهر أنديخارع والخامس نهر وَخْشاب، وهو أغزر هذه الأنهار، فتجتمع هذه الأنهار قبل أن تجتمع مع وَخشاب وقبل القِوَاديان ثم ترتفع إليه بعد ذلك أنهار البُتّم وغيره، ومنها أنهار الصغانيان وأنهار القواديان فتجتمع كلها وتقع إلى جيحون بقرب القواديان.

---

(١) يعني جبال الهملايا.

وماء وخشاب يخرج من بلاد الترك حتى يظهر في أرض وَخش ويسير في جبل هناك حتى يعبر قنطرة، ولا يُعلَم ماء في كثرته يضيق مثل ضيقه في هذا الموضع، وهذه القنطرة هي الحد بين الختّل ووَاشْجِرْد، ثم يجري هذا الوادي في حدود بلخ إلى التّرمذ ثم يمر على كالف ثم على زَمّ ثم آمل ثم درغان، وهي أول أرض خوارزم، ثم الكاث ثم الجرجانية مدينة خوارزم.

ولا ينتفع بهذا النهر من هذه البلاد التي يمر بها إلا خوارزم لأنه يستقبل عنها، ثم ينحدر من خوارزم حتى ينصب في بحيرة تعرف ببحيرة خوارزم، وهي بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام.

وهو في موضع أعرض من دجلة، وقد شاهدته وركبت فيه ورأيته جامداً، وكيفية جموده أنه إذا اشتد البرد وقوِيَ كَلَبُه جمد أولاً قطعاً ثم تسري تلك القطع على وجه الماء فكلما ماسَّت واحدة الأخرى التصقت بها ولا تزال تعظم حتى يعود جيحون كله قطعة واحدة، ولا يزال ذلك الجامد يثخن حتى يصير ثخنه نحو خمسة أشبار وباقي الماء تحته جارٍ، فيحفر أهل خوارزم فيه آباراً بالمعاول حتى يخرقوه إلى الماء الجاري ثم يستقوا منه الماء لشربهم ويحملوه في الجرار إلى منازلهم فلا يصل إلى المنزل إلا وقد جمد نصفه في بواطن الجَرَّة.

فإذا استحكم جمود هذا النهر عبرت عليه القوافل والعجل بالبقر(١)، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق حتى رأيت الغبار يتطاير عليه كما يكون في البوادي، ويبقى على ذلك نحو شهرين فإذا انكسرت سَوْرة البرد تقطَّع قطعاً كما بدأ في أول مرة إلى أن يعود إلى حالته الأولى، وتظل السفن في مدة جماده ناشبة فيه لا حيلة لهم في اقتلاعها منه إلى أن يذوب، وأكثر الناس يبادرون برفعها إلى البر قبل الجماد، وهو يسمى نهر

---

(١) يريد العربات التي تجرها البقر فوق ماء النهر الجامد.

بلخ مجازاً لأنه يمر بأعمالها، فأما مدينة بلخ فإن أقرب موضع منه إليها مسيرة اثنى عشر فرسخاً. انتهى كلامه.

الهبوط في تاش حوض:

هبطت الطائرة في مطار (تاش حوض) في التاسعة وخمس دقائق صباحاً بعد طيران استغرق ٤٠ دقيقة. وجدنا الجو فيها شامساً دفيئاً، بل إنه الجو الصحراوي الذي نعرفه في بلادنا في أواخر فصل الشتاء حيث أن الشمس حارة، والهواء فيه من برودة آخر الشتاء نصيب. وكانت بي حاجة إلى الدفء مع أن الفصل هنا هو فصل الربيع، وذلك لما عانيناه من شدة البرد الذي وصل إلى نزول الثلج في مدينة (بشكك) عاصمة جمهورية (قيرغزستان) التي كنا فيها قبل الوصول إلى تركمانستان، وذكرت ذلك في كتاب: «حديث قيرغزستان».

وجدنا في الإستقبال في المطار الشيخ (نصر الله بن عباد الله) قاضي تركمانستان بمعنى أنه هو مرجع الشؤون الدينية فيها ويقيم في (تاش حوض) حيث مقر الإدارة الدينية التركمانية، و(عباد الله) بصيغة الجمع هو اسم والده. ومعه جمع من الإخوة المسلمين المستقبلين، وقدموا فوراً عدداً من السيارات ركب فيها معنا الشيخ (نصر الله) وهو يعتذر عن عدم استقبالنا في (عشق آباد) بسبب اجتماع هام كان مقرراً من قبل مع ممثلي الحكومة وممثلي الحجاج لبحث أمور الحج هذا العام.

سار الموكب من المطار إلى المدينة وتبلغ المسافة بينهما (١٧) كيلومتراً، إلا أن ذلك كله في جو صحراوي خالص لولا بعض المظاهر الزراعية التي تكون بقرب قنوات صغيرة مستمدة من قناة أكبر شقت من نهر جيحون إلى (تاش حوض) ومن ذلك أن طريق المطار ليس عليه شيء من الشجر. وإنما رأينا عن يمين الطريق ويساره بعض البرسيم وأعلاف الحيوان الخضر لفترة انقطع بعدها ورأينا رملاً وطرفاء وهي نوع رديء من

الأثل، وإن كان بنو قومنا لا يعتبرونها من الأثل، وتنبت الطرفاء عادة في الأراضي الملحة وأطراف السباخ.

والأوضح ظهوراً في الجو الصحراوي هنا هي أشجار الحمض الموجودة في بلادنا وبخاصة في نجد.

ولكن المنطقة أخصب من صحرائنا لسببين أولهما نزول الثلج عليها في الشتاء الذي يخلف ذوبانه أعشاباً خضراً من أعشاب الربيع وإن لم تكن كثيرة بسبب ملوحة الأرض، والثاني: تلك القناة التي شقوها من نهر جيحون (أموداريا) إلى المنطقة.



صورة رقم (٢٣): الطريق يشق الصحراء في تاش حوض

ولذلك رأينا قناة من الصرف مفعمة بمياه الصرف الملحة وغالباً ما يوجهون تلك القناة إلى أماكن منخفضة في الصحراء أو يرسلونه بعيداً إلى مجرى النهر بعد أن يتجاوز العمارة حيث يصب في (بحيرة خوارزم) التي تسمى الآن (بحيرة أورال) بفتح الهمزة، وقومنا القدماء لا يعرفونها إلا باسم (بحيرة خوارزم) أو (بحر خوارزم).

ولهذا السبب وأسباب أخرى عديدة نشأت عن عدم العناية بمصالح الناس ولا بالنظر إلى المستقبل تسممت مياه هذه البحيرة حين صارت مشبعة بمياه الصرف وبالمياه المستعملة التي تحفل ببقايا الأسمدة الكيماوية وأدوية مكافحة الآفات الزراعية التي تسلط على النهر فيحملها معه إلى البحيرة.

إضافة إلى تقلص حجمها الذي نتج عن زيادة ضخ المياه العذبة من النهرين الكبيرين اللذين يصبان فيها وهما نهر (جيحون) هذا، ونهر (سيحون) الذي يسمى الآن (سر داريا) حيث تركزت السموم والمعادن الضارة في مياهها فصارت تتبخر مع حرارة الشمس وتنتشر الأدواء الفتاكة الضارة وبخاصة على الأطفال والنساء الحوامل.

هذا بالإضافة إلى ما يحمله الهواء إلى هذه البحيرة والأجواء المحيطة بها من سموم الغبار الذري الناتج عن التفجيرات الذرية السوفييتية السابقة في برية (قازاقستان) التي كان أسلافنا المؤرخون العرب يسمونها (برية قفجاق) وذلك تعريب لاسمها المحلي آنذاك (دشت قفجاق) والدشت بلغتهم هو البرية ذات الطبيعة الصحراوية.

وقد هلك (القفجاق) المذكورون الذين هم طوائف من الترك القدماء كانت حياتهم تعتمد على الرعي والتنقل فَحلَّ محلهم (القازاق) وهم طوائف من ذوي الأصول التركية والتتارية غلب عليهم هذا الاسم في العصور الوسيطة وسكنوا في هذه البرية أو على الأصح اختصوا بها ولهم الآن جمهورية (قازاقستان) وإن كانوا لا يؤلفون الأغلبية من بين سكانها فإنهم أهلها الأصلاء إذ يبلغ عدد سكان جمهورية قازاقستان في الوقت

الحاضر (١٧) مليوناً منهم سبعة ملايين من القازاق وسبعة ملايين من الروس والروس البيض والأوكرانيين والألمان ونحوهم من الأوروبيين غير المسلمين. أما الملايين الثلاثة الباقية فإنها لأقوام من المسلمين سكان ما وراء النهر من الأوزبك واليوغور والقيرغز وأمثالهم.

وتتقاسم جمهوريتا أوزبكستان وقازاقستان شواطىء (بحيرة خوارزم) هذه، وإن كانت البحيرة آخذة الآن في التقلص والجفاف.

هذا ومن المناظر المألوفة في البادية ورأيناها هنا منظر فلاحة عليها ثوبها الطويل، والثياب الطويلة ظاهرة هنا، بل هي اللباس الوطني للمسلمات وطولها لا ينزل بها عن الكعبين فنساء هذه البلاد لا يعرفن جرجرة الذيول، وهذه الفلاحة تجمع أعواد الحطب من الأرض كما تفعل الأعرابيات عندنا، وبيوت من بيوت الطين مثل التي كانت موجودة عندنا إلا أن البيوت الطينية في هذه البلاد هي ذات سقوف مسنمة من أجل أن تنزلق عنها الثلوج في الشتاء، وسقوفها من الصفيح الذي يكون غالباً قد ركبه الصدأ.

وشيء مهم أيضاً وهو أن لافتات الطريق وإشاراته مكتوبة كلها بالحروف الروسية التي تسمى السريلية أو السلافية وهي حروف جاءت إلى روسيا من بلغاريا حتى ولو كان بعضها باللغة التركمانية. لأن الروس كانوا قد فرضوا على هذه البلاد المسلمة أن تكتب لغتها وغيرها بالحروف الروسية وحدها.

مدينة تاش حوض:

أول ما رأيناه منها أبنية حكومية متعددة الطوابق، حسنة المظهر، ذات طلاء مناسب للصحراء وهو لون «الشاي» بالحليب، وسيارات عديدة من الحافلات والناقلات الكبيرة القوية وأما سيارات الركوب فقد لاحظنا أنها هنا أقل منها في (عشق آباد).

قصد الأخ القاضي نصر الله عباد الله بنا بيته فوجدناه واسعاً جميل

الفراش، سري المظهر، ودخلنا إلى قاعة الجلوس فإذا فيها الخوان موضوع وهو طويل عليه ما لذ وطاب من طعام وشراب. ولا يصدق القارىء الكريم أو لا يتصور الأطعمة والأشربة التي على هذه المائدة إلا إذا ذكرتها ففيها من النقول وهي المكسرات فول سوداني ولوز و(قعقع) وهو الجوز المسمى (عين الحمل) وفستق.

وفيها من الفواكه المجففة الزبيب والتين، ومربى التوت.

ومن أنواع الحلوى: سكر النبات وحلوى مغلفة ومربى.

وفيها من الخضرات الخيار والطماطم، والبصل والفجل والشبث وهو الذي يصنع منه (الكراويا) وتسميه العامة في نجد (الحلوة) أو حبة الحلوة وقومنا لا يستعملونه أخضر مثل ما يستعمله القوم هنا، وإنما كانوا يخلطون حبه بأبازير الطعام كالكمون والكزبرة.

وأما الشاي فإنه الشاي المعروف عندهم الذي لا يضعون فيه السكر الأبيض وإنما يحليه بعضهم بسكر النبات وهو خفيف غير ثقيل.

أمعنا في الأكل من هذه المائدة السخية والساعة في حدود العاشرة وإذا بالأنواع الحارة من الطعام تأتي وفيها دجاج ضخم ولحم ذبيحة كاملة، إلى جانب خبزهم الضخم.

وكان عدد الحاضرين يصل إلى عشرة ومن بينهم أخ من خوارزم المجاورة مولود في سوريا لأن والده هاجر إلى هناك هرباً بدينه من الشيوعية مثلما فعل كثير غيره من أهالي بلاد ما وراء النهر، فسموه في سوريا البخاري مثلما نسمي غيره بالبخاري إذا كان من تلك المنطقة، وإن لم يكن من أهل بخارى واسمه (محمود نور عبد الله البخاري) وقد جاء إلى هذه البلاد التي هي بلاد آبائه وأجداده ليدعو إلى الله فيها مبتعثا من مؤسسة الراجحي في المملكة وقد أخبرني أن مدينة (بيرون) التي نسب إليها العالم الكبير (أبو الريحان البيروني) معروفة الآن بهذا الاسم وأنها تبعد (٥٠) كيلومتراً من هنا، هكذا قال.

وعندما ذكرت له موضوع المخطوطات التي قد تكون هنا لكون هذه البلاد كانت في القديم أشبه بخزانة الكتب العربية في كافة الفنون كما حكى ياقوت الحموي عن خزائن مدينة (مرو) التي تسمى الآن (مرا) وتقع جهة الجنوب من عاصمة (خوارزم) وهي (أوركنج) بحوالي خمسمائة كيلومتر أنها حافلة بكتب يعجز الوصف عن ذكر حقيقتها إلا أنه ذكر أن معظم ما ذكره في كتابه (معجم البلدان) مستفاد من مكتبات تلك المدينة ذكر ذلك في رسم (مرو) من معجم البلدان.

ولكنه ومن استمع إلى حديثنا من طلبة العلم أهل هذه البلاد ذكروا أن كثيراً من المخطوطات المتعلقة بالحديث والفقه والتفسير والعقائد قد أتلفها الشيوعيون ومنها أشياء أتلفها الزمن والتصرف غير المناسب الذي مبعثه الخوف من الشيوعيين حتى ذكروا أن طلبة العلم كانوا يدفنون الكتب في القبور مع الموتى حتى لا يصل إليها الشيوعيون وكذلك دفنوها في الأرض وبعضها دفنوه في حيطان المنازل أي بنوا عليها الحيطان، وقد تلف بعض ذلك بسبب الرطوبة وغيرها المتعلقة بسوء الخزن.

وقد تحدثوا عن رجل ذكر أنه حاول أن ينقل حمل بعير قوي من الكتب المخطوطة من بخارى إلى خوارزم في زمن طغيان الشيوعيين غير أنه بلغه أنها ستصادر هناك فدفنها في الصحراء وضاع مكانها.

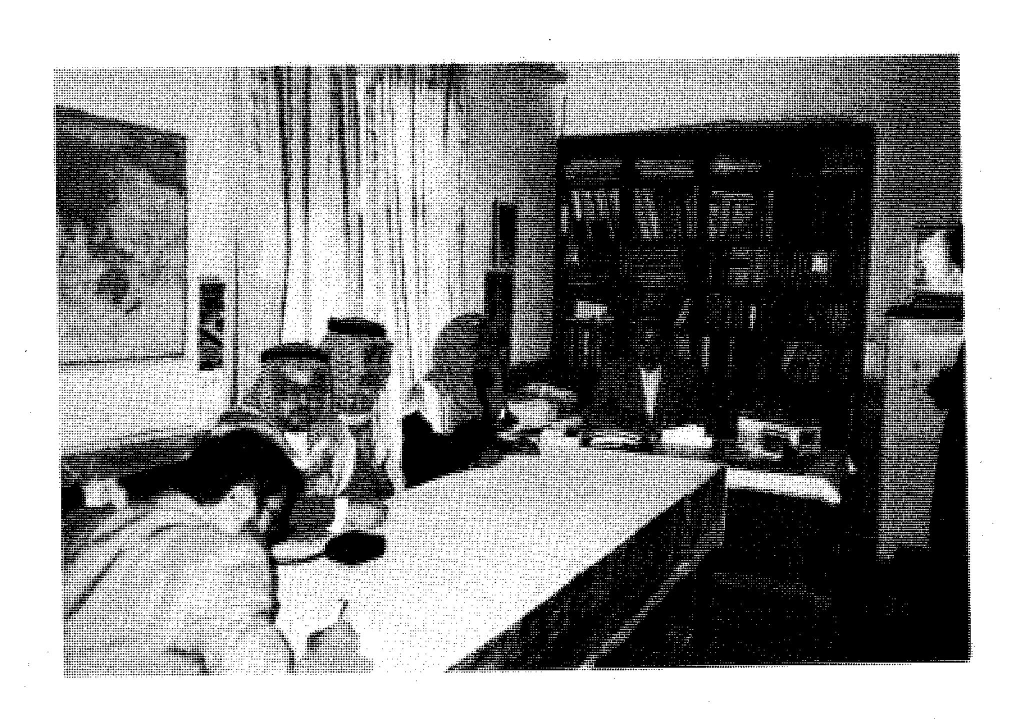
مدرسة محمود الزمخشري:

انتقلنا من بيت الشيخ (نصر الله بن عباد الله) قاضي تركمانستان مع شوارع مدينة تاش حوض التي أكثر ما فيها من الأشياء الجيدة سعة شوارعها، ومررنا بشارع فيها واسع جداً واقع في قلب المدينة، وربما لا توجد فيها صفات من صفات الشوارع الجيدة غير السعة.

ثم مزرنا فوق جسر على قناة كبيرة قادمة من نهر جيحون (أمورداريا) لتغذي منطقة (تاش حوض) وما كان منها شمالاً بالمياه.

ووقفنا عند (دار القضاء) كما يسميها بعضهم وهي الإدارة الدينية

أيضاً، وبعضهم لا يسميها الإدارة الدينية على اعتبار أن الإدارة الدينية الرئيسية هي (إدارة مسلمي ما وراء النهر) التي تقع في طشقند. وأما هذه فإنها كالفروع لها إلا ما كان من جمهورية (قازاقستان) فإن القاضي فيها وهو الشيخ (راتب بيك) قد استقل بها، وقطع صلتها بالإدارة الدينية في طشقند مدعياً أنه ما دام أن جمهورية (قازاقستان) قد استقلت مثلما استقلت أوزبكستان لا يجوز أن تبقى الإدارة الدينية فيها مرتبطة بالإدارة الدينية في طشقند وأما بقية الجمهوريات وهي ثلاث هي جمهوريات قيرغزستان وتاجيكستان وتركمانستان هذه فإنها أبقت صلتها بالإدارة الدينية في طشقند التي يرأسها صديقنا الشيخ محمد صادق محمد يوسف.



صورة رقم (٢٤): في الإدارة الدينية في تركمانستان
في المقدمة الشيخ نصر الله بن عباد الله مدير الإدارة الدينية

والحقيقة التي رأيناها أن وضع الإدارة الدينية في (قازاقستان) الآن بعد انفصالها عن الإدارة الدينية في طشقند هو أردأ الأوضاع وأكثرها تخلفاً في العمل الإسلامي، وأقلها نشاطاً، ولذلك كان عدد المساجد التي أقيمت أو تقام الآن في قازاقستان هو أقل كثيراً منه في الجمهوريات الأربع الأخرى مع أن الحاجة إلى المساجد فيها هي أكثر منها في الجمهوريات الأخرى بسبب ضعف الثقافة الإسلامية في قازاقستان لبعدها عن مراكز الثقافة الإسلامية. ولكون نسبة السكان الروس وغيرهم من غير المسلمين هي فيها أعلى منها في الجمهوريات الأربع المذكورة، وقد ذكرت ذلك في كتاب: «حديث قازاقستان».

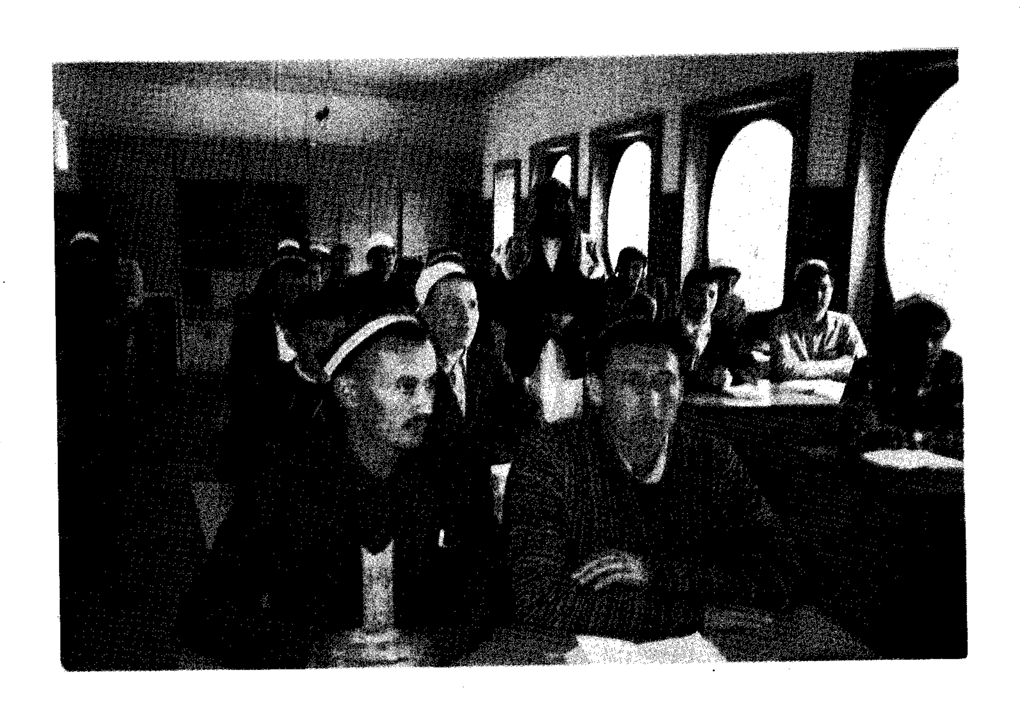
تقع في منطقة (دار القضاء) ثلاث مؤسسات مهمة أولها: مدرسة محمود الزمخشري، وثانيها: مسجد كبير، وثالثها: مساكن للطلاب.

أما مدرسة الزمخشري فإنها قديمة بمعنى أنها أسست منذ عدة سنوات ولكنها كانت تشغل مبنى صغيراً وكان عدد طلابها محدوداً ولكنهم يبنون لها مبنى مستقلاً جديداً واسعاً فاخراً وقد بنوه من التبرعات إلا أنه لم يكمل حتى الآن، وكذلك مبنى مساكن الطلاب والمسجد أيضاً فقدمنا لهم تبرعاً حاضراً لا بأس به بالنسبة إلى قيمة الدولار المرتفعة في هذه البلاد كما سبق أن كررت ذلك.

وهذه المباني كلها على طراز إسلامي محلي يمكن أن يسمى بالطراز المغولي لأنه ازدهر بعد عصر المغول وقد يسمى بالطراز التركستاني لأنه كان موجوداً قبلهم وهو كالطراز العربي بل هو جزء منه يتميز بالخطوط الفنية المستقيمة التي يتميز بها الطراز العربي في البناء.

ثم انتقلنا لمشاهدة المدرسة في مبناها القديم والطلاب يدرسون فيها فدخلنا فصول الدراسة ووقفت عند مدرس الحديث واسمه (ملا عثمان يوسف) وهو (بخاري) المظهر، وكل سكان هذه المنطقة هم من البخاريين عند بني قومنا ولكن بعضهم تكون الخصائص التركستانية في تقاسيم الوجوه ومظهر الجسم ظاهرة أكثر من غيرهم ومنهم أخونا المدرس الذي

بادرني بقوله: لقد أكمل الطلاب حفظ (٤٠) حديثاً من صحيح البخاري، وسوف نطالبهم يحفظ أربعمائة حديث منه. فقلت لهم: إنكم قوم الإمام البخاري الذي ذكر المؤرخون أن الناس يقصدونه لسماع الحديث عليه حتى بلغ عدد المستمعين إليه ٩٠ ألفاً، وكان له أربعة من المبلغين الذين ينقلون ما يقوله إلى الجماهير المتجمهرة من العلماء وطلبة العلم، لأنهم لكثرتهم لا ينفذ صوته إليهم كلهم.



صورة رقم (٢٥): داخل أحد الفصول في مدرسة الإمام الزمخشري في تاش حوض

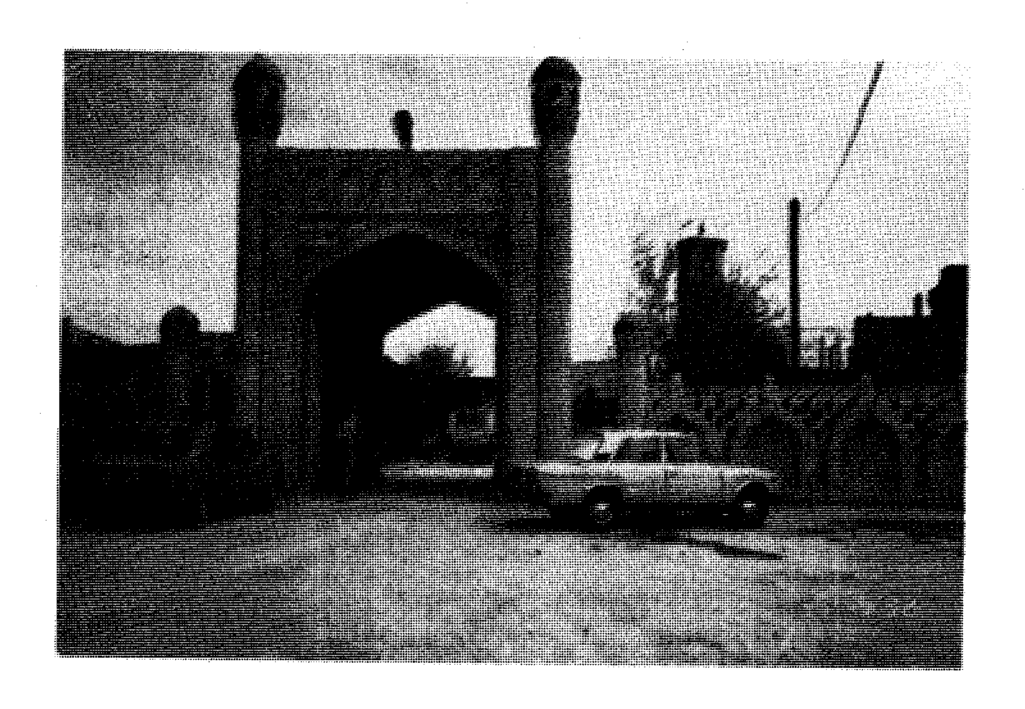
إنكم لا تعرفون في بلادنا وأكثر البلدان الإسلامية إلا بالبخاريين نسبة إلى بخارى في الظاهر، وإن كان الأمر أعم فقد تكون نسبتكم في الأصل جاءت من الإنتساب للإمام البخاري بمعنى أنكم من أهل بلده وأنتم تعلمون أن مدينة بخارى نفسها لا تبعد عنكم إلا بخمسمائة كيلومتر.

والمقصود من ذلك أن تقتدوا بالإمام البخاري في خدمة حديث رسول الله ﷺ والدفاع عن السنة النبوية المطهرة.

لقد نالت بلادكم شرفاً عظيماً بكون الإمام الحافظ البخاري منها وهو شرف يجب عليكم أن تحافظوا عليه بالإجتهاد في دراسة القرآن والسنة والإشتغال بعلم الحديث الذي قل المشتغلون به المتفرغون لدراسته. حتى يكون منكم بإذن الله حفاظ كبار مثل الإمام البخاري، بل مثل أئمة الحديث الذين أخرجتهم هذه المنطقة، كالإمام الترمذي والنسائي والدارمي.

هذا ويبلغ عدد الطلاب في هذه المدرسة ٩٠ طالباً و٧٠ طالبة لهم ١٤ مدرساً.

مسجد شاليكار:



صورة رقم (٢٦): مدخل جامع شاليكار في تاش حوض

يسمون المسجد الواقع قرب هذه المدرسة بمسجد (شاليكار) وهو قديم البناء نسبياً، إذ بني في عام ١٩٧٤ ووسع بعد ذلك حتى أصبح الجامع الرئيسي في المدينة لقربه من الإدارة الدينية وكونه واقعاً في مكان متسع من ضاحية فيها أراضٍ كثيرة غير مبنية.

مسجد دوست ليك:

وقد سمي بهذا الاسم على اسم الحي الذي يقع فيه من المدينة واسمه: حي (دوست ليك) بمعنى الصداقة.

وجدنا في المسجد عندما وصلنا إليه طائفة من زعماء الحي من المصلين فيه على رأسهم الشيخ (سعد الله بن عباد الله) إمام المسجد.

والمسجد حديث البناء وإن كان قد اكتملت عمارته ما عدا منارته فإنها لم تبن بعد، وقد قدمنا لهم تبرعاً قليلاً ولكنه عاجل من رابطة العالم الإسلامي لنفقات بناء المنارة. كما زرنا مبنى حديثاً ملحقاً به لمدرسة إسلامية وجدنا الطلاب يتعلمون فيها تلاوة القرآن الكريم، وقدمنا للمدرسة مساعدة رمزية أيضاً.

وقد طلب منا أهل المسجد أن نختار اسماً مناسباً للمسجد، لأن المساجد كثرت الآن وصارت نسبة المسجد إلى الحي الذي يقع فيه لا توضح أمره إذا بني في الحي مسجد أو أكثر غيره. فاقترحنا عليهم أن يسموه (مسجد المدينة المنورة) فوافقوا على ذلك، بل سروا به.

ومن الطريف أنهم خصصوا حجرة فيه لعقد الزواج الشرعي، وعادة المسلمين في هذه البلاد أن يعقدوا الزواج في الدوائر الحكومية الرسمية طلباً للإعتراف القانوني به وهو أمر شكلي من الناحية الشرعية، ولذلك لا يعتبرون الزواج منعقداً إلا إذا عقده عاقد عارف بأحكام الشريعة الإسلامية والعاقدون عندهم معروفون ومعينون من الإدارة الدينية لا يجوز لغيرهم ممارسة ذلك.

وشيء آخر وهو أن المدرسة التي تقع في بناء بجانب المسجد لا يفصل بينهما فاصل إلا باب واحد قد ألحقوا بها غرفة خصصوها لجلوس المشايخ من المدرسين وغيرهم ممن يحضرون مبكرين أو يريدون أن يتأخروا بعد الصلاة في المسجد، وفوق فصول الدراسة مساكن لبعض الطلبة الغرباء الذين يدرسون فيها.



صورة رقم (٢/١) في مدرسة مسجد دوست ليك (الصداقة) مع مؤذن المسجد ويظهر في الصورة الشيخ سعد الله عباد الله

شارع الخوارزمي

وهذا شارع مهم أو هو طريق في عرف أهل البلديات لأنه طويل ومستقيم ولم يكن اسمه كذلك، بل كان الروس أسموه (شارع شكالوف)

وهو أول طيار روسي أو هو من أوائل الطيارين الروس، وعندما استقلت البلاد استبدلوا به اسماً وطنياً مستوحى من الثقافة الإسلامية إذ أسموه شارع موسى الخوارزمي والخوارزمي معروف بأنه من أوائل النابغين في الرياضيات وبخاصة في علم الجبر والمقابلة، بل إنه أول من وضع كتاباً كاملاً بالعربية في علم الجبر والمقابلة وهو من أهل القرن الثالث الهجري.

قالوا: والتسمية صادقة لأن هذا الشارع يتصل بالطريق المؤدي إلى (خوارزم) المجاورة.

شارع الزمخشري:

تقع بلدة زمخشر التي ينسب إليها العلامة جار الله الزمخشري صاحب التصانيف المفيدة في علوم شتى ومنها تفسير القرآن الكريم المسمى بالكشاف لولا ما أدخله فيه من مذهب الإعتزال، على بعد (٨٠) كيلومتراً من بلدة خيوه في خوارزم فهو من أهل هذه المنطقة ولذلك أسموا به المدرسة الإسلامية التي تقدم ذكرها، وشارعاً آخر غيروا اسمه أمس فقط إلى اسم (شارع محمود الزمخشري) وقال لنا الأخ الكريم الشيخ (نصر الله بن عباد الله) مداعباً ومجاملاً: إنكم أول ضيوف من ضيوف البلاد يسيرون في هذا الشارع بعد تسميته باسم هذا العالم الجليل.

وكان اسمه قبل ذلك شارع (زَفَدْنيا) وهو اسم بلدة قديمة.

وكنا سرنا فيه خارج مدينة (تاش حوض) لأنه ينطلق منها.

إلى قرية إيلالي:

غادرنا مدينة (تاش حوض) التي معنى اسمها: الحوض الحجري فحوض هي العربية المعروفة مثل حوض الماء، و(تاش): كلمة تركية معناها: الحجر.

قصدنا قرية (إيلالي) التي ذكروا أنها تبعد (٣٥) كيلومتراً من (تاش حوض) فسرنا مع طريق إزفلتي يشق صحراء تكثر فيها السباخ ومررنا بقناة

صغيرة متفرعة من القناة الكبيرة التي مدت من نهر جيحون (أموداريا) إلى هذه المنطقة. وعليها بعض أشجار التوت وفيه بعض البساتين التي يلف الملح الأرض بجوارها وقد زرعوها بالقطن وعلف الماشية.

ثم مررنا بفرع آخر من القناة، وعندما مررنا بالقناة الرئيسية لم أعجب من كثرة القنوات الصغيرة المتفرعة منها لأنها كبيرة تشبه أن تكون نهراً صغيراً ولا أشك في أن المياه التي تتدفق فيها من النهر هي أكثر من المياه التي في نهر بردى في دمشق أيام الصيف بكثير.

وهذه القناة أحالت أجزاء من هذه الصحراء إلى أراضٍ منتجة، بل إلى جنات خضر، فذكرت ما ورد في الأثر المروي: سيحون وجيحون والنيل والفرات من أنهار الجنة. وإذا صح هذا الأثر فإن القول فيه هو: الله أعلم بتفسيره، إلا إذا أريد به أنها من أنهار جنات الدنيا فذلك ظاهر.

هذا وقد طلبت من سائق السيارة وهو أخونا سعد عباد الله إمام جامع (المدينة المنورة) الذي يسوق السيارة أن يتمهل في مسيره حتى أستجلي المنطقة استجلاءً كاملاً وكان يرافقني في السيارة الأخ الشيخ (نصر الله عباد الله) قاضي تركمانستان وهو خبير بالمنطقة لأنه من المقيمين فيها.

في قرية إيلالي:

وهي بلدة صغيرة أو قرية كبيرة وأهميتها في كونها بلدة زراعية قد تكاثفت الأشجار واتسعت الحقول عندما أقبلنا عليها.

وهي بلدة قديمة ذكروا أن تسميتها (إيلالي) قديمة تصل إلى زمن جنكيز خان زعيم المغول ومعنى اسمها: الأفعى باللغة التركية القديمة وليس لها من اسمها نصيب الآن وربما كان سبب ذلك وجود أفعى أو أفاعٍ في منطقتها في القديم.

وبيوتها الريفية كلها من الطين إلا أن في داخل البلدة بيوتا وأبنية إسمنتية عديدة حسنة المظهر. ومنازلها منثورة، تفصل بينها البساتين.

مسجد قاضي كلان:

لـم نقف في البلدة وإنما قصدنا مسجداً جديد البناء فيها اسمه (مسجد قاضي كلان) وكلان باللغة الفارسية معناها: كبير، فهو إذاً مسجد القاضي الكبير.

وتسميه عامتهم (جامع مسجد) لكونه تصلى فيه الجمعة.



صورة رقم (٢٨): عند مسجد قاضي كلان

وجدنا المسجد جميل البناء، نظيفاً في كل شيء، بل إنه مما يعتز به أهل هذه المنطقة، لجمال مظهره، وقوة بنائه.

ولم نر فيه أحداً إلا إمامه الشيخ خليل الله بن عثمان، لأن الوقت ليس وقت صلاة.

وبجانب المسجد مدرسة إسلامية مبنية بالطين، بجانبها المطينة وهي عند عامتنا الحفرة التي أخذ منها الطين لبناء البيوت، وكنا نفعل ذلك قديماً إذْ كنا ـ في نجد ـ لا نعرف بناء بغير الطين. وإذا كان المنزل في أرض طينية صالحة للبناء أخذوا الطين من الأرض التي هو فيها وبنوا به البيت، أما إذا كان غير صالح لسبب من الأسباب كأن لا يكون طيناً حراً بمعنى أنه رمل أو حجارة جلبوا الطين على الدواب من أماكن صالحة فترى المطينة وهي الحفرة موجودة في أكثر الأماكن، وقد انقضى هذا عندنا الآن ومضى زمنه حتى غدت الأجيال الطالعة من أبنائنا لا يعرفونه وإذا تحدثنا إليهم عنه فكأنما نتحدث عن شيء لا وجود له إلا في عالم آخر.

أما هذه المدرسة المبنية من الطين فإن (المطينة) بجانبها قد امتلأت ماء ولا أدري أذلك من المطر أم إنه من الأرض إذْ يظهر أن مستوى الماء في باطن الأرض قريب جداً.

ومثل المدرسة في البناء بالطين بيت إمام المسجد الذي جعلوا أساسه بالآجر ليقيه الرطوبة المنبعثة من الأرض. ولكن هذا الطين كان معتنى به فلياقته بمعنى لياسته هي من الطين الجيد المخلوط بالتبن مثلما كنا نفعل تماماً وذلك لحماية الحيطان من أن تجرفها الأمطار إذا نزلت عليها.

أما البيوت الطينية في الريف فإنني شاهدت بعضها قد تشقق لعدم وجود التبن فيه، ومن الطريف أنني رأيت عدداً من البقر تأكل علفها عند بيوت الطين في الريف، وهذا من المناظر التي كانت موجودة بكثرة في بلادنا وافتقدناها الآن.

وقبل مغادرة بلدة (إيلالي) تحدثنا إلى إمام مسجد (قاضي كلان) عن مدى إقبال الناس على أداء الصلاة في المسجد فذكر من ذلك عجباً،

وقال: لم نكن نتصور أن يكون الإقبال هكذا بعد أن كان الشيوعيون قد حاربوا الإسلام في كل مكان من البيت إلى المدرسة والجامعة وإلى المصنع. ولكن تبين أنهم كما قال الله تعالى: **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**.



صورة رقم (٢٩): المؤلف في محراب جامع قاضي كلان

وذكر شيئاً سألته عنه باهتمام وهو تربية أولاد المسلمين تربية إسلامية فذكر أن عدد الطلاب الذين يدرسون في المدرسة الملحقة بالمسجد زاد عن ثلثمائة طالب. وأنه حتى الأبناء لديهم رغبة عظيمة في دراسة الدين الإسلامي الحنيف، وليس ذلك لمجرد الرغبة من أولياء أمورهم.

وقد قدمنا تبرعاً رمزياً للمساعدة على تدريس الطلاب أما المسجد فإنه مكتمل ولم نره يحتاج إلى مساعدة.

بلدة آق تبه:

ومعنى اسمها: التلة البيضاء بالتركية فآق: أبيض أو بيضاء، و(تبه): تلة.



صورة رقم (٣٠): مدرسة قاضي كلان جديدة من الطين بجانبها حفرة الماء

وهذا اسمها القديم ومعناه باللغة الوطنية الخوارزمية التي فيها كثير من التركية ولكنها متميزة عن اللهجة الأوزبكية وعن التركمانية.

وقد غير الروس اسمها بعد انتصار الشيوعية فأسموها (لينينسكي) بمعني (اللينينية) نسبة إلى لينين القائد الشيوعي الذي طبق الشيوعية في البلاد الروسية ومستعمراتها السابقة أعادوا إليها اسمها الأصيل (آق تبه).

وتبعد عن مدينة (تاش حوض) بنحو ٨٠ كيلاً غير بعيدة من حدود جمهورية (قره قلبقستان) ذات الحكم الذاتي داخل جمهورية أوزبكستان.

ومعنى (قره قلبقستان) بلاد القبعات السود، والمراد بذلك ذوو القبعات السود وهم فصيل من الأقوام ذوي الأصول التركية الذين يقطنون تلك المنطقة، ويبلغ سكان بلدة (آق تبه) ١١٨ ألف نسمة.

جامع قتيبة بن مسلم:

وهو الهدف الأساسي من زيارتنا لهذه البلدة (أق تبه)، وهو مسجد كبير عظيم بني بعد أن انهزمت الشيوعية وأقبل الناس على التبرع له حتى إن رئيس جمهورية تركمانستان تبرع له بمائة ألف روبل من ميزانية الدولة على غير عادتهم في التبرع من ميزانية الدولة للمساجد والمشروعات الإسلامية.

وقد بنوه على طراز إسلامي محلي فاخر وهو الذي يصح أن يسمى بالطراز التيموري، نسبة إلى عهد تيمورلنك في البلاد.

وهو أكبر مسجد في المنطقة، لذلك افتتحه رئيس الجمهورية بحضور الشيخ محمد صادق محمد يوسف رئيس الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر وجمع عظيم من الوزراء والكبراء والمشايخ وأئمة المسجد واعتبروا بناءه وافتتاحه نهاية عهد من الظلم والإلحاد والعداء السافر للإسلام وبداية عهد من الإنفتاح والتسامح والعودة إلى الأصول العريقة

ذات الأمجاد القديمة في البلاد، وحدثوا أن مؤسسي المساجد صاروا الآن يعملون على الحصول على قطعة أرض لتستغل في الزراعة كزراعة القطن ويكون ريعها لنفقات المسجد المتكررة.

حدثني المفتي الشيخ محمد صادق قال: سألني رئيس جمهورية تركمانستان عند افتتاح المسجد عن اسمه فقلت له إنه مسجد قتيبة بن مسلم.



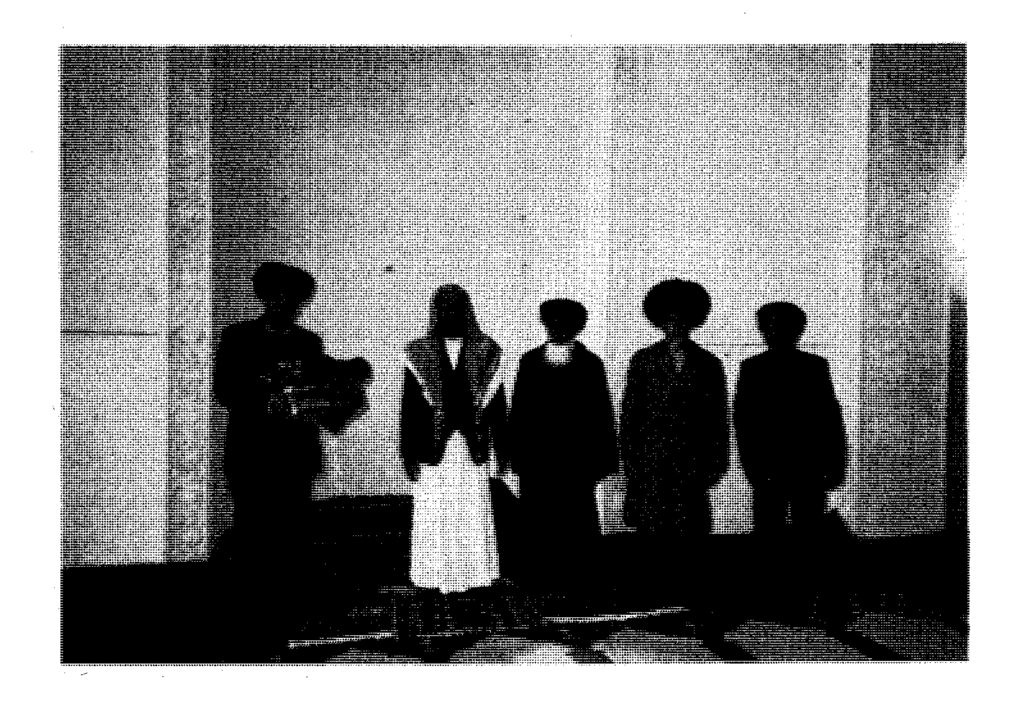
صورة رقم (٣١): منظر جانبي لجامع قتيبة بن مسلم يظهر صف القباب فوقه

فقال: هذا اسم ثقيل. هلا بحثتم عن اسم باللغة الوطنية، قال: فقلت له: إن قتيبة بن مسلم الباهلي هو الذي أدخل الإسلام إلى هذه

البلاد: بلاد ما وراء النهر، وهو الذي أثبت قواعده فيها، لذلك وجب علينا تكريمه بإطلاق اسمه على هذا المسجد تكريماً له.

قال: فقال الرئيس: ما دام الأمر كما قلتم فهذا أحسن.

أما الثقل فإنني لا أحس به وأنا العربي المسلم. ولله الحمد. إذا نُطِق به نطقاً معتاداً مسجد قتيبة بن مسلم، ولكن العربي يشعر بشيء من الثقل إذا ذكر اسم البلدة معه: آق تبه كأن يقال: (مسجد قتيبة في آق تبه) لا سيما إذا قرنت الكلمتان التركيتان فصارتا كلمة واحدة (أقتبه).



صورة رقم (٣٢): تذكارية في جامع قتيبة بن مسلم في آق تبه مع بعض الإخوة التركمانيين على يمين المؤلف المسؤول عن المسجد يحمل بعض الهدايا التي أهديناها للمسجد

وجدنا في المسجد عدداً من الإخوة المسلمين منهم إمامه الشيخ صديق جان عبد الرزاق، حيث صلينا فيه الظهر والعصر جمعاً وأهدينا المسجد مسجلاً وأشرطة عليها تسجيل القرآن الكريم كاملاً كما قدمنا بعض الهدايا لإمام المسجد.

وللمسجد أربع قباب متعاقبة رائعة، بل إن جميع ما فيه من بناء هو رائع وجميل سواء من الداخل أو الخارج لذلك استغرقني منظره فذهبت أجول فيما حوله وألتقط له الصور المتعددة من زوايا مختلفة.

وكذلك جلت في المنطقة التي يقع فيها وهو منطقة ريفية أصيلة، لم يفسدها الترويس وهو التشبه بالروس مما ذكرني بمناظر قديمة كانت في بلادنا حيث البيوت في هذا الريف طينية تربط حولها الأبقار، ويجمع السماد في مكان معين للإنتفاع به في الزراعة. كما أن أحواض القت الذي هو البرسيم موجودة هنا على نحو مما هو موجود عندنا مما لم نر له نظيراً في المناطق الباردة من بلاد ما وراء النهر هذه.

وقد أخبرونا أن القت عندهم مثلما هو عندنا من ناحية كونه يحصد، ثم ينبت ثانية، ويظل يحصد ويعود للنبات لمدة سنتين أو ثلاث لأنهم لا يقطعون جذوره بطبيعة الحال.

ثم عدت للإنضمام إلى الرفاق في المسجد حيث تجولنا في مرافقه ومنها مدرسة جيدة قدمنا تبرعاً رمزياً من رابطة العالم الإسلامية لطلابها.

كما أن هذا المسجد العظيم ليست له منارة حتى الآن، بسبب قصور النفقة فقدمنا ألفاً وخمسمائة دولار للإسهام في بناء المنارة وأخبرناهم أننا سنزيد المبلغ بعد ذلك من الرابطة إذا لم تكف هذه.

ومع أنها مبلغ ضئيل بالنسبة إلينا فإنها عندهم كثير وبخاصة إذا كانت بالعملة الأجنبية الصعبة التي ترتفع قيمتها باستمرار بالنسبة إلى عملتهم الروسية وهي الروبل.

وقد ذكروا أنهم سيبنون منارة لائقة بجمال مبنى المسجد وقرروا أن يكون ارتفاعها ٣٧ متراً.



صورة رقم (٣٣): بيوت طينية في جانبها بقرة مربوطة في بلدة آق تبه التي فيها جامع قتيبة بن مسلم

صورة مع عملاق:

بينما كنا عند باب المسجد وقد انتهينا من التجول في داخله أبصرت أحد الإخوة التركمانيين يدل على تركمانيته هندامه الذي منه القلنسوة (الطاقية) الت[illegible] أن تسميها عمامة مع شيء من

التجوز، فهي أكبر من العمامة ولكنها ليست مؤلفة من طيات متعددة كما تكون العمامة وإنما هي قطعة واحدة.

وقد سلم الأخ التركماني فهو من الإخوة المسلمين ولاحظت أنه يحظى بجسم ضخم فسألته عن الغرض من مجيئه إلى هنا؟ فذكر أن ذلك لزيارة المسجد والتمتع برؤيته والصلاة فيه. وذكر لنا أن اسمه (أناش تشاري خوجه).

وانتهزت الفرصة لالتقاط هذه الصورة معه ظهر فيها أيضاً بعض الإخوة المرافقين.



صورة رقم (٣٤): قرب جامع قتيبة بن مسلم
على يساري الأخ التركماني الضخم أناش تشاري خوجه وقد أمالت الريح لحيته
وعلى يميني قاضي تركمانستان الشيخ نصر الله عباد الله

العودة إلى تاش حوض:

بدأنا العودة إلى (تاش حوض) في الثانية والنصف فسرنا مع الطريق الصحراوي المعهود الذي لا يزال المرء يرى فيه ما يؤكد صحراويته من أرض سبخة شهباء وأشجار كالأثل، وحتى ما يتعلق بالمدنية قد يذكرك به، إذا كنت مثلي قد عاصرت التطور في بلادنا الصحراوية إذ أنني أرى الآن أسلاك الكهرباء والهاتف مرفوعة على خشب يباري الطريق كما كان عليه الحال عندنا في القديم، وحتى الحمار الذي يناسبه الجو الصحراوي والشبيه بالصحراوي أكثر مما يناسبه الجو المطير هو موجود ولكنه حمار رديء صغير الحجم، رمادي اللون.

وأما اللافتات التي في الطريق فإنها بالحروف الروسية، إلا أن بعضها لمعاني اللغة التركمانية، وقد التقطت صورة للطريق الخالي من الشجر تماماً.

الغداء الثاني:

كَرم مضيفنا الشيخ (نصر الله بن عباد الله) و(عباد الله) هو اسم والده، ومن الطبيعي أنه اسم لفرد وإن جاء بصيغة الجمع ولعل أصله عَبَّاد الله، أو عابد الله بإضافة العبادة إلى الله، فدعاني إلى الغداء الثاني في بيته الواسع في الثالثة ظهراً حيث وجدناه قد أمر معاونيه وأهل بيته بأن يكون الغداء جاهزاً وقد وجدناه بالفعل قد أعد مائدة سخية تكفي لأكثر منا عدداً أضعافاً مضاعفة، وفيها ما في الموائد التركستانية، وما بلاد ما وراء النهر من الأطعمة الحارة والباردة.

إلى خوارزم:

انطلقنا قبيل الرابعة ونحن في عجلة من أمرنا نسير إلى (خوارزم) وهذه هي الزيارة الثانية التي أزور فيها خوارزم والأولى كانت قبل سنتين وقد ذكرت قصتها في كتاب: «يوميات آسيا الوسطى».

ولخوارزم في نفسي مكانة عظيمة مثلما هي لبخارى وسمرقند وبلاد الشاش فهي التي خرجت عدداً عديداً من أعلام المسلمين النبغاء من محدثين وفقهاء ولغويين وأدباء ومؤرخين وشعراء، مما لو أردت استعراضه هنا لطال المقال والخروج عن المقصود في هذا المجال الذي يذكر المشاهدات وما تثيره من أمور حاضرة أو غابرة.

وقد أثار الذهاب إلى خوارزم في ذهني مشاعر لا يمكن وصفها إلا بوصف من اشتاق إلى حبيبه ثم وصل إلى دياره فصار ينشد مع الشاعر القديم:

أمر على الديار ديار ليلى ... أُقَبِّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حُبُّ من سكن الديارا

ولو ذكرنا الديار التي أنجبت الكبار من العلماء والنبغاء في هذه البلاد لخرجنا أيضاً عن المراد ولكنني أذكر بلدتين صغيرتين إحداهما زمخشر التي أخرجت العالم الكبير الزمخشري وغيره و(بيرون) بلدة الإمام العظيم، بل النابغة الشهير أبي الريحان البيروني وقد أخبرونا أن (زمخشر) لا تزال موجودة أما بيرون فقد استولى عليها الخراب، وقيل إنها بدأت بها عمارة ضعيفة في الوقت الراهن.

قالوا في زمخشر:

من كلام ياقوت في (معجم البلدان):

زَمَخْشَرُ: بفتح أوله وثانيه ثم خاء معجمة ساكنة، وشين معجمة، وراء مهملة: قرية جامعة من نواحي خوارزم؛ إليها ينسب أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوي الأديب، رحمه الله؛ وفيه يقول الأمير أبو الحسن عُلَيّ بن عيسى بن حمزة بن وهّاس الحسني العلوي يمدحه ويذكر قريته:

وكم للإمام الفرد عندي من يد ... وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا

أخي العَزْمة البيضاء والهمة التي	أنافت به علاّمة العصر والورى
جميع قرى الدنيا سوى القرية التي	تبوّأها داراً فداء زمخشرا
وأحرِ بأن تُزْهى زمخشر بامرىء	إذا عُدَّ في أُسد الشَّرَى زمخ الشرا
فلولاه ما ضنَّ البلاد بذكره،	ولا طار فيها منجداً ومغوّرا
فليس ثناه بالعراق وأهله	بأعرف منه بالحجاز وأشهرا

وحدث الزمخشري وقال: أما المولد فقرية من قرى خوارزم مجهولة يقال لها زمخشر، سمعت أبي قال: اجتاز بزمخشر أعرابي فسأل عن اسمها واسم كبيرها فقيل له زمخشر والرَّدَّاد، فقال: لا خير في شر وردٍّ، ولم يُلمم بها.

وقال ابن حوقل:

وخُوارزم اسم الإقليم وهو إقليم منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر وتحيط به المفاوز من كل جهة وحدّه متصل بحدّ الغُزّيّة[1] مما يلي الشمال والمغرب وجنوبيّه وشرقيّه خراسان وما وراء النهر وهي ناحية عريضة وأعمال واسعة ومدن كثيرة وهي آخر جيحون وليس بعدها على النهر عمارة حتى يقع ماء النهر في البحيرة[2] وهي ناحية على جانبي جيحون. ومدينتها الكبرى في الجانب الشمالي من جيحون ولها في الجانب الجنوبي مدينة كبيرة تسمى الجُرْجَانيّة وهي أكبر مدينة بخوارزم من بعد قصبتها وهي متجر الغُزّيّة ومنها تخرج القوافل إلى جرجان وكانت قوافلهم تخرج إلى الخزر[3] على مرّ الأيام وإلى خراسان.

وأول حدّ خوارزم يسمى الطاهرية مما يلي آمل موضع (تمتدّ) فيه

---

(١) الغزية: جماعات من بادية الأتراك.
(٢) هي بحيرة خوارزم التي تعرف الآن ببحيرة (أرال).
(٣) الخزر من سكان شمال القوقاز.

العمارة من جنوبيّ جيحون وليس في شماليّه عمارة حتى ينتهي إلى قرية غارامخشه ثم يكون من غارامخشِه إلى مدينة خوارزم عامراً (من جانبي جيحون جميعاً).

وبين الموضع الذي يقع فيه نهر جيحون وبين الموضع الذي يقع فيه نهر الشاش[1] من البحيرة نحو عشرة أيام، ووادي جيحون ربما جمد في الشتاء وتعبر عليه الأثقال والبغال والأحمال والجمال ويبتدىء جموده من ناحية خوارزم حتى يعلو إلى حيث انتهى الجمد وكلما علا كان البرد أشد والماء أجمد وأبرد ما على جيحون من البقاع خوارزم، وعلى شطّ بحيرة خُوارزم جبل يُعرف بجغراغر يجمد عنده الماء ويبقى سائر الصيف وله أجمة قصباء، ودور بحيرة خوارزم نحو مائة فرسخ على ما يتواطأ عليه أهل الخبرة بها وماؤها مالح وليس لها مغيض ظاهر ويقع فيها نهر جيحون ونهر الشاش وغير ذلك من مياه تلك النواحي فلا يعذب ماؤها ولا يزيد فيه على صغرها، ويشبه والله أعلم أن يكون بينها وبين بحر الخزر[2] خرق فيتّصل ماؤها بماء بحيرة الخزر وقد ذكر قوم ذلك ولم أقف له على حقيقة، وبين البحيرتين نحو عشرين مرحلة على السمت.

وخُوارزم ناحية خصبة كثيرة الأطعمة والحبوب والفواكه غير أنه لا جَوْز بها ويرتفع منها من ثياب القُطْن والصوف أمتعة كثيرة تصل إلى الآفاق، وفي خواصّ أهلها يسار وقيام على أنفسهم بالمروءة الظاهرة وهم أكثر أهل خراسان انتشاراً وسفراً، وليس بخراسان مدينة كبيرة إلا وفيها من أهل خُوارزم جمع كثير، ولسان أهلها مُفرد بلغتهم وليس بخراسان لسان على لغتهم.

---

(١) نهر الشاش هو الذي كان يسمى سيحون قديماً ويعرف الآن باسم (سرداريا).
(٢) بحر الخزر هو المعروف الآن ببحر قزوين.

وقال الحميري في الروض المعطار:

وسمرقند وخوارزم كور منقطعة من خُراسان ومما وراء النهر، وتحيط بها المفاوز من كل جانب، وحدّها يتصل بحدود الغزية مما يلي الشمال والمغرب، وحدّ جنوبها من شرقيها بلاد خُراسان وما وراء النهر، وهي ناحية عريضة وخطة واسعة ومدن كثيرة، وهي آخر عمائر عمل جيحون وليس بعدها عليه عمارة حتى يقع ماء النهر في البحيرة، ومدينتها في الجانب الشمالي من جيحون، ولها من الجنوب مدينة كبيرة تسمى الجرجانيّة وهي أكبر مدينة بخوارزم بعد قصبتها قيل، وهي متجر الغزية ومنها تخرج القوافل إلى جرجان وكانت تخرج إلى الخزر على مرّ الأيام وإلى خُراسان، وكانت قصبة الجرجانية تعرف باللغة الخوارزمية كاث وكانت أرباضاً[1] وطولها نحو ميل في مثله فابتنوا غيرها من ورائها، وهي الجرجانيّة اليوم، وقيل مدينة خوارزم.

وخوارزم مدينة حصينة كثيرة الطعام والفواكه، والخواصّ من أهلها قيام على أنفسهم بالمروءة الظاهرة، وهم أكثر أهل خُراسان سفراً، وليس بخراسان مدينة إلا وفيها منهم جمع كبير، ولغتهم ممتازة من لغة أهل خُراسان، وزيّهم القراطق والقلانس المعوجة، وخلقهم لا يخفى بين أهل خُراسان ولهم بأس على الغربة ومنعة، وترتفع من خوارزم ثياب القطن والصوف وأمتعة كثيرة، وليس بخوارزم معادن، ويقع إليهم رقيق الصقلب[2] والخزر وما والاها من رقيق الأتراك.

وعرض نهر خوارزم عند المدينة فرسخان، وأول حدود خوارزم مما يلي ارموني بلد يسمى الطاهرية تجد فيها العمارة على جانبي جيحون، ونهر جيحون ربما جمد في الشتاء حتى تعبر عليه الأثقال والأحمال

(١) الأرباض: الضواحي الريفية.
(٢) الصقلب هم السلاف.

والجمال، ومن ناحية خوارزم يشتد في جموده، وهم مياسير وأهل مروءة ظاهرة.

ونزل الططر[1] على خوارزم في سنة ثمان عشرة وستمائة فأقاموا على مدينة الجرجانية قاعدة خوارزم شاه، قالوا: ومرو ونيسابور وبلخ، مع عظم كل واحدة منها، مجموعها يقصر عن الجرجانية بانفرادها فإنها كانت سرير السلطان الأعظم صاحب الأقاليم السلطانية وربّ العساكر الكثيفة، وكان بها يومئذ عسكر جليل وأمراء مشهورون إلى أن ملك الططر المدينة وقتلوا فيها كل ذي روح، والخبر مستوفى في ذكر الجرجانيّة.

وقال الحميري في الروض العطار أيضاً:

الجرجانية هي المدينة الكبرى، والقاعدة العظمى من خوارزم، وهي مدينتان على ضفة النهر يجاز بينهما بالمراكب، واسم المدينة الشرقية منها درغاش والمدينة الغربية هي الجرجانية، وهي كبيرة عامرة ذات أسواق وربض وسور محيط بالربض، والمدينة طولها نحو من تسعة أميال في مثلها، وهي متجر الغزية.

قالوا: ومرو ونيسابور وبلخ مع عظم كلٍّ واحدة من هذه تقصر عن الجرجانية بانفرادها وأنها كانت سرير السلطان الأعظم صاحب الأقاليم السلطانية ورب العساكر الكثيفة خوارزم شاه. ونزل عليها الططر سنة ثمان عشرة وستمائة وكان بها حينئذ عسكر جليل وأمراء مشهورون فحاصروها الحصار الشديد، فدام عليها الحصار المتصل خمسة أشهر، وقتل من الفريقين خلق عظيم، فأرسل الططر المحاصرون إلى خاقانهم وهو مشغول بثقاف خُراسان فأمدَّهم بعشرين ألف مقاتل، وقاتلهم أهل الجرجانية قتالاً شديداً حتى ظهر في ذلك النساء والصبيان، إلى أن ملك الططر المدينة وقتلوا فيها كل ذي روح، وقيل لهم إن الناس اختفوا في سراديب وأماكن

---

(١) يريد التتار.

غامضة ففتحوا سكر جيحون وغرقوا المدينة بذلك النهر الأعظم، وتركو موضعها أجمة فما نجا من أهلها أحد. انتهى كلامه.

ووصل الرحالة الشهير ابن بطوطة إلى (خوارزم) فكان مما قاله في رحلته:

ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه ووصلنا إلى خوارزم، وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها. لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة، وهي ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر. ولقد ركبت بها يوماً ودخلت السوق، فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام في موضع يقال له الشهوْر، لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع لكثرة الإزدحام، وأردت الرجوع فما أمكنني لكثرة الناس، فبقيت متحيراً وبعد جهد شديد رجعت. وذكر لي بعض الناس أن تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة، وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة. وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك، وله فيها أمير كبير يدعى قطلودمور، وهو الذي عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة. وأما الجامع فعمرته زوجته الخاتون الصالحة تُرَابَك. وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني، نسبة إلى صهيون من بلاد الشام.

ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم، ولا أكرم نفوساً ولا أحب في الغرباء. ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم، وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلماً لهم بحضور الصلاة. فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة، وفي كل جامع درة معلقة برسم ذلك، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح الجامع أو تطعم للفقراء والمساكين. ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان.

وبخارج خوارزم نهر جيحون، أحد الأنهار الأربعة من الجنة. وهو

يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر اتل ويسلك الناس عليه، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر، وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلكوا. ويسافر فيه أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ، ويجلبون منها القمح والشعير، وهي مسيرة عشر للمنحدر.

ولما أتيت بهذه المدينة نزلت بخارجها، وتوجه بعض أصحابي إلى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري. فبعث إلي نائبه نور الإسلام، فسلم علي ثم عاد إليه. ثم أتى القاضي في جماعة من أصحابه فسلم علي. وهو فتي السن كبير الفعال، وله نائبان أحدهما نور الإسلام المذكور، والآخر نور الدين الكرماني من كبار الفقهاء، وهو الشديد في أحكامه القوي في ذات الله تعالى. ولما حصل الإجتماع بالقاضي قال لي: «إن هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهاراً لا يتأتى، وسيأتي إليكم نور الإسلام لتدخلوا معه في آخر الليل». ففعلنا ذلك، ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد. ولما كان بعد صلاة الصبح أتى إلينا القاضي المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة، منهم مولانا همام الدين، ومولانا زين الدين المقدسي، ومولانا رضي الدين يحيى، ومولانا فضل الله الرضوي، ومولانا جلال الدين العمادي، ومولانا شمس الدين السنجري إمام أميرها. وهم أهل مكارم وفضائل، والغالب على مذهبهم الإعتزال، لكنهم لا يظهرونه لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة.

وكنت أيام إقامتي بها أصلي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده، فإذا فرغت الصلاة ذهبت معه إلى داره، وهي قريبة من المسجد. فأدخل معه إلى مجلسه، وهو من أبدع المجالس، فيه الفرش الحافلة، وحيطانه مكسوة بالملف، وفيه طيقان كثيرة، وفي كل طاق منها أواني الفضة المموهة بالذهب والأواني العراقية، وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا في بيوتهم. ثم يأتي بالطعام الكثير، وهو من أهل

الرفاهية والمال الكثير والرباع، وهو سلف الأمير قطلودمور متزوج بأخت امرأته واسمها جيجا أغا. وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكورين، وأكبرهم مولانا زين الدين المقدسي، والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي، الخطيب المصقع، أحد الخطباء الأربعة الذين لم أسمع في الدنيا أحسن منهم.

(وأمير خوارزم) هو الأمير الكبير قُطْلودمور، ومعنى اسمه الحديد المبارك، لأن «قطل» هو المبارك و«دمور» هو الحديد. وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه، وهو واليه على خراسان. وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها، وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة. ولما أتاني القاضي مسلماً علي كما ذكرته، قال لي: «إن الأمير قد علم بقدومك، وبه بقية مرض يمنعه من الإتيان إليك». فركبت مع القاضي إلى زيارته وأتينا داره، فدخلنا مشوراً كبيراً أكثر بيوته خشب. ثم دخلنا مشوراً صغيراً فيه قبة خشب مزخرفة، قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب، والأمير على فرش له من الحرير وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس، وهي فاشية في الترك. فسلمت عليه، وأجلسني إلى جانبه، وقعد القاضي والفقهاء، وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيهما وعن مدينة القسطنطينية فأعلمته بذلك كله. ثم أتي بالموائد، فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي وأفراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلوى.

ثم أتي بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أوانَي الذهب والفضة ومعه ملاعق الذهب[1]، وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب، ومن العنب والبطيخ العجيب.

---

(١) العجيب من ابن بطوطة والقاضي أن يسكتا على استعمال أواني الذهب وذلك حرام ظاهر.

ومن عوائد هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم إلى مشوره[1]، ويجلس بمجلس معد له ومعه الفقهاء وكتابه، ويجلس في مقابلة أحد الأمراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم يسمون الأرغجية، ويتحاكم الناس إليهم. فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء. وأحكامهم مضبوطة عادلة، لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة.

ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير، بعث إلينا الأرز والدقيق والسمن والأبزار وأحمال الحطب. وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم، وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم، وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم، ثم إذا صارت رماداً عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشى[2].

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد أبي حفص، فقال لي: «إن الأمير أمر لك بخمسمائة درهم، وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه. فلما أمر بذلك قلت: «أيها الأمير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين، لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع». فقال: «أفعل ذلك». وقد أمر لك بالألف كاملة». ثم بعثها الأمير صحبة إمامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه، وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار. وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرساً أدهم اللون بخمسة وثلاثين ديناراً دراهم وركبته في ذهابي إلى المسجد، فما أعطيت ثمنه إلاً من تلك الألف. وتكاثرت عندي الخيل بعد ذلك حتى انتهت إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به، ولم تزل حالي في الزيادة حتى دخلت أرض

(١) المشور: مجلس الملك أو الكبير من القوم.

(٢) هذا هو الفحم الحجري.

الهند. وكانت عندي خيل كثيرة، لكني كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه أمام الخيل، وبقي عندي إلى انقضاء ثلاث سنين، ولما هلك تغيرت حالي، وبعثت إلي الخاتون جيجا أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهم.

وصنعت لي أختها ترابك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التي بنتها، وفيها الطعام للوارد والصادر، وبعثت إلي بفروة سمور وفرس جيد، وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيراً. ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية، تعرضت لي بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن. فسلمت علي، فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا التفت إليها. فلما خرجت أدركني بعض الناس وقالوا لي إن المرأة التي سلمت علي هي الخاتون. فخجلت عند ذلك وأردت الرجوع إليها، فوجدتها قد انصرفت. فأبلغت إليها السلام مع بعض خدامها، واعتذرت عما كان مني لعدم معرفتي بها.

وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقاً ولا غرباً، إلاً ما كان من بطيخ بخارى، ويليه بطيخ أصفهان. وقشره أخضر وباطنه أحمر، وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة. ومن العجائب أنه يقدد وييبس في الشمس في القواصر، كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقي. ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين. وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه. وكنت أيام إقامتي بدهلي من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشتري لي منهم قديد البطيخ. وكان ملك الهند إذا أتي إليه بشيء منه بعث إلي به لما يعلم من محبتي فيه، ومن عادته أنه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك.

انتهى كلام ابن بطوطة.

من تاش حوض إلى أوركنج:

وأوركنج هي عاصمة إقليم خوارزم الذي يتبع جمهورية أوزبكستان، أما تاش حوض فإنها في جمهورية تركمانستان كما سبق.

وتبعد المسافة من تاش حوض إلى حدود خوارزم ١٢ كيلاً فقط.

والجو دفيء خلاف ما كان عليه الأمر منذ ثلاثة أيام في بشكك حيث كان بارداً إلى درجة أن سقط الثلج.

لا حدود:

تجاوزنا حدود جمهورية تركمانستان التي كنا فيها إلى حدود أوزبكستان، ولم نجد على الحدود أية علامة ظاهرة تدل على ذلك ولم يوقفنا أحد أو يطلب منا الإطلاع على جوازاتنا.

ولا شك أن هذا من بقايا العهد السابق حينما كانت الجمهوريتان جزءاً من الإتحاد السوفييتي الذي ليست في داخله حدود بين هذه الجمهوريات المصطنعة.

مع أن عدم التفتيش أو حتى الوقوف على الحدود موجود حتى بين الدولِ الراقية فعلى سبيل المثال سافرت قبل فترة من بلجيكا إلى هولندا بالسيارة وكان الأمر هكذا في الحدود بين البلدين فلم نجد أي حاجز عند الحدود ولم نقف عندها في الدخول إلى هولندا، ولا في الخروج منها إلى بلجيكا.

وكان من الأشياء اللافتة للنظر هنا وجود قناة جديدة تشق من نهر جيحون الذي يسمونه (أموداريا).

غضا نجد:

جددت عهداً غير قديم بهذا الطريق الذي كنت سلكته في المرة الماضية مجيئاً من خوارزم إلى تاش حوض والآن العكس ولم أره تغير فيه

شيء ومررنا ببيوت طينية مكتملة استرعى انتباهي إليها الشيخ نصر الله بن عباد الله وقال: هذه البيوت الطينية كنت وقفت عندها في المرة الماضية وهي تحت البناء وصورتها وكان يرافقني في المرة الأولى أيضاً مع المرافقين. فذكرت أنني صورتها لأنني رأيت جماعة كبيرة من الناس تتعاون على بنائها كما كان عليه الأمر عندنا في القديم جداً.

ورأيت غضا نجد في رمال منبسطة غير بعيدة من قناة ذات مياه ثرة قادمة من جيحون.

والعادة أن الغضا وهو شجر صحراوي معروف إنما ينبت في الرمال، وتسمى الرمال التي تنبت الغضا القصيم أو القصائم (جمع قصيمة) بفتح القاف وكسر الصاد ومنه أخذ اسم منطقة القصيم في وسط الجزيرة ولكنهم هنا لم يسموها بهذا الاسم لا شك في أن مرجع ذلك إلى عدم استعمال اللغة العربية هنا.

وأوقفت الركب لأستجلي منظر هذا الغضا الذي خيل إلي أنه غريب هنا، ولا أقول مثل غربتي، فأنا لست غريباً في هذه البلاد، بل أنا بين إخواني وأصدقائي الذين يكرمونني أكثر مما يكرمون أنفسهم، حرصاً منهم على إكرام الضيف وبخاصة إذا كان قادماً من مكة المكرمة.

وذكرت بهذه المناسبة أمراً كان استرعى انتباهي من قبل وهو أن بعض الشعراء والأدباء من أهل خوارزم كانوا يذكرون نجداً في تشوقهم لبلادهم، فقلت في نفسي: أيكون ذلك بسبب تشابه الأرض والنبات في الصيف لا في الشتاء؟

وبخاصة أن البعير موجود في هذه الصحراء وإن كان لسان حاله ينشد مع الشيخ العربي القديم:

إذا جاء الشتاء فأدفئوني ... فإن الشيخ يهرمه الشتاء

فبعيرنا على صبره لا يتحمل شدة برد الشتاء هنا التي تصل إلى

عشرين درجة تحت الصفر ولكن أهل الإبل يحبسونها في الشتاء في أماكن دفيئة لكونهم يحتاجونها في صيفهم الذي ترتفع درجة الحرارة فيه في النهار إلى ٤٦ درجة في بعض الأحيان وهذه حرارة لا يصبر عليها من حيوان الحمل إلا البعير الصبور.

قال أحد الخوارزميين وهو في نجد عندما رأى برقاً يضيء وميضه أفق الصحراء، وينهال وبله على تلك الأرض الغبراء:

أأبكاك لما أن بكى في ذرى نجد … سحابٌ ضحوك البرق، منتحب الرعد
له قطرات كاللألىء في الندى … ولي عبرات كالعقيق على خدي
تلفت منها نحو خورزم والهاً … حزيناً، ولكن أين خورزم من نجد؟

وأبيات أخر لشاعر ذهب إلى منغشلاغ القريبة من بحيرة خوارزم التي تسمى الآن بحيرة أرال ولا تبعد عنا الآن إلا حوالي ٤٠٠ كيلومتر جهة الشمال.

قال أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي ثم الخوارزمي وكتب بها إلى ابنه المؤيد وكان قد مضى إلى منقشلاغ (قلعة حصينة في آخر حدود خوارزم):

أيا برق نجد هِجت شوقي إلى نجد … وأضرمت في الأحشاء ثائرة الوجد
خوارزم نجدي وَهي غير بعيدة … وقد حُلِّئَتْ عِيسي برغمي عن الوخد[1]
إذا غازلَتْ ريح الشمال رياضها … عقيب نَداها خِلتَها جنة الخلد
فلا وَقْدُ قلبي عين عينيَّ ناشف … ولا عين عيني مُطفىءُ الوَهْج والوقد
فيا إخوتي هل تذكرون أخاً لكم … غريباً بمنقَشْلاغَ في شدة الجهد؟
ألام بما أُبدي من الشوق نحوكم، … على أنَّ ما أُخفيه أضعاف ما أُبدي

---

(١) العيس: الإبل. وحلئت: مُنِعتْ من ورد الماء. والوخد: نوع من سير الإبل.

مدينة الملك:

أين الملوك ومدائنهم من هذه البلاد التي ابتليت بالشيوعية لأكثر من سبعين عاماً؟

لقد سألت القوم المرافقين هذا السؤال عندما مررنا ببلدة اسمها (شاه آباد) ومعنى ذلك بلدة الملك أو محل إقامة الملك بالفارسية التي كان لها مجال عظيم في هذه المنطقة وبخاصة في القرون الهجرية التي ازدهرت فيها الثقافة العربية الإسلامية التي أصبح لها في ذلك الوقت مراكز في البلاد المجاورة التي تتكلم الفارسية حتى إن مدينة (بخارى) لا تزال اللغة الغالبة فيها حتى الآن هي اللغة الفارسية، وإن كانت اللغة الأوزبكية المشتقة من التركية القديمة معروفة أيضاً على اعتبار أن بخارى هي من الناحية الإدارية جزء لا يتجزأ من جمهورية أوزبكستان.

وقل مثل ذلك عن جمهورية تاجيكستان التي تتكلم اللغة الفارسية لغة وحيدة لها مع أن أهلها كلهم من المسلمين السنة وليسوا من الشيعة الذين اعتاد الناس على أن يروا العدد الغالب من المتكلمين بها هم من الشيعة.

ولا تبعد حدود (تاجيكستان) عن مدينتي بخارى وسمرقند إلا مسافة قليلة.

وسألت نفسي هذا السؤال: إذا كان الشيوعيون قد غيروا أسماء جميع المدن المهمة إلى أسماء شيوعية أو مستوحاة من الشيوعية أو على اسم أحد قادتهم من الطغاة العتاة فلم لم يغيروا اسم هذه البلدة (شاه آباد) كما فعلوا حينما غيروا اسم بلدة (آق تبه) التي فيها جامع قتيبة بن مسلم الباهلي وتقدم الكلام عليها قريباً حيث أسموها (لينين سكي) بمعنى اللينينية؟

والجواب: أن ذلك لهوان هذه القرية (الملكية) عليهم وعلى الناس فهي أشبه بالقرية الصغيرة المبنية من الطين.

وربما كانت عندما كانت الشيوعية في فورتها في حالٍ أدنى من ذلك، فنحن عندما رأيناها لم يكن فيها ما يعجب إلا من يريد أن يرى بلدة صحراوية قديمة، بيوتها من الطين، وباحاتها خالية من الأعشاب.

ولكن الأهمية جاءتها في الزمن الحديث من وجود قناة كبيرة تسمى قناة شاه آباد تمر بقربها قادمة من النهر العظيم نهر جيحون وهي على حالة من الكبر بحيث أنها لو كانت نهراً مستقلاً بذاتها ليس فيه إلا ما فيها من المياه لغدا ذا ذكر عظيم في التاريخ، إذْ المياه التي فيها هي أكثر مرة أو مرتين من المياه التي في نهر بردى في دمشق الذي خلدت ذكره الأشعار والأخبار.

وهذه القناة تنتفع منها هذه الأراضي الصحراوية إذ تنطلق حتى تنتهي في مثل ما ينتهي إليه أصلها (بحر خوارزم) أو (بحيرة خوارزم) كما كان أسلافنا يسمونه وهو اليوم معروف عند أخلافنا الكسالى عن التنقيب والتفتيش في تراث علمائنا الأجلة (بحيرة أرال).

لم نقف في بلدة الملك أو مدينته باعتبار ما كان وإنما واصلنا سيرنا مع طريقنا غير الطويل الذي يبلغ طوله من (تاش حوض) إلى (أوركنج) عاصمة خوارزم (٧٦) كيلومتراً.

فمر الطريق فوق جسر أقاموه على خط مهم للسكك الحديدية لأنه ذاهب إلى ما كانوا يسمونه المركز أيام حكم الإتحاد السوفييتي وهو مدينة موسكو، فهذا الخط الحديدي الطويل يبدأ من تركمانستان فينطلق من مدينة عشق آباد فيذهب إلى طشقند حيث تجتمع معه خطوط أخرى تذهب إلى موسكو.

إنها بلاد واسعة شاسعة حافظ عليها سادتها الروس أزماناً باسم التملك والاستئثار الذي لم يسموه حتى بالإستعمار، ثم باسم الأممية والأخوة الإشتراكية تحت راية الشيوعية إلى أن سقطت الشيوعية. إنه مُلْك عريض.

التوت ودود القز:

وصل الطريق إلى منطقة قد غرسوا على جانبيه فيها أشجار التوت القصير الذي يقطعونه كلما زاد ارتفاعه عن مقدار معين وذلك لرغبتهم في أن يُغْصن أي يخرج أغصانه وتورق فيربون عليها (دود القز) والقز: اسم من أسماء الحرير.

ودود القز يعيش على ورق التوت هذا يأكله بنهم حتى إذا سمن عليه مات فوجدوا في باطنه هذا الحرير الطبيعي المسمى بالقز.

ولذلك قال أبو الفتح البستي وهو من أهل منطقة ما وراء النهر هذه:

كدودٌ كدودِ القز ينسج دائماً ويهلك غماً وسط ما هو ناسجه

وهذه البلاد تنتج مقادير كبيرة من الحرير الطبيعي لذلك لم أعجب حينما رأيت كثرة أشجار التوت فيها ابتداء من هذه البلاد الخوارزمية إلى وادي فرغانة الخصيب وما بين ذلك.

هذه أوركنج:

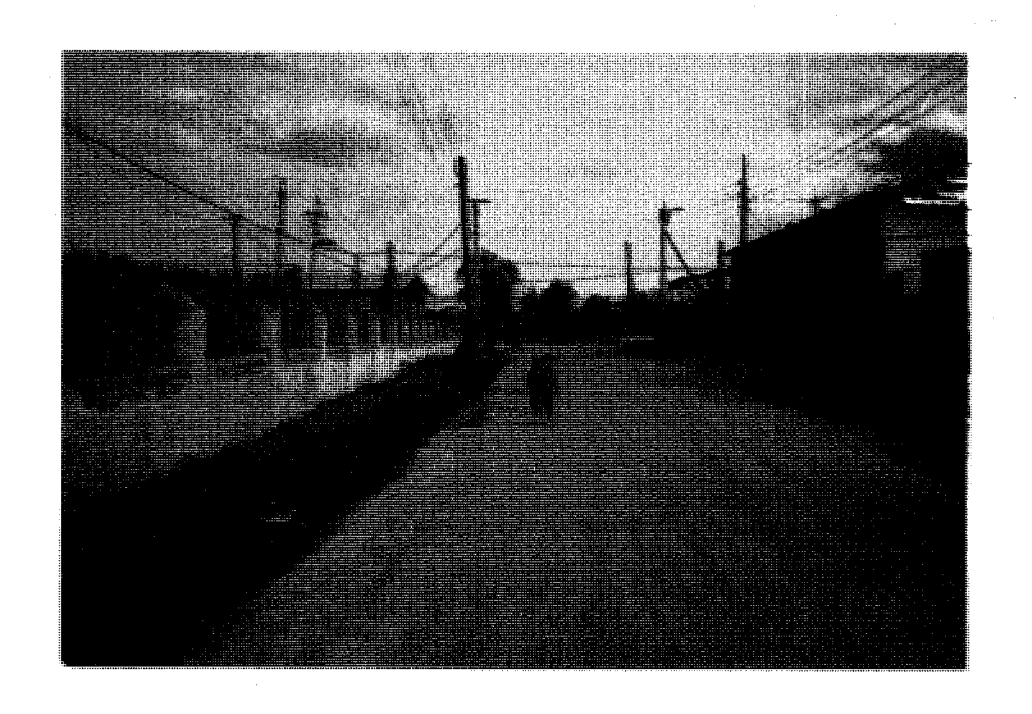
استقبلتنا (أوركنج) بضاحية عتيقة الطراز من ضواحيها وإن لم تكن كذلك من حيث الواقع، بيوتها من الطين تظللها أشجار الفاكهة التي غرسوها أمام البيوت في مكان الأرصفة من الشوارع الحديثة إلا أن هذه الأشجار وإن كانت مورقة فإنها لم تستكمل أوراقها بعد، لأن البرد قد تأخر في هذا العام حتى نزل الثلج قبل خمسة أيام.

تاريخ أوركنج:

(أوركنج) تعاورتها الأحداث الجسام، مثلما تعاورت الألسن اسمها في الكلام، فتطورت من كركانج إلى الجورجانية عند أسلافنا العرب ثم إلى (أوركنج).

وذلك أنها كانت واقعة في المنطقة التي لا تبعد كثيراً عن شاطىء نهر جيحون العظيم (أموداريا) فكان النهر يفيض عليها في بعض الأحيان

حتى يدمرها وقد يمحوها من الوجود في ذلك المكان فينقلها أهلها إلى مكان آخر ومع ذلك يبقون على تسميتها (أوركنج).



صورة رقم (٣٥): شارع في أوركنج

وحتى اليوم توجد أوركنجتان ـ إن صح التعبير ـ إحداهما (أوركنج) هذه التي فيها المطار الذي سنطير منه مساء هذا اليوم إلى طشقند بإذن الله والثانية (كوهنا اوركنج) بمعنى اوركنج القديمة.

ولنستمع إلى حديث من أحاديث أسلافنا من العلماء العظام عن أوركنج:

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان:

كُرْكانْج: بالضم ثم السكون، وكاف أخرى، وبعد الألف نون ساكنة

يلتقي بها ساكنان ثم جيم: اسم لقصبة بلاد خوارزم ومدينتها العظمى، وقد عُرِّبت فقيل الجرجانية، فأما أهل خوارزم فيسمونها كركانج، وليس خوارزم اسماً لمدينة بعينها إنما هو اسم للناحية بأسرها، وهما كركانجان: فهذه الكبرى وبينها وبين كركانج الصغرى ثلاثة فراسخ وعهدي بالصغرى وهي أيضاً عامرة كثيرة الأهل ذات أسواق وخيرات، وما أظنهما إلا خربتا معاً في وقت التتر في سنة ٦١٨، والله المستعان؛ ينسب إليها أبو نصر محمد بن أحمد بن علي بن حامد يكتب من الأدباء.

وقال ياقوت أيضاً في المعجم:

الجُرْجانِيَّةُ: مثل الذي قبله منسوب، هو اسم لقصبة إقليم خوارزم: مدينة عظيمة على شاطىء جيحون، وأهل خوارزم يسمونها بلسانهم كُرْكانْج فعُرِّبت إلى الجرجانية، وكان يقال لمدينة خوارزم في القديم فِيل ثم قيل لها المنصورة، وكانت في شرقي جيحون فغلب عليها جيحون وخرَّبها، وكانت كُرْكانْج هذه مدينة صغيرة في مقابلة المنصورة من الجانب الغربي فانتقل أهل خوارزم إليها وابتنوا بها المساكن ونزلوها، فخربت المنصورة جملة حتى لم يبق منها أثر وعظمت الجرجانية، وكنت رأيتها في سنة ٦١٦ قبل استيلاء التتر عليها وتخريبهم إياها، فلا أعلم أن رأيت أعظم منها مدينة ولا أكثر أموالاً وأحسن أحوالاً، فاستحال ذلك كله بتخريب التتر إياها حتى لم يبق فيما بلغني إلا معالمها، وقتلوا جميع من كان بها.

جولة في أوركنج:

والمقصود من الجولة هنا رؤية المساجد والمؤسسات الإسلامية التي سبق أن ساعدنا فيها ومعرفة سير العمل فيها وليس المراد الجولة السياحية لأنني سبق أن قمت بذلك من قبل وذكرته في كتاب: «يوميات آسيا الوسطى» وبخاصة الجولة السياحية فوق نهر جيحون.

ذهبنا قصداً إلى بيت الشيخ (أحمد جان محمد سعيد) رئيس الأئمة

في ولاية خوارزم وبعضهم يقول: «إقليم خوارزم» ولنا به معرفة سابقة. وكان الإخوة قد هاتفوه من تاش حوض أو أرسلوا له رسولاً يخبره بقدومنا.

وهو أيضاً وجيه من وجهاء المنطقة وعضو في المجلس النيابي (البرلمان) في أوزبكستان.



صورة رقم (٣٦): المؤلف واقف في حقل برسيم صغير في مكان الرصيف أمام البيوت في أوركنج

إلى المركز الإسلامي:

لم نلبث طويلاً في بيت أخينا وصديقنا الشيخ (أحمد جان) وإنما تناولنا فيه شيئاً رأيناه قد أعده على الخوان قبل وصولنا على عادتهم في

إكرام الضيف وكونه لا بد من أن يقدم له طعام في أية ساعة من ليل أو نهار، حتى إنني رأيتهم يأتون بالخبز ولو لم يكن للقادم حاجة إليه، ولا بد من أن يأخذ بيده منه ولو شيئاً يسيراً لأن ذلك من باب إكرام المضيف أن يأكل الضيف من الطعام الذي يقدم إليه.

ثم ذهبنا في موكب إلى (المركز الإسلامي).

ويقع في حي يسمونه (حي الأربعين عصفوراً) وبلغتهم (قرق: ٤٠ سيجه) وسيجه: كلمتان هما (سي) و(جه). كان في الإستقبال عند المركز عدد من الإخوة منهم الأخ (حسين باي) متولي المشروع بمعنى رئيس جمعيته.

وجدناهم قد صبوا أساسات المسجد في بناء قوي جداً يمكن أن يكون كبناء قلعة أو بناء ذي طوابق عالية عديدة كل ذلك بالإسمنت المسلح القوي، وهو إلى ذلك واسع بحيث يعجب المرء منا من علو هممهم، إذْ أقدموا على ذلك من دون أن يضمنوا الحصول على التبرعات اللازمة لهذا المشروع الضخم.

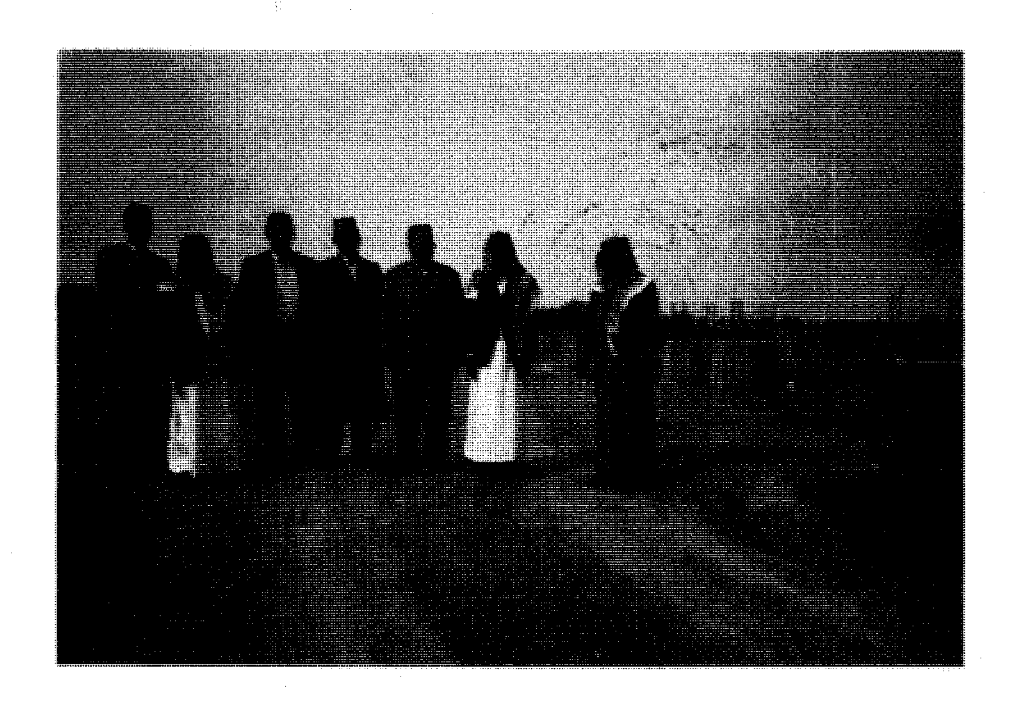
ولكننا من خلال تجربتنا في رابطة العالم الإسلامي قد عرفنا أن من يقوم بمثل هذا العمل ويبدأ به ويعمل لإنهائه بجد واجتهاد فإن الله تعالى سوف ييسر أمره وإن المشروع سوف يتم بإذن الله لأن الإخوة المسلمين القادرين على التبرع يسارعون إلى التبرع لمشروع إسلامي بدأ به العمل، ولم يتم بخلاف المشروع الذي لم يبدأ به أصلاً.

فقد ذكروا أن مسطح المباني في هذا المركز سيبلغ أربعة هكتارات وأن المصلى الرئيسي في المسجد ستكون مساحته ٤٥ متراً في ٤٥ متراً.

كما ذكروا الوحدات التي سيتألف منها المركز بأنها هذا المسجد الكبير العظيم، ومدرسة إسلامية واسعة، وفندق يكون فيه مطعم يوفر اللحم الحلال، ومكتبة عامة، ومساكن للعاملين في المركز. هذا إلى جانب مكاتب وأماكن للضيوف ومرافق أخرى.

ومن الدليل على عظمة ما سيكون عليه البناء أنهم أطلعونا على المخططات المتعلقة بالمسجد فإذا به تتوسط سقفه قبة ضخمة وله منارة شاهقة سيكون ارتفاعها ٤٥ متراً وستكون أعلى بناء في المنطقة.

ومع ذلك فإن كل ما أنفقوه ـ على كثرته بالنسبة إلى الدخول في هذه البلاد ـ كان من التبرعات الداخلية إلا أشياء قليلة مثل مبلغ كنا دفعناه للمشروع عندما زرته قبل ذلك.



صورة رقم (٣٧): تذكارية لوفد الرابطة بجانب قواعد وأساسات المركز الإسلامي في أوركنج بجانبي الشيخ أحمد جان

وقلت للأخ الشيخ أحمد جان وأحد الإخوة يلتقط لنا صورة تذكارية: إنني أرجو أن يكون اللقاء الآخر لمناسبة افتتاح هذا المركز بعد إتمام بناء المسجد، فطلب مني الدعاء بأن يحقق الله ذلك.

ولاحظت أن أرض المركز واسعة وأن بجوارها مزارع عامرة فسألته عنها فقال: هذه المساحات كلها تابعة لأرض المركز لأنها تصل إلى ١٦ هكتاراً، ونحن نؤجر هذه الأراضي لمن يزرعها ونصرف ريعها للمركز.

قال: وحتى بعد استكمال الأبنية المذكورة ستبقى في أرض المركز بقية صالحة للإستغلال ننوي أن نؤجرها لمن يزرعونها ونستفيد من ذلك للمركز.

مسجد شهاب الدين خوجه:

ركبنا مع الشيخ أحمد جان على سيارته التي يقودها بنفسه على شوارع حديثة في ضواحٍ من ضواحي المدينة الجديدة واسعة الشوارع، بيوتها جديدة ولكنها علَى طراز تقليدي قديم، فقد أخذ الناس يبنون لهم بيوتاً خاصة بعد أن كان ذلك غير ممكن لهم وهي بيوت متواضعة في الغالب تكون من الآجر وبمساحات ضيقة إلا أنها تكون لها فراغات من الفضاء تكون بجانبها أو أمامها لأن الأرض رخيصة والسكان ليسوا كثراً. حتى دخلنا إلى قلب المدينة الجديدة الذي هو ذو شوارع مسفلتة مشجرة الجوانب ولكن أشجارها قصيرة مما يدل على أنها حديثة الغراس حتى وقفنا عند مسجد (شهاب الدين خوجه) وكنت سميته عند زيارتي الأولى (مسجد بلطة) إضافة إلى اسم القائم عليه الأخ عبد الرحمن بن بلطة باي.

ويقع في حي قراول قيشلاقي وهو مسجد اكتمل بناءه ويعملون حالياً على تشطيبه من الداخل وقد سبق أن زاره وفد الرابطة في أواخر عام ١٤١٠ وكان أساسه قد وضع حينذاك وهو الآن قائم يصلى فيه، ويدرس فيه نحو ٥٠ طالبا وطالبة. والتقى وفد الرابطة بإمامه الشيخ زوي باي عبد الرحمن ثم حضر الشيخ عبد الرحمن بن بالته باي متولي المسجد وهو رجل مسن سبق أن قابله وفد الرابطة في زيارته الأولى ولا يزال المذكور يتذكر. وقد نظم في ذلك قصيدة باللغة الأوزبكية جاء فيها:

جزير يستان اره لار بولدى مهربيان   محمد صادق برله عرب لار كليب

راى سنتر مسجد كاخير لار متليب   اوج مينك دولار بروى خير لار متليب

ومعناه:

أصبحت الجزيرة منبع الحب	وجاء إلينا العرب مع محمد صادق
وقد ساعد أولئك المساجد	وساعدونا بثلاثة آلاف دولار

وتبرع وفد الرابطة لإتمام تشطيبات المسجد بمبلغ ألفي دولار.

وجدت المسجد قد اكتمل بناؤه على الصورة التي كنا تخيلناه عليها عندما رأينا رسومه ومخططاته لأول مرة فالتقطت له صوراً من الشارع. ولم أستطع ذلك إلا بعد أن خضت في حوض من القت (البرسيم) كان أهل البيت الذي يقع أمامه قد زرعوه أمام بيتهم في مكان الرصيف من أجل أن ينتفعوا به في علف الماشية.

وقد زرع جيرانه أمام بيوتهم خضرات إلى جانب أشجار الفاكهة المعتاد أن تكون أمام البيوت القديمة. ثم غادرنا مسجد شهاب الدين خوجه فسلكنا شارعاً عاماً واسعاً تماشيه قناة ذات جانبين مبلطين وهي قادمة من النهر: نهر جيحون الذي يسمونه (أموداريا).

وعلى جانب الشارع أشجار الفاكهة التي من أهمها أشجار التوت.

ولاحظت هنا شيئاً لاحظته في (أوركنج) وهو وجود أفران للخبز تكون في الشارع وليست في داخل البيت وهي مرتفعة تصل إلى صدر الرجل أخبرونا بأنها تكون لصاحب البيت الذي جعلها بجانب بيته، ولمن شاء من الناس أن يخبز فيها.

وهذا شيء لم أره في غير هذه المنطقة.

الغداء الرابع:

كنا تناولنا الغداء الثالث في بيت الشيخ نصر الله بن عباد الله في تاش حوض في الثالثة ظهراً، وقد عدنا إلى بيت أخينا وصديقنا الشيخ أحمد جان فوجدناه قد أعد مائدة غداء كبيرة قد أعدها فوق سفرة واسعة أدار حولها الحشايا ليجلس فوقها الآكلون.

وقد تناولنا ما استطعنا تناوله من الأطعمة الموجود على السفرة، إلا أننا عرفنا أن الأنواع الرئيسية في المائدة لم تأت بعد، إذ أخذ رجال من رجال الشيخ أو جيرانه يساعدون في نقل الصحاف والأطباق من داخل البيت إلى المائدة ونقل الأطباق التي كانت على المائدة إلى البيت لكون السفرة لا تتسع لها كلها.

وكان من ألذ ما في هذه المائدة اللحم الصليق وهو المسلوق، فقد وجدنا له طعماً ممتازاً برغم كوننا أكلنا منه ثلاث مرات في هذا اليوم، وذكروا أنه لحم من الأغنام التركمانية التي هي مشهورة بطيب لحمها، بسبب جودة مراعيها التي هي كلها مراع برية طبيعية.

والشيء الذي استطبناه أيضاً بعد أن جربناه مراراً هو أن أكل العسل الذي لا بد من أن يقدموه في موائدهم في بلاد ما وراء النهر مما يساعد على الهضم، وبخاصة هضم اللحم.

وصرنا نأكله مع شيء من البصل النيء، وكل ذلك مما ساعدنا على هضم الطعام الكثير الدسم الذي أكلناه في هذه البلاد المضياف: بلاد ما وراء النهر.

والذي عجبت له وإن لم تكن هذه أول مرة أراه هو البطيخ الذي أحضره الشيخ أحمد جان لنا اليوم. وقال مثلما كان قاله لنا إخوان له في الإسلام في تركستان الشرقية التي تحتلها الصين الشيوعية من أن هذا البطيخ وهو الشمام أو ما نسميه في بلادنا بالخربز إنما هو من بطيخ العام الماضي قد مر عليه الشتاء كله وربما كان معه شيء من الخريف ولم يفسد، بل لم يتغير، ذكروا لنا أنهم يضعونه في منزل تحت الأرض أشبه بالحفرة ويغلقونها بالثلج، وإن كان الثلج لا يباشر البطيخ ثم يأكلون منه في الربيع القادم بعد الشتاء مثل هذا الفصل الذي نحن فيه الآن.

وكانت الفوائد العلمية والنكت والأخبار عن هذه البلاد العريقة ألذ من طعامها اللذيذ مع العلم بأن الشيخ أحمد جان هو مثل مفتي تركمانستان

الشيخ (نصر الله) يعرف قدراً من العربية يحتاج أحياناً معه إلى مترجم إذا أراد أن يتكلم بالعربية، وذلك بسبب قلة تمرسه بالكلام بالعربية.

وقد دفعنا لهم تبرعاً رمزياً للمركز الإسلامي هو خمسة آلاف دولار. وأهدينا له تمراً من تمر المدينة المنورة، ولمن حضر أشياء خفيفة كما أهدى لنا الشيخ أحمد جان مشكوراً عسلاً جيداً وهدية أخرى.

الخروج إلى المطار:

خرجنا من بيت مضيفنا الشيخ أحمد جان في الساعة السابعة عصراً إلى المطار الذي هو قريب من بيته لم يستغرق الذهاب إليه إلا خمس دقائق.



صورة رقم (٣٨): المودعون في ساحة وقوف الطائرات في أوركنج
على يمين المؤلف الشيخ أحمد جان، وعلى يساره الأخ بلطة معه عصاه

وكانوا قد أرسلوا قبلنا إلى المطار من يقطع التذاكر ويشحن الأمتعة، إلا أن أهل المطار امتنعوا من أن يبيعوا التذاكر لنا بالعملة المحلية وهي الروبل، ولم يرضوا أن ندفع إلا بالدولار وبالسعر الرسمي عند الدولة الذي يقل ثلاثة أضعاف عن سعر الدولار بالسوق الحرة.

وليس ذلك فحسب، وإنما حسبوا قيمة التذكرة بالأسعار العالمية، مع أن الأجور عندهم متدنية والخدمات في طائراتهم ومطاراتهم أكثر تدنياً وذلك كله من المساوىء التي ورثوها من الحكام الروس المتسلطين وتلاميذهم الشيوعيين المقلدين.

فدفعنا قيمة التذكرة الواحدة ٨٧ دولاراً أمريكياً مع أن التذكرة لبقية الركاب بما يعادل ستة دولارات تقريباً.

كان خرج معنا جمع من الإخوة المودعين في موكب لافت للنظر من السيارات، وكان بعضهم معهم أطفالهم مما لم يجد مضيفونا متسعاً له في أي مكان من المطار فأجلسونا في ساحة الخروج إلى الطائرة مما يلي المبنى مع أن العادة أنه لا يسمح بالخروج إليها إلا للمسافرين، ولكن ذلك محبة منهم في توديع إخوانهم عند الطائرة وإن خالف ذلك الأعراف المتبعة. حتى الأخ عبد الرحمن بلطة بمظهره المميز وملابسه التقليدية الفضفاضة جاء بعد أن دخلنا جميعاً إلى الساحة ولم يحن موعد قيام الطائرة أحضره إلينا قائد شرطة المطار من باب الإكرام لينضم إلى الموجودين في ساحة وقوف الطائرات.

وقد نفعنا ذلك إذ كانت معنا أمتعة ثقيلة منها سجاد أهدي إلينا من تركمانستان وعسل من خوارزم إلى جانب أمتعتنا المعتادة، وليس في المطار حمالون كما هي الحال عليه في كل أنحاء الإتحاد السوفييتي السابق حتى موسكو، فيجب على كل راكب أن يحمل متاعه معه إلى الطائرة وينزله معه. ولم نكن نستطيع حمل أمتعتنا هذه فأخذ كل واحد من هؤلاء الجماعة الكثر قطعة من المتاع وسار بها معنا حتى وضعها في الطائرة.

ثم صعدنا إلى الطائرة قبل الركاب إكراماً لنا لكوننا ضيوفاً على البلاد، مثلما فعلوا عند قدومنا من (عشق آباد) إلى (تاش حوض) حيث لم يسمحوا لأحد من الركاب بالنزول من الطائرة إلا بعد أن نزلنا.

من أوركانج إلى طشقند:

غادرنا مطار أوركانج في الساعة الثامنة والنصف على طائرة مروحية كبيرة من طراز انطونوف ٢٤ وقد امتلأت جميع مقاعدها بالركاب، وفيها أو لنقل لها مضيفة واحدة فالمضيفة للطائرة أو هي من الطائرة وليست للركاب، إذ بقيت جالسة تقرأ في كتاب في يدها طول الرحلة.

وقد استغرق الطيران إلى طشقند ساعتين إلا ربعاً بهذه الطائرة المروحية، ولم يكن فيه أي إمتاع لأن الظلام كان قد حل، ولا ضيافة من طعام أو نحوه رغم كون الوقت وقت عشاء.

ونحن إذ نقول ذلك نبينه للقارىء الكريم، وإلا فإننا لسنا بحاجة إلى طعام وقد أُتينا هنا من كثرة الأكل لا من قلته.

ومن الغريب في أمر طيرانهم أنه أشبه بركوب الحافلة يأتي الراكب بمتاعه بيده فيضعه في مكان الأمتعة من الطائرة ثم يذهب إلى المقعد وغالباً لا تكون المقاعد مرقمة وإنما يأخذون بطاقة صعود الطائرة من الركاب عند باب الطائرة.

ولا تقوم المضيفة بأي عمل في الطائرة مثل أن تلقي بالتعليمات اللازمة لركوب الطائرة أو كيفية ربط الحزام، وحتى إرشاد الناس إلى مقاعدهم، وحتى زرع ابتسامة ولو مصطنعة في ركن من أركان الطائرة، وإنما هي عابسة مقطبة، إذا سألها أحد عن شيء ردت عليه بجفاء وكأنما هي تخاصمه أو تعانده، مع أن جيوب المقاعد في الطائرة تكون فارغة خالية من أوراق أو صحف أو خرائط توضح مدة الطيران أو نحوه.

العودة إلى طشقند:

وجدنا في مطار طشقند حافلة صغيرة واقفة عند باب الطائرة في انتظارنا خاصة لذلك لم يركب فيها معنا أحد إلا المضيفة الأرضية التي كانت موجودة فيها.

كما وجدنا في المطار سيارتين من الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر وكان المطر ينزل والظلام هو المسيطر مما جعلنا لا نرى شيئاً حتى المرئيات في الطريق من المطار إلى المدينة لم تكن واضحة لهذا السبب.



صورة رقم (٣٩): أشجار الفاكهة على الأرصفة في طشقند

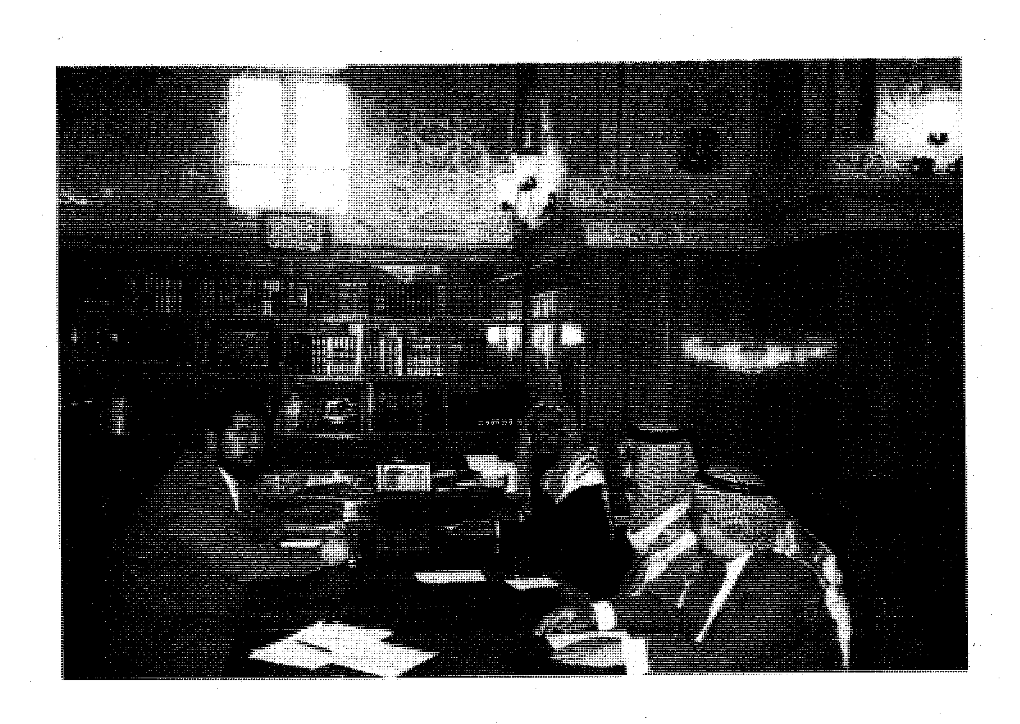
وعدنا إلى فندقنا في طشقند: (فندق أوزبكستان) وكنا أبقينا غرفنا وفيها ما ثقل من أمتعتنا منذ أن وصلنا إلى طشقند أول مرة. وإن كان ذلك يستلزم أن ندفع أجرة الغرف لأيام نحن غائبون فيها، ولكن ذلك سهل جداً لأن أجرتها زهيدة إذ تدفع بالروبل لكونهم اعتبرونا ضيوفاً على الإدارة الدينية حسبما أخبرتهم.

ولأول مرة فتحت جهاز التلفاز قبل النوم فوجدت فيه برامج التلفزة الروسية، ووجدت الطابع على برامجه الترفيه، أو لنقل مظاهر الفرح، ولهم الحق في ذلك إذا كانوا فرحين بتخلصهم من نير الشيوعية الحمقاء. مع أنهم الآن يعانون من عواقب ذلك اجتياز رحلة فاصلة بين النظام الشيوعي المقيد للحريات الذي تتولى فيه الدولة كل شيء وبين نظام السوق الحرة الذي يعطي الأولوية الأولى للمبادرات الشخصية ولا يحد من الإنتفاع بقدرات ذوي المهارات من عامة الشعب.

يوم الأربعاء ٤/ ١١/ ١٤١٢هـ - ٦/ ٥/ ١٩٩٢م:

المباحثات في الإدارة الدينية:

كان صباح هذا اليوم مخصصاً لعقد جلسة مباحثات موسعة في الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وما وراء النهر، وذلك بعد أن أمضينا وقتاً في عدد من الجمهوريات التي تتبع هذه الإدارة واطلعنا على كثير من الشؤون المتعلقة بالمساجد والمدارس الإسلامية والشخصيات العاملة في هذا الميدان.



صورة رقم (٤٠): اجتماع خاص لوفد الرابطة بالمفتي محمد صادق في الإدارة الدينيه في طشقند

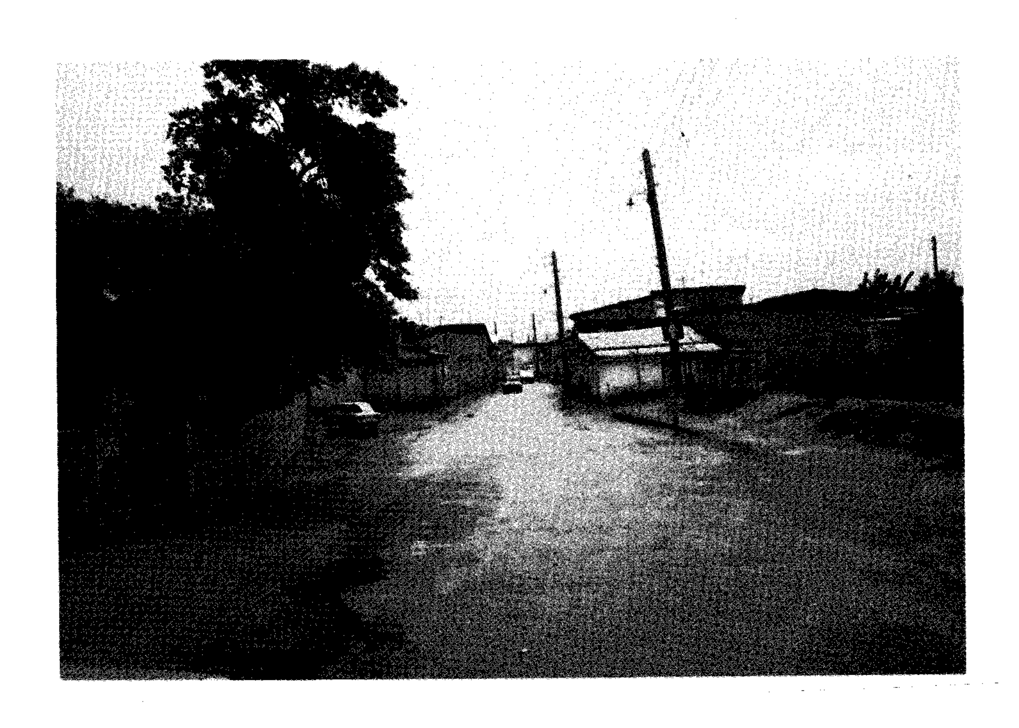
وقد اشتملت هذه المحادثات التي حضرها معي وفد الرابطة المؤلف من الأخوين الأستاذ محمد محمود حافظ المدير العام للإعانات والمشاريع في الرابطة والأستاذ رحمة الله بن عناية الله مدير إدارة الدراسات والبحوث فيها. ومن الجانب الثاني الشيخ محمد صادق بن محمد يوسف مدير الإدارة الدينية ومفتي المنطقة وعدد من مساعديه وموظفي الإدارة.

وقد تناول الإجتماع الأمور التالية والنتائج المترتبة على البحث فيها:

١ ـ زيارة صاحب السمو الملكي وزير الخارجية السعودية لجمهوريات آسيا الوسطى لتوطيد العلاقات الدبلوماسية ودراسة إنشاء ممثليات سعودية ثم زيارة رئيس جمهورية تركمانستان وأوزبكستان للأراضي المقدسة وما لقيه كلٌّ منهما من حفاوة وتكريم من خادم الحرمين الشريفين أدى إلى توثيق العلاقات الأخوية الإسلامية ورفع من معنويات المسلمين وشجعهم للإهتمام بنشاط دينهم الحنيف.

٢ ـ تزايد بناء المساجد حيث بلغ عددها أكثر من ثلاثمائة مسجد في طاشقند وحدها كما أن إقبال الشباب على التعليم الإسلامي يتزايد يوماً بعد يوم. ويتواجد أعداد منهم في كل مسجد يدرسون القرآن الكريم وأحكام الإسلام... وهناك إقبال كبير من الفتيات على حلقات العلم برغبة التفقه في الدين كما أن الحجاب بدأ ينتشر بينهن بشكل كبير.

٣ ـ الإنفتاح السياسي وانهيار الحكم الشيوعي بنظامه ومبادئه والظروف الإقتصادية والإجتماعية والثقافية المضطربة وخشية الأنظمة المعادية للإسلام من الصحوة الإسلامية، ومنهم الشيوعيون الذين لا يزالون يسيطرون على مقاليد الحكم عوامل أدت إلى تكثيف نشاط هيئات التنصير وتسلل الحركات الضالة من القاديانية والإسماعيلية ودفعت بالعلمانيين إلى ممارسة الضغوط للإبتعاد بالمسلمين عن ثقافتهم الإسلامية ومنع عودة المسلمين إلى استعمال أبجديتهم العربية الأصيلة.



صورة رقم (٤١): شارع في القسم القديم من طشقند

٤ ـ تلقت الإدارة الدينية والأنشطة الإسلامية مساعدات مختلفة من بلدان إسلامية عدة ولكن أكثرها وأنفعها كان من المملكة العربية السعودية بيد أن كثرة الأشخاص الذين يحملونها، وآرائهم المتباينة مع عدم معرفتهم وخبرتهم بظروف المسلمين في آسيا الوسطى واجتنابهم التعامل مع الإدارة الدينية الرسمية بسبب الشائعات المغرضة أوقع بعض الأشخاص الذين يحملون تلك المساعدات المالية في وضعها بأيدي أشخاص لا يحسنون التصرف.

٥ ـ انتهت الإدارة الدينية من نشر الترجمة الأوزبكية لمعاني القرآن الكريم التي وضعها الشيخ علاء الدين منصور باللغة الأوزبكية والأحرف

الروسية وهي ترجمة جيدة ولا خلاف فيها ومقبولة عند مسلمي أوزبكستان كما تم طبع ونشر الترجمة الأوزبكية لمعاني القرآن الكريم الخاصة بجزء (عم) التي طبعها الشيخ محمد صادق محمد يوسف ونظراً لحاجته الماسة إلى هذه الترجمات فقد رجا من الرابطة المساعدة على طبعها في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

وقد أجبته بدراسة الموضوع والسعي لدى الجهات المختصة على تحقيق ذلك.

٦ ـ الترجمة القازاقية لمعاني القرآن الكريم التي طبعت في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بعدد ثلاثمائة ألف نسخة وإمكانية إرسالها إلى المسلمين في قازاقستان وغيرها من جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية. وقد رحب الشيخ محمد صادق محمد يوسف بتسلم الكمية ووعد بتوزيعها على المسلمين الذين يستفيدون منها من قبل الإدارة الدينية.

٧ ـ موضوع المنح الدراسية لطلاب هذه البلاد.

وقد استغرق الإجتماع أكثر من ثلاث ساعات.

مسجد اسكندر خوجه:

قام وفدنا وفد رابطة العالم الإسلامي مع الشيخ محمد صادق محمد يوسف بزيارة لموقع مسجد اسكندر خوجه الذي يقع في حي أوسته عالم واجتمع إلى متولي المسجد الأستاذ جلال خوجه بن اسكندر حيث استمع إلى شرحه عن المسجد وعن عزمهم على بناء مدرسة لتعليم أبناء المسلمين قراءة القرآن الكريم وأنهم يعتزمون أيضاً إنشاء مدرسة ثانية للفتيات، إلا أن ما لديهم من التبرعات لا يزيد عن عشرين ألف روبل في الوقت الحاضر.

والمسجد المذكور يقع بالقرب من منزل الشيخ محمد صادق محمد

يوسف وقد قدمنا تبرعاً لبناء المسجد المذكور بمبلغ ثلاثة آلاف دولار إسهاماً من رابطة العالم الإسلامي في إنهاء هذا المشروع، وأخبرناهم أنهم يمكنهم إذا لم يستطيعوا استكمال البناء واستنفدوا الوسائل للحصول على التبرعات المحلية أن يكتبوا إلينا في الرابطة بوساطة الإدارة الدينية هنا وسوف ننظر في طلبهم بإذن الله.



صورة رقم (٤٢): نهر (بوز آريق) المجلوب إلى طشقند من الجبال

جامع الحافظ:

انتقلت بصحبة المفتي أيضاً لمشاهدة أرض تابعة للإدارة الدينية مخصصة لبناء جامع عليها يزمعون تسميته بجامع الحافظ، إلا أنه لا يزال أرضاً لم يبدأ العمل بها.

وهي أرض كبيرة تقع على ضفة نهر صغير يسمى بوزايريق تابعة للإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر التي تخطط لإقامة جامع كبير مع مدرسة متخصصة في تحفيظ القرآن الكريم مع مرافق ومساكن للإمام والمؤذن ولوازم ذلك.



صورة رقم (٤٣): مسجد اسكندر خوجه (تحت الإنشاء) في طشقند

وقد وعدناهم بالمساعدة على بنائه بعد أن يبدأوا بالبناء.

مبنى الأدباء:

كان اللقاء بعد ذلك بالأخ الأستاذ (أمين عثمان) وهو أديب أوزبكي نشرت له عشرة كتب أدبية ما بين قصة وبحث أدبي، وجميع كتبه كانت

نشرتها دار النشر الحكومية. وقد أخبرونا أن النشر توقف الآن تقريباً لأنه لا يوجد الورق الكافي الذي كان يستورد من جمهورية روسيا كما أن الحكومة ليست لديها القدرة المالية على استيراد الورق ولا دفع المبالغ اللازمة للنشر.

واجتمعنا معه في منزله في بناء أسموه مبنى الأدباء أو (عمارة) الأدباء في شقق سكنية عديدة كانت مخصصة للكتاب والمفكرين.

ومعلوم أن المساكن كلها في النظام الشيوعي هي ملك للدولة تؤجرها بأجور رخيصة لعامة الناس.



صورة رقم (٤٤): شارع في القسم القديم من طشقند

وقد خصصوا للأدباء هذا المبنى الذي لا يبدو في نظرنا جيداً بل هو معتاد ولكنهم ينظرون إلى الأمر من زاوية أخرى وهو أن مجرد حصول المرء على مسكن يتمتع بتسهيلات من التسهيلات يعتبر أمراً مهماً.

وجدنا عنده في بيته الذي هو شقة مؤلفة من ثلاث غرف الأخ عبد الغفور جور عضو الوقف الإسلامي وهو يعرف العربية، والأخ أحمد جان ويعمل الآن في التجارة وهو أيضاً عضو في الوقف.

والوقف الإسلامي ترأسه الأخ أمين عثمان، بل هو الذي أسسه بعد أن اتجه إلى الوجهة الإسلامية وكان قبل ذلك لا يعرف عن الإسلام شيئاً فكتب من بين ما كتب قصة ضمنها الحكمة من العبادات في الإسلام صار لها صدى كبير في البلاد وتأثر بها عدد من أبناء المسلمين الذين لم يكونوا متدينين.

وذكر أن اتجاهه للإسلام جر عليه مصاعب كبيرة عند الحكومة فصارت تشدد في التعامل معه.

ومن المعلوم أن حكومة أوزبكستان يسيطر عليها الأشخاص الذين كانوا يحكمون البلاد قبل سقوط الشيوعية غيروا من شعاراتهم ليكتسبوا رضا الشعب الذي يكره الشيوعية، بل غيروا من عملهم أيضاً لكي يبتعدوا به عن الشيوعية ولكنهم بحكم تربيتهم بعيدون عن الإسلام وعن فهم دوره في الحياة ولذلك يتخوفون من المتدينين، وبخاصة من الكتاب والمفكرين.

وتقع (عمارة) الأدباء مقابلة لأبنية متعددة الطوابق يسكن فيها أساتذة الجامعات وبجانبهم مساكن لكبار موظفي الدولة.

أكد الأخ أمين عثمان أنهم يدفعون إيجاراً شهرياً للحكومة هو (٦٠) روبلاً يشمل ذلك نفقات ما تستهلكه الشقة من ماء وكهرباء.

وهذا المبلغ ضئيل جداً إذ يساوي الآن نصف دولار أمريكي تقريباً

وكان مبلغاً كبيراً في السابق يساوي حوالي ١٥٪ من راتب الموظف المتوسط.

وفيما يتعلق بسبب إنشاء الوقف الإسلامي ذكروا أن الذي حملهم عليه أن أديباً إسلامياً كبيراً اسمه (غيرت بن سليمان ملي) قتله الشيوعيون في رمضان الماضي وترك أمه وأختاً له من دون عائل فحفزهم ذلك على إنشاء الوقف، حتى يساعدوا في أمثال هذه الحالة. قال: إننا نحن الأدباء نقوم بالمصرف الضروري الآن على أمثال هؤلاء.

الكلمات العربية في اللغة الأوزبكية:

اللغة الأوزبكية هي في حقيقتها لغة تركية مشتقة من اللغة التركية القديمة المسماة بالجغتاوية أو الطورانية، وهي حافلة بالكلمات العربية التي يلاحظها السامع غير المتخصص. إذ يسمعها تتردد في أثناء الكلام، وأكثرها كلمات واضحة من دون تحريف أو تغيير.

وهذا أمر ظاهر السبب لأن ثقافة هذه البلاد هي ثقافة إسلامية عريقة كانت تتخذ اللغة العربية لغة رسمية تدون بها الكتب والوثائق العلمية، وتنظم بها الأشعار التي لو جمعت الآن لألفت عشرات المجلدات.

ولا بد من دراسة تأثر هذه اللغة بالعربية دراسة وافية لمعرفة الأطوار التي تقلب فيها ذلك التأثير الذي بدأ بعد الفتح الإسلامي في أواخر القرن الأول الهجري.

إلا أن ذلك أمر لا يتيسر في مثل هذه المذكرات السريعة، وقد انتهزت فرصة وجود بعض الأدباء وفيهم من يعرف العربية فسألتهم عن نسبة الكلمات العربية في اللغة الأوزبكية؟ فذكروا أنه توجد في الأوزبكية ٤٠٪ من كلماتها عربية صريحة، أو كما قالوا: صافية. كما توجد فيها ٢٠٪ من الكلمات ذات أصل عربي ولكنها محرفة ومغيرة بحيث لا يستطيع ردها إلى العربية إلا باحث متخصص. ولكن تكرر الآن ما سمعته

مئات المرات من كلمة (رَحْمَتْ) بمعنى شكراً. هكذا يستعملون هذه الكلمة العربية (رحمة) بمعنى شكراً. وعند مفارقتهم قالوا (سلامة بولي) أي مع السلامة.

إلى نهر سيحون:

نهر سيحون أحد النهرين الكبيرين المشهورين في هذه المنطقة: منطقة ما وراء النهر، والثاني هو نهر جيحون، وقد قرن به في عدد من الأخبار والآثار التي روي بعضها في الحديث ولكنها ليست صحيحة مثل الأثر المروي: «سيحون وجيحون والنيل والفرات من أنهار الجنة».



صورة رقم (٤٥): تذكارية مع المفتي الشيخ محمد صادق على أرض الإدارة الدينية على ضفة نهر سيحون

وقد رأيت نهر جيحون في هذه السفرة من الطائرة وقربت من ضفافه في خوارزم وكنت رأيته في المرة الماضية وركبت متنه في نزهة جميلة وصفتها في كتاب: «يوميات آسيا الوسطى» وهو أكبر النهرين.

أما سيحون فإنني رأيته أيضاً في المرة الماضية وهو شاب أي حديث المغادرة لمنبعه الأصلي في الجبال المتصلة بجبال الهملايا وذلك عندما مررنا به بل بأصليه وهما في وادي فرغانة.

وفي هذه المرة تقرر أن نراه من مجراه الذي لا يبعد عن مدينة طشقند إلا بـ٦٠ كيلومتراً. ولذلك كان بعض الجغرافيين العرب القدماء يسميه (نهر الشاش).

وسوف نرى النهر ونرى أرضاً اشترتها الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر تقع على ضفته ثم لكي نحضر بعد ذلك مأدبة عشاء كبيرة يقيمها الأئمة ومدرسو الدين الإسلامي في هذه المنطقة.

غادرنا طشقند في الخامسة عصراً في جو غائم، بل ممطر لم يكد ينقطع مطره منذ الصباح ذكر لنا الإخوة من أهل البلاد أنه ليس من المعتاد عندهم أن يكون بهذه الكثرة في هذا الوقت من السنة، وإن كثرته واستمراره تضر ببعض الفواكه التي لا تزال أشجارها في حالة إزهار الآن. لا سيما أنه قد نزل بَرَد ـ بفتح الراء ـ في بعض الأماكن.

وسرنا مع طريق مزدوج لا بأس بجودته وإن كان لا يقاس بمستوى الطرق في بلادنا التي لا تدانيها طرق كثير من بلدان العالم ما عدا الولايات المتحدة.

ومررنا بنهر (بوز آريق) الذي سبقت الإشارة إليه، وهو نهر طشقند، وسمي (بوز آريق) على اسم القناة لأن آريق: قناة بلغتهم، وذلك لكون أصله قناة شقت لتتلقى مياه النهر التي كانت تأتي من الجبال وتتجه بعيداً من طشقند ومدت القناة حتى دخلت مدينة طشقند.

كان الجو جيداً بالنسبة إلينا نحن الذين نحب منظر المياه والأمطار

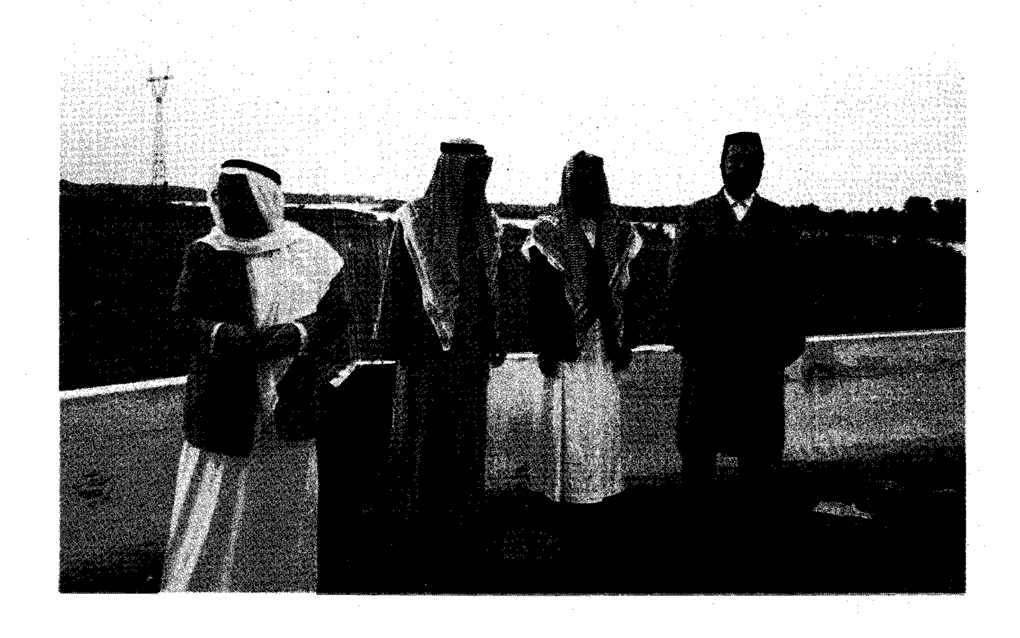
ولم يكن البرد بالغاً، وقد إزدانت جوانب الطريق وما حوله بأشجار التوت الشديدة الخضرة التي تربى عليها دودة القز.

لا سيما أن السحاب كان يتمزق في بعض الأماكن فتشرق الشمس دافئة حانية ثم ما يلبث السحاب أن يلتئم ثم يمطر فيعاقب الجو الشامس بجو ماطر.

والمنطقة التي سرنا فيها كلها منطقة زراعية معمورة بالزراعة.

كان معي في السيارة الأخ المفتي الشيخ (محمد صادق محمد يوسف) وهو على اسمه صادق الخبر، صحيح الرواية.

على ضفة النهر:



صورة رقم (٤٦): تذكارية بالقرب من نهر سيحون

وقفنا عند جسر فوق نهر (سيحون) في هذا الجو البديع والتقطنا صوراً تذكارية هناك ثم دخلنا إلى ضفة النهر مع بداية للأرض التي اشترتها الإدارة الدينية على ضفة النهر وهي أرض زراعية تريد تأجيرها لاستغلالها في الزراعة.

وهي واسعة المساحة وفيها بيت قديم ولها قسم من ضفة النهر أي أن جزءاً منها واقع على نهر سيحون نفسه.

قالوا: وهذه الضفة غنية بالسمك تقصد لصيد السمك منها لكونها مغلقة.

وقد رأيت اثنين من الروس في مكانين مختلفين يصطادان السمك: أحدهما رجل أقطع الرجلين أي أن رجليه كلتيهما قد قطعتا ولا أدري أذلك في حرب أم في حادث عارض وقد ركب له رجلين صناعيتين كان يخلعهما عندما يجلس على الأرض ورأيناه جالساً يصطاد بسنارته فسألته بوساطة الإخوة المرافقين الذين كلهم حتى مشايخهم وأئمة المساجد فيهم يعرفون الروسية عما إذا كان يكسب كسباً مجدياً من صيد السمك أم أن ذلك لمجرد إشباع هواية له في ذلك؟ فأجاب بأنه يفعل ذلك للتكسب وأن متوسط ما يكسبه هو مبلغ كذا لا أذكره الآن لكن المرافقين ذكروا أنه مبلغ كبير يساوي ضعف راتب موظف متوسط أربع مرات.

والثاني امرأة روسية شابة جميلة المظهر، والجميلات من الروسيات حسب مقاييسنا في البلدان العربية قليلات ما عدا اللون وشقرة الشعر.

وقد رأيتها تصطاد السمك من النهر ومعها كلبها، ولم نقف عندها وإنما كنا قريبين منها ولم نكلمها فصدف أن أمسكت سنارتها بعد وقوفنا بسمكة كبيرة أخرجتها من الماء فرحة بها، فسارعت أنا لالتقاط صورة لها ومعها تلك السمكة، وانتهى الأمر عند هذا الحد، وانصرفنا نريد الذهاب من عند شاطىء النهر. وإذا بها تأتي راكضة والسمكة الكبيرة معلقة بيدها، ثم تقدمها إليَّ وهي تقول إنها هدية مني إليك.



صورة رقم (٤٧): المرأة الروسية في المكان الذي صادت فيه السمكة التي أهدتها للمؤلف

ولم أفهم ذلك وظننت أنها تعرضها للبيع فقال الإخوة: إنها تعطيك هذه السمكة هدية، فسألتهم عن قيمتها في السوق فأجابوا إنها تساوي (١٠٠) روبل، وذلك يعادل نصف راتب شهر لموظف صغير، فأخرجت مائتي روبل وهي بالنسبة إليَّ تساوي دولاراً أمريكياً وثلثاً أي في حدود خمسة ريالات سعودية فأعطيتها إياها فامتنعت فأخذها الإخوة وقدموها لها فأبت، وقالت: أنا قدمتها هدية لهذا السيد لا أريد لها جزاءً.

وقد أخذها الإخوة وعجبت من أمر المرأة، مع العلم أنها لم تكلمنا وإنما كنت أرتدي الملابس العربية مما عرفها بأنني أجنبي عن البلاد

النهر نصف اسمه عربي:

اسم هذا النهر الذي نحن الآن على ضفافه (سيحون) كما مر بك، وهذا اسمه في كتب أسلافنا العرب الأماجد وكتب أسلافنا أيضاً من علماء المسلمين الذين أنجبتهم هذه البلاد من غير ذوي الأصول العربية الذين اتخذوا الإسلام عقيدة وانتماء واللغة العربية شعاراً ودثاراً.

ولكن اسم النهر عند أهل هذه البلاد في الوقت الحاضر غير ذلك، إنهم يسمونه نهر (سر داريا) فكلمة (داريا) كلمة تركية عريقة لذلك دخلت في اسم هذا النهر العريق الذي لا يمكن إلا أن يكون له في العادة اسم محلي عريق، مثلما دخلت في اسم شقيقه نهر (جيحون) إذ يسمونه هنا (أموداريا).



صورة رقم (٤٨): الرجل الأقطع الذي يصطاد السمك من نهر سيحون

وأموداريا مؤلف من كلمتين غير عربيتين فأمو معناه المجتمع أو المتكامل وداريا: نهر.

أما سيحون فإن نصف اسمه من العربية لأن اسمه (سر داريا) مؤلف من كلمتين أيضاً أخراهما كلمة (داريا) التي ذكرتها، وأولاهما كلمة (سِرّ) وهي الكلمة العربية التي هي السِّرّ: ضد الجهر أو العلانية، ويعني الاسم نهر السِّر.

وهذه التسمية هي تسمية إسلامية ظاهر ذلك من وجود كلمة السر فيها، ومن الروايات التي نذكرها عن سبب التسمية.

حدثنا الشيخ رستم بن رحمة الله زاده من أهل المنطقة أن سبب تسمية هذا النهر بنهر السر هي ـ فيما يقال ـ أن وليين من أولياء الله سارا على صفحة مياه هذا النهر أحدهما من أحد طرفيه والآخر من الطرف الثاني حتى اجتمعا في وسطه وأسر كل واحد منهما شيئاً من الولاية أو العلم الصوفي الذي لا يريد أن يعرفه غيره. وقد جهد الناس في ذلك الوقت أن يعرفوا ذلك الكلام فضلاً عن كونهم لم يعرفوا الطريقة التي سار بها هذان الوليان المفترضان فوق ظهر مياه النهر من دون أن يغوصا فيها، وبخاصة منهما من كان يسير ضد تيار النهر، ولكن لا أحد يعرف ذلك وبقي سراً مكتوماً، لذلك سمى الناس هذا النهر (نهر السر) أو (سر داريا) باللغة المحلية.

أما التسمية العربية (سيحون) فإنها مشتقة فيما يظهر من (ساح يسيح) إذا كان الاسم عربياً. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان:

سَيحون، بفتح أوله، وسكون ثانيه، وحاء مهملة، وآخره نون: نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خجندة، بعد سمرقند، يجمد في الشتاء، حتى تجوز على جمده القوافل، وهو في حدود بلاد الترك.

مأدبة الأئمة والمدرسين:

والمراد بالمدرسين هنا الذين يدرسون الدين الإسلامي والأئمة أئمة

المساجد وذلك في بيت أخ كريم من أهل بلدة مجاورة لنهر سيحون اسمها (تشيناز) وقد اختلط علي اسمه فحفظت أنه بهادور بن مقصود خان. ولكن أحد المرافقين قال: إن اسمه مصطفى حيدر فأرجو المعذرة عن عدم التفريق بينهما.

وذكروا أن عندهم عادة أن يقيم أحد القادرين منهم حفلة عشاء مثل هذه بصفة دورية يحضرها المفتي والأئمة والدعاة والمدرسون.

وجدنا مقدمات الطعام قد ضاقت بها المائدة الكبيرة الحافلة بما لذ وطاب بحيث لم يبق فيها مكان لآنية أخرى أو صحن آخر.



صورة رقم (٤٩): على مائدة الأئمة والدعاة في مدينة تشيناز
على يميني المفتي الشيخ محمد صادق وعلى يساري الأستاذ محمد محمود حافظ

وقبل أن يبدأ الأكل جاؤوا برأس الذبيحة في صحن وحده ومعه سكين، وقالوا: عادة القازاق هنا أن يقدم الرأس لكبير القدر من الضيوف، فيقطع قطعة منه بالسكين ويأكلها ولا يشاركه غيره.

وهكذا طلبوا مني أن أقطع شيئاً من الرأس المطبوخ بالسكين وآكله ففعلت، فعادوا بالرأس إلى البيت، ولم يضعوه على المائدة ثم بدأ الأكل حيث يكون هذا عندهم بمثابة الدعوة إلى البدء في تناول الطعام.

والمقدمات الموضوعة على المائدة كثيرة ومتنوعة وشهية فيها الفاكهة أنواع منوعة والخبز الذي قطعوه قطعاً والنقل وهو المكسرات والعسل الصافي الذي لم يخالطه مخالط والسلطة مع بعض الخضرات الطازجة.

ثم جاءت الأطباق الحارة تترى في مقدمتها الحساء التركستاني الشهير الذي لا بد من أن يكون كثيراً دسماً في (سلطانية) كبيرة قد طبخوا معه شيئاً من الشعيرية وفيه قطع من لحم الغنم الدسم. ثم الأرز البخاري وأنواع اللحم والسمك النهري إلى أشياء لم أستطع ذكرها كلها. وقبيل الفراغ من الطعام أذن مؤذن منهم لصلاة المغرب فصليناها جماعة في صفوف ضاق بها المنزل لكثرتها.

الحفل الخطابي:

عدنا بعد الصلاة إلى أماكننا على هذه المائدة الضخمة التي لا تزال عليها صحون الفاكهة والأطعمة الخفيفة وعادتهم في الفاكهة أن يضعوها على المائدة مع المقدمات فيأكل منها الآكلون قبل الطعام وأثناءه وبعده.

تكلم الشيخ المفتي محمد صادق محمد يوسف كلمة رحب فيها بوفد رابطة العالم الإسلامي برئاستي، وذكر زيارتي الأولى لهذه البلاد في وقت استحكام الشيوعية ثم الزيارة الثانية بعد أن ارتخت قبضتها ولكنها لم تكن قد ماتت فعلاً ثم في هذه المرة الثالثة التي أعلن فيها دعاة الشيوعية

ومنظروها والقائمون على تطبيقها أنها قد ذهبت إلى غير رجعة لأنها قد ماتت ميتة الخزي العار فيما كان يسمى بالإتحاد السوفييتي في السابق.

وأثنى على شخصي الضعيف جزاه الله خيراً، وقال من بين ما قاله:

وفي بلادنا نشهد الآن نهضة دينية جيدة ولله الحمد، فقد أقامت إدارتنا التي هي الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر خمس دورات تدريبية لأئمة المساجد ومدرسي اللغة العربية وأنشأنا قسماً نسوياً لتفقيه الأخوات المسلمات في الدين وتأهيل بعضهن للدعوة إلى الله.

وقال: حتى الشؤون الإجتماعية بدأنا العمل فيها بإنشاء قسم خاص بها في الإدارة الدينية. وكذلك ـ كما قال ـ أنشأنا قسماً للإعلام الإسلامي وباشرنا طبع بعض الكتب الإسلامية لكن المشكلة هي في قلة الورق وفي ارتفاع نفقات الطباعة.

ثم ذكر التوسع العظيم الذي شهدته البلاد مؤخراً في عدد المساجد والأئمة والدعاة. إلا أنه قال لي إن ذلك فرض علينا التوسع في النفقات وإن ذلك هو مشكلتنا الكبيرة. ثم قال لي إن الحاضرين معنا الآن هم أئمة المساجد ومدرسو الدين الإسلامي والعاملون في الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر والمنضمون إليها وإنهم أخبروني أن وجودكم معنا فرصة أحبوا أن ينتهزوها ليسمعوكم بما يريدون أن تسمعوه منهم وليستمعوا منكم إلى ما تريدون أن توجهوه إليهم من كلمات وتوجيهات.

فتكلم عدد منهم بما ملخصه:

إن الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر ليس لها مورد ثابت ولا ميزانية محددة وقبل انهيار الحكم الشيوعي كانت تتلقى فائض تبرعات المسلمين للمساجد، وكان النشاط الإسلامي محدوداً... والآن أصبحت المساجد هي التي تتطلب المساعدات المالية ونأخذها لإجراء أعمال الترميم والإصلاح ولإنشاء فصول دراسية لتعليم القرآن الكريم وعلوم

الإسلام وما يردها حالياً وقف في غلة بعض الأوقاف والمساعدات الخارجية وهي لا تكفي احتياج العمل الإسلامي المتزايد.

المسؤول في التعليم:

وهو نور الله محمد مسؤول التعليم في الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر، قال: التعليم الإسلامي أخذ ينتشر ويتسع مع الأيام بالإضافة إلى حلقات التعليم في المساجد فهناك مدارس ومعاهد إسلامية عديدة منها:

المعهد الإسلامي في طشقند يضم أكثر من ٢٠٠ طالب.

مدرسة ميرعرب الإسلامية في بخارى تضم ٤٠٠ طالب.

معهد الطالبات المسلمات في طشقند يضم ٥٠٠ طالبة.

علاوة على هذا هناك معاهد ومدارس إسلامية في فرغانة ودوشنبه وتاش حوض وبشكك وسمرقند و٦٠٠ روضة أطفال يدرس فيها مبادىء الإسلام بالإضافة إلى مئات من حلقات الدرس في المساجد... وإن الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر تخطط لإرسال طلاب المعاهد والمدارس الإسلامية في قوافل الدعوة والإرشاد إلى القرى والأرياف في جمهوريتي قازاقستان وقيرغيزستان في أشهر الصيف.

ـ تقدم المسلمون إلى حكومة أوزبكستان بطلب إدخال التعليم الإسلامي في برنامج التعليم العام في المدارس الحكومية وهناك موافقة مبدئية والقرار الأخير سيتخذه برلمان أوزبكستان وهم يطلبون من الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر المدرسين والكتب الإسلامية وقد وعدت الإدارة بتأمين ذلك وهناك موافقة مبدئية من الإخوة الكويتيين للمساعدة المالية على نفقات المدرسين والكتب.

ـ الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر بصدد إنشاء معاهد ومدارس إسلامية في عدد من المدن مثل طشقند، ونمنكان، وسمرقند وقد وعد

البنك الإسلامي للتنمية المساعدة على تمويل إنشاء بعضها. . . كما أن هناك عدداً من مباني المدارس الإسلامية القديمة تم استلام بعضها ويجري استلام البعض الآخر ولكن يقتضي الأمر توفير مبالغ مالية للإصلاح والترميم حتى يمكن الإستفادة منها.

- يجري العمل على إعداد الدعاة من خلال ابتعاث الطلاب إلى الجامعات الإسلامية فهناك أعداد من الطلاب المبتعثين يدرسون في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وجامعة الأزهر في القاهرة وكليات الشريعة في دمشق بسوريا وعمان بالأردن وهكذا. . ومع ذلك فإن الحاجة ماسة إلى مزيد من المنح الدراسية لابتعاث الطلاب وتعاون الرابطة في هذا الصدد مهم للغاية.

كلمة المسؤول عن الشؤون الإجتماعية:

- محمد بكر يولداش، مسؤول الشؤون الإجتماعية في الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر، قال: هناك أفراد متخصصون لجمع الصدقات والزكاة من مختلف الولايات والمدن. . . كما نتلقى مساعدات مالية من الهيئات الإسلامية العالمية مثل هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في المملكة العربية السعودية التي تبرعت لهم بالحقن والتمر ومبلغ ألف دولار. وتتم مساعدة المسلمين المتضررين من الآفات الطبيعية والعاجزين ومساعدة الأيتام والأرامل. . . والإدارة بصدد فتح دار أيتام.

كلمة مدير الإعلام:

- وهو الأخ محمد شريف جمعة مسؤول الإعلام في الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر، قال في كلمته: في عهد النظام السوفييتي البائد كانت تصدر مجلة «المسلمون في الشرق السوفييتي» بعدة لغات مرة في الشهر وأحياناً مرة في كل شهرين أو ثلاثة لأن هدفها الدعاية الإعلامية. . . والآن هناك عدة صحف ومجلات ذات طابع علمي ثقافي

فالإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر تصدر جريدة نور الإيمان بالحرفين العربي والروسي مرة في الأسبوع وهناك مجلة شهرية تصدر باسم «إسلام مدنيتي» أي الحضارة الإسلامية شهرياً وجريدة أخرى باللغة التاجيكية في طاجيكستان. كما يتم إعداد الأحاديث وتسجيلها في أشرطة التسجيل والڤيديو وتخصيص حديث أسبوعي في تلفزيون أوزبكستان.

وكذلك تم تأسيس وكالة الأنباء الإسلامية تقوم بجمع الأخبار والأحاديث والإستطلاعات ونشرها وتزويد وكالات الأنباء العالمية والإسلامية بها.

ـ وقال الشيخ ذاكر جان بن اسماعيل، نائب المفتي ومسؤول النشاط الإستثماري في الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر:

تقوم الإدارة الدينية بمساعدة من هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية بالمملكة العربية السعودية باستزراع مئات هكتارات من الأراضي بالفواكه مثل التفاح والشمام والعنب والخضار من الطماطم والبصل، كما أن مناحل يتم فيها إنتاج العسل الطبيعي وقد حظيت الإدارة الدينية بثلاثمائة هكتار من الأراضي الزراعية في سمرقند يتم استثمارها، علاوة على ذلك فقد تم شراء بعض الأراضي والمنازل بهدف الإستثمار.

ـ أقامت الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر مسابقة ثقافية إسلامية شارك فيها مجموعة من المثقفين الشباب بمقالاتهم وتم اختيار عشر مقالات جيدة وتم مكافأة أصحابها من الأشخاص المتعاونين وهما الأستاذ طاهر مالك وأمين عثمان. . .

وكانت الإدارة قد أجرت مسابقات لتلاوة وحفظ القرآن الكريم في السنتين الماضيتين واشترك اثنان من الفائزين في المسابقة الدولية لتلاوة وحفظ القرآن الكريم التي عقدت مؤخراً في مكة المكرمة. . . والإدارة الدينية بصدد إقامة مسابقة لتلاوة القرآن الكريم فيما بين ١٤ ـ ١٥ مايو ١٩٩٢.



صورة رقم (٥٠): شارع في بلدة تشيناز التي تعشينا فيها بجانب سيحون وهو مبتل بالمطر

وبعد أن انتهى هؤلاء الإخوة الكرام من الكلام عقبت ذلك بكلمة مبسوطة بدأتها بحمد الله تعالى الذي يسر هذا الإجتماع المبارك في هذه الزيارة المباركة إن شاء الله ثم ثنيت بالشكر على الحفاوة والضيافة الكريمة وهنأتهم على تحسن ظروف العمل الإسلامي التي يعيشونها وشكرتهم على جهودهم في ذلك كما تكلمت في حثهم على بذل المزيد من الجهد والعمل لاستغلال الفرص الطيبة حتى يستعيد المسلمون مجدهم الغابر ويكون فيهم من يعيد أمجاد أسلافهم العظام أمثال الإمام البخاري والإمام الترمذي وغيرهما من أئمة الحديث والفقه والتفسير وتستعيد الثقافة

الإسلامية في هذه البلاد سيرتها الأولى ثم أعلنت لهم إسهاماً من الرابطة للأنشطة التالية:

١ ـ تسيير أعمال ونشاط الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر بمبلغ عشرة آلاف دولار.

٢ ـ دعم نشاط الدعوة الإسلامية بمبلغ ألفي دولار.

٣ ـ دعم نشاط الشؤون الإجتماعية بمبلغ ألفي دولار.

٤ ـ دعم نشاط التعليم الإسلامي بمبلغ ألفي دولار.

٥ ـ دعم نشاط الإعلام والنشر بمبلغ ألفي دولار.

٦ ـ دعم نشاط التعليم النسوي بمبلغ ألفي دولار.

٧ ـ دعم مسابقة القرآن الكريم بمبلغ خمسمائة دولار.

يوم الخميس ٥/ ١١/ ١٤١٢هـ ـ ٧/ ٥/ ١٩٩٢م:

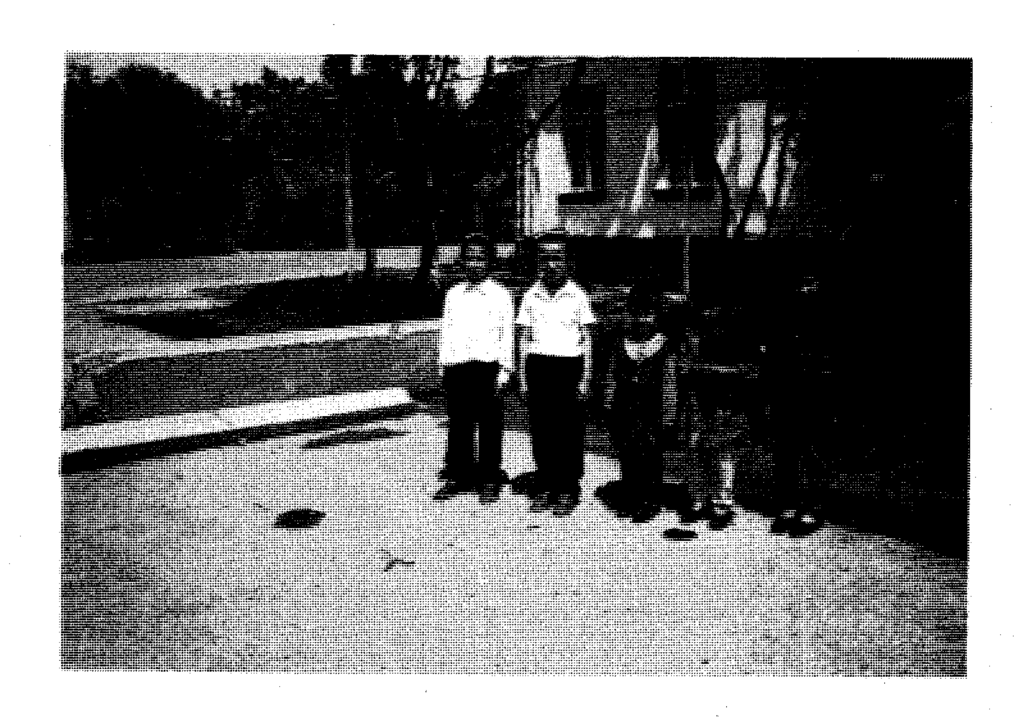
بدأ وفد الرابطة عمله بزيارة قصيرة لمقر الإمارة الدينية لمسلمي ما وراء النهر حيث جرى تسليم الشيخ محمد صادق محمد يوسف مبلغ عشرين ألفاً وخمسمائة دولار التي أعلنت تبرع رابطة العالم الإسلامي بها في الليلة الماضية بحضور أعضاء الإدارة الدينية والمسؤولين عن الشؤون المالية فيها. وقدمنا بعض الهدايا التذكارية لفضيلة المفتي ونائبيه والعاملين في الإدارة كما قدموا لنا هدايا أيضاً جزاهم الله خيراً منها خنجر مما يصنع في هذه البلاد صناعة تقليدية وحرير طبيعي مما تنتجه. ثم قمنا بجولة سريعة للمساجد التالية:

١ ـ مسجد تاجي باي:

يقع في حي تاجي باي وقد اكتمل معظم بناء المسجد وهو بالآجر الأسود وبقيت التشطيبات النهائية. ويتكون المسجد من دورين ويفيد العاملون فيه بأنهم ينوون بناء مدرسة إسلامية بجواره... ولم يكن القائم عليه موجوداً واسمه شكر تيموروك وهو رئيس الحي ولا المتولي واسمه ذاكر عمروف كما ذكروا لنا وإنما وجدنا مساعده واسمه أصقر يوسف (بالقاف) قالوا من اسم الصقر الجارح ولم يكن الإمام موجوداً حال زيارة الوفد مما تعذر معه تقديم مساعدة له.

والحي معظم بيوته من الطين إلا ما كان على الشارع الرئيسي منه فإن بعضه بالإسمنت وقد زرعوا مقدمات البيوت ـ أي مكان الرصيف

بزراعات نافعة مثل أشجار الفاكهة وهي المشمش والخوخ والتوت والكرز والتين.



صورة رقم (٥١): أطفال المسلمين في حي تاجي باي في طشقند

مع محارب قديم:

ذهب بعض القوم يبحثون عن رئيس جمعية المسجد وإمامه وصرت أنتظر ذلك بالتجول حول المسجد الذي ذكروا أنه أول مسجد يبنى في الحي بعد سقوط الشيوعية.

ثم خرجت في جولة على الحي فأعجبتني نظافة الأطفال الذين

رأيتهم فيه رغم كون ظواهر بيوتهم لا توحي بالنظافة. فالتقطت لهم صورة.

ثم تكرر عجبي من هذه البساتين الصغيرة من بساتين الفاكهة أمام البيوت.



صورة رقم (٥٢): الذي شارك في الحرب العالمية الثانية وقال ستالين قوي

ورأيت رجلاً أقطع الرِّجل أي أن رجله مقطوعة ولكنه قد علق على صدره نياشين وأوسمة عديدة فطلبت من أحد الإخوة المرافقين من أهل طشقند أن يستوقفه ويخبره بأننا من مكة المكرمة، ثم سلمت عليه، وسألته عن اسمه فذكر اسماً غريباً وهو (عبد الهاشم قادر) ولم أسمع بأحد تسمى

بذلك من قبل (عبد الهاشم) ولا أشك أن الذين سموه به لا يعرفون معناه حق المعرفة، وربما ظنوا لجهلهم أن الهاشم من أسماء الله تعالى، وإلا فإنه لا يجوز التعبيد لغير الله.

والأغرب من اسمه قصته فهو ذو رجل مقطوعة ذكر أنها قطعت أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان يحارب الألمان في الجيش السوفييتي، ومعروف أن السوفييت من الشيوعيين، لذلك سألته أأنت شيوعي، فقال: أنا لست شيوعياً، أنا نقي القلب، أنا لست شيوعياً. فقلت له: كيف قطعت رجلك؟ فقال: في الحرب.

قال: وليست إصابتي في رجلي فقط، بل أجريت لي إحدى عشرة عملية جراحية من إصابات أخرى، ولذلك نلت هذه الأوسمة و(النياشين) العديدة، إن عددها ١٢ وساماً. قال: وبعد هزيمة الألمان نلت وساماً رفيعاً هو (وسام ستالين).

فسألته بهذه المناسبة عن رأيه في ستالين؟ فقال: هو رجل قوي!

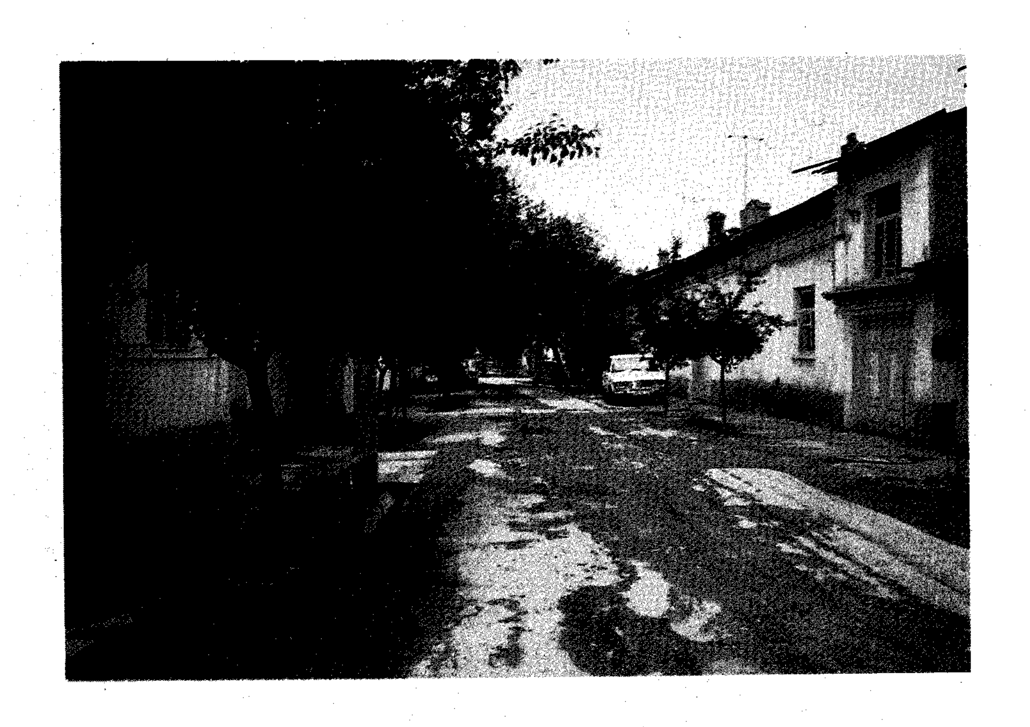
فعرفت أنهم لم يعطوه هذه الأوسمة، إلا بعد أن تأكدوا أنه مخلص لهم، وقد سارع بقوله: لقد اشتركت في دخول مدينة برلين عاصمة الألمان.

وما أدري لو سأله سائل قبل سقوط الشيوعية عن رأيه فيها ماذا كان يكون عليه جوابه، هذا ويبلغ عمره الآن سبعين سنة.

مسجد محلة ايلغار:

يقع في حي اسمه (حي ايلغار) وهو جديد قد اكتمل أو كاد، إذ لم يبق منه إلا إكمال بعض الحيطان الخارجية وإقامة المنارة.

وهو أول مسجد في هذه المحلة، وقد طلبوا منا أن نسميه لهم فأسميناه (مسجد بيعة الرضوان) وذلك أننا سألناهم هم عن اسمه حيث نحرص على معرفة اسم المسجد من أجل أن نسجله عندنا في الرابطة حتى إذا احتجنا إلى الرجوع إلى الاسم لأي غرض من الأغراض ميزناه به.



صورة رقم (٥٣): شارع في حي ايلغار في طشقند

ووجدنا فيه بعض الإخوة المسلمين من أهل الحي منهم الأخ أحمد جان بن ذاكر وهو متولي المسجد بمعنى رئيس الجمعية التي أشرفت على بنائه وتشرف الآن على صيانته والإنتفاع به، وكذلك الإمام قاسم جان.

وقد ذكروا أن المسجد بني من تبرعات الإخوة المسلمين أهل الحي وأن بعض أبناء المسلمين من أهل الحي يدرسون القرآن الكريم فيه.

وقد قدمنا لهم تبرعاً للمساعدة على إكمال المسجد مثلما رصدنا مبلغاً للمسجد الأول وأخبرنا أهله أن يحضروا إلينا في الإدارة الدينية أو لفندق طشقند ليتسلموا منا المبلغ كما أخبرناهم أنهم يمكنهم الكتابة إلينا

في الرابطة إذا احتاجوا إلى شيء للمساجد وأن يخبرونا بأسمائها وأنها التي زرناها من قبل لنتأكد من حاجتها للتبرع.



صورة رقم (٥٤): مسجد تاجي باي في طشقند

مأدبة أوزبكية:

ذهبنا من هذا المسجد سيراً على الأقدام مع زقاق في هذا الحي قد غيبت أشجار الفاكهة المغروسة أمام البيوت واجهاتها عن النظر لاخضرارها بل ازدهارها، حتى دخلنا بيت الأخ أحمد جان ذاكروف أي ابن ذاكر وهو متولي المسجد، ويعمل في التجارة. وكان مما يستحق الذكر ما يتعلق بأسرة الأخ أحمد جان وما حدثنا به هو وغيره من أن جده

الأقرب أي هو والد أبيه اسمه (أحمد جان خليل الله مخدوم) كان من كبار علماء طشقند نفاه الشيوعيون إلى سيبيريا في عام ١٩٣٩م ولم يسمحوا بعودته إلى بلده طشقند فمات هناك في سيبيريا عام ١٩٥٣.

وجدنا مائدة الغداء منصوبة في بيت الأخ أحمد جان رغم أن الوقت كان مبكراً على تناول الغداء، ولكنه جزاه الله خيراً أراد أن يكرمنا بذلك.

وكانت المائدة أوزبكية كان في مقدماتها الفاكهة التي لا توجد في السوق الآن من الفراولة والكرز وكذلك النقول وهي التي تعرف الآن بالمكسرات ثم الأطعمة الحارة المعتادة.



صورة رقم (٥٥): تذكارية مع الكاتب الأديب
(على يميني طاهر مالك فالكاتب الأديب أمين عثمان فالأستاذ محمد حافظ فالأستاذ رحمة الله بن عناية الله) في منزل الأخ أحمد جان ذاكروف في طشقند

والأهم من ذلك أنه دعا إلى المائدة عدداً من الأدباء والمفكرين منهم: الأستاذ طاهر مالك كاتب وأديب وهو رئيس تحرير مجلة الشبيبة (ياشلك). والأستاذ خورشيد دوست محمد رئيس تحرير مجلة الشباب والفتوة، هكذا ترجموها لنا. والأستاذ أمين عثمان الذي سبق ذكره.

انتهزت هذه الفرصة في الحديث مع هؤلاء الأدباء وبعض الحاضرين من المفكرين فبحثت معهم في حالة الأدب في ظل النظام الشيوعي الذي جثم على البلاد مدة تزيد على سبعين سنة، وعن حالة الأدباء الآن بعد إعلان سقوط الشيوعية.

وقد كثرت الآراء وتعددت ولكن كادوا يجمعون على أشياء مثل قولهم: إنه لم يتغير الآن في البلاد بعد سقوط الشيوعية إلا الأسماء أي أسماء المعتقدات والشعارات، وذكروا أن الأدباء في عهد الشيوعية كانوا يكتبون ويؤيدون من أجل الحصول على المنصب والكسب المادي وليس عن إيمان بالشيوعية وهذه هي حال أكثرهم من دون شك ولا يشذ عنها إلا القليل. قالوا ذلك وهم من الأدباء الذين عملوا واشتهروا إبان الشيوعية.

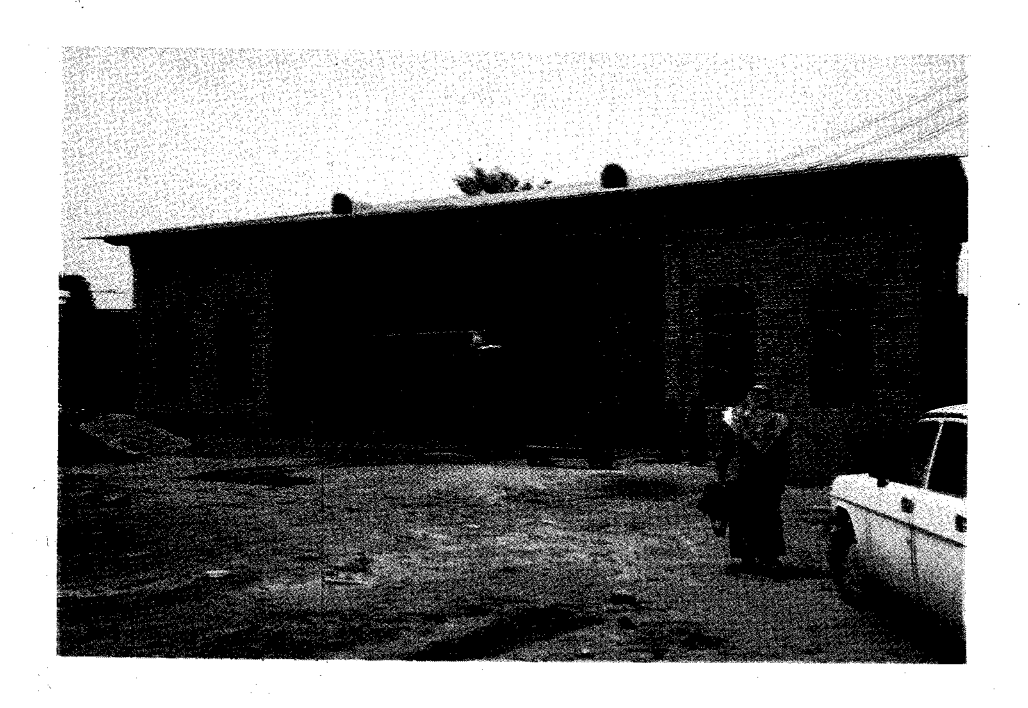
قالوا: ومن ذلك أن طاهر مالك هذا الحاضر معنا كان قد كتب كتاباً قبل ٢٥ سنة تحدث فيه عن الضرر الذي يلحقه الصيام بالإنسان والبلاد، ولكنه عاد الآن وكتب كتاباً في فوائد الصوم يرجو أن يكفر به عما كتبه سابقاً عندما كان شاباً لا يعرف شيئاً عن الإسلام ولا عن أركانه إلا ما سمعه من الشيوعيين الملحدين من ذم وتجريح.

وقال طاهر نفسه: لقد كان علماؤنا الذين هم أئمة المساجد المشايعون للدولة الشيوعية يلومونا على كتاباتنا المؤيدة للشيوعية. ولذلك يطلبون منا الآن أن نكتب ضد الشيوعية، فحتى العلماء فيهم من شايع الحكام الشيوعيين.

وقال أحدهم: نحن الآن نتصور حالتنا كحالة الصليبيين الذين حكموا في البلدان العربية، وأضلوا من بقي من المسلمين تحت حكمهم، وقد انتهت الشيوعية مثلما انتهت حروب الصليبيين ولكن ثقافتهم باقية

لأنها الثقافة التي كانت موجودة ولم تحل ثقافة أخرى محلها حتى الآن، لأنه لم يكن في الوقت متسع حتى الآن.

وذكروا أنه لم يستجب للكتابة في محاسن الإسلام الآن إلا عدد قليل من الأدباء مثل الأخ أمين عثمان كتب بعض الكتب في هذا الموضوع، لأن الأدباء لا يملكون المعرفة الكاملة بالإسلام ولكون الكتب الثقافية الإسلامية من المراجع الكبيرة غير موجودة باللغة الأوزبكية أو اللغة الروسية ولا يحسنون غير هاتين اللغتين.



صورة رقم (٥٦): مسجد بيعة الرضوان في طشقند

وذكروا أسماء بعض الأدباء الذين كتبوا عن الإسلام مثل عبد الله أديب الذي ترجم ٤٠ حديثاً من صحيح البخاري إلى اللغة الأوزبكية

وشرحها شرحاً وافياً والأستاذ شاكر قربان الذي نظم معاني تلك الأحاديث شعراً باللغة الأوزبكية مما لم يكن يوجد قبلهما.

وقد أشرت عليهم أن يعقدوا مؤتمراً للأدباء من ذوي الإتجاه الإسلامي يتدارسون فيه كيفية إسهامهم في تصحيح العقيدة ويحثون فيه القادرين من الأدباء على التكفير عما سبق من كتاباتهم في تقريظ الشيوعية، ومدح زعمائها.

وذكرت لهم أننا في رابطة العالم الإسلامي مستعدون للمساعدة على نفقات هذا المؤتمر، أو ما يقرب منه مما يؤدي الغرض الذي ذكرته.

عقيدة تعلم العقيدة:

رأيت عجباً من تعلق المسلمين بدينهم الإسلامي العظيم رغم الضغوط الإلحادية التي استمرت توجه إليهم عقوداً طويلة ورغم تحريم التعليم الديني بأية صورة من صوره، وذلك عندما سقطت الشيوعية وأتيح لهم القليل من الحرية في تعليم دينهم وفي التعبير عن تعلقهم به.

ومن ذلك أنهم أحضروا لنا ونحن على المائدة دفتراً مكتوباً بحروف عربية واضحة وبحروف أوزبكية بخطوط جميلة ذكروا أن الذي كتبه سيدة مسلمة اسمها (عقيدة) هكذا على اسم العقيدة الدينية وأنها زوجة مضيفنا الأستاذ أحمد جان، وأنها تعلم الأخوات المسلمات مبادىء العقيدة الإسلامية اللاتي يحتجن إليها أشد الإحتياج. ومن عجب أن الخط جميل والعبارات صحيحة المعاني، فقلت عند ذاك: إن لله جنوداً مجهولين.

مغادرة أوزبكستان:

غادرنا بيت الأخ أحمد جان بسرعة إلى فندق أوزبكستان حيث حملنا أمتعتنا وخرجنا إلى مطار طشقند وسافرنا منه إلى مدينة (المأأتما) عاصمة جمهورية قازاقستان، وللكلام على ذلك مكان آخر في كتاب آخر عنوانه: «حديث قازاقستان»، والله المستعان على كل شان.

تم الكتاب ولله الحمد

الفهرس